http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٠٠

وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً ، كما طلبوا لَقُضِيَ الْأَمْرُ بهلاكهم ، فإنّ سنة اللّه جرت بذلك فيمن قبلهم مهما اقترحوا آية ، فظهرت ثم كفروا ، عجّل اللّه هلاكهم ، ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ أي : لا يمهلون بعد نزولها ساعة.

وعلى تقدير لو أنزلنا عليهم الملك – كما اقترحوا – فلا يمكن أن يظهر إلا على صورة البشر ليطيقوا رؤيته ، وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا ليتمكنوا من رؤيته ، كما مثّل جبريل فى صورة دحية ، فإن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملائكة. وإنما رأوهم كذلك الأفراد من الأنبياء ، لامتلاء أسرارهم بالأنوار القدسية ، فإذا ظهر على صورة البشر التبس الأمر عليهم فقالوا : إنما هو بشر لا ملك. فهذا معنى قوله : وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ أي : لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم ، أو لفعلنا لهم فى ذلك فعلا ملبسا يطرق لهم إلى أن يلبسوا به على أنفسهم وضعفائهم فإن عادة اللّه فى إظهار قدرته أن تكون مرتدية برداء حكمته ليبقى سر الربوبية مصونا ، فمن سبقت له العناية خلق اللّه فى قلبه التصديق بها ، حتى علمها ضرورة ، وغيره يلبس الأمر عليه فيها. وباللّه التوفيق.

الإشارة : كرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء ، لا تظهر إلّا لأهل الصدق والتصديق ، ولا يتحقق بولايتهم إلّا من سبق له الوصول إلى عين التحقيق. «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» ، فأهل الإنكار عليهم لا يرون إلا ما يقتضى البعد عنهم. وأهل الإقرار لا يرون إلا ما يقتضى القرب منهم والمحبة فيهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم سلّى رسوله – عليه الصلاة السلام – فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (١٠)

قلت : حاق يحيق حيقا ، أي : نزل وأحاط ، و(منهم) : يتعلق بسخروا ، و(ما كانوا) : الموصول اسمى أو حرفى.

يقول الحق جل جلاله فى تسلية رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم : وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ كثير مِنْ قَبْلِكَ فصبروا على أذى قومهم حتى أهلكهم اللّه ، فَحاقَ أي : أحاط بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أي :

نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزءون به ويستبعدونه ، أو : نزل بهم وبال استهزائهم وهو الهلاك.

الإشارة : كل ما سليّت به الرسل تسلّى به الأولياء ، فما من ولى صدّيق إلا ابتلاه اللّه بتسليط الخلق عليه حتى ترحل روحه عن هذا العالم لضيقه عليها ، وتتمكن من شهود عالم الملكوت ، فإذا طهرت منه البقايا ، وكملت فيه المزايا ، ردّه إليهم غنيّا عنهم ، وغائبا عنهم ، جسمه مع الخلق وقلبه مع الحق. هذه سنة اللّه فى أوليائه ، فكل وليّ يتسلى بمن قبله فى إيذاء الخلق له. غير أن أولياء هذه الأمة إذا كمل مقامهم صاروا على قدم نبيهم ، يكونون رحمة

للعباد ، من آذاهم لا يعاجل بالعقوبة غالبا ، كما كان نبيهم رحمة للعالمين ، فقال : «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون». واللّه تعالى أعلم.

ثم جددّ الأمر بالاعتبار ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١١]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)

قلت : قال الزمخشري : فإن قلت : أىّ فرق بين قوله : (فانظروا) ، وبين قوله : (ثم انظروا)؟ فالجواب : أنه جعل النظر مسبّبا على السير فى قوله : انْظُرُوا ، كأنه قال : سيروا لأجل النظر ، وأما قوله : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا ، فمعناه : إباحة السير للتجارة وغيرها من المنافع ، وإيجاب النظر فى الهالكين. هـ. ولم يقل : كانت لأن العاقبة مجاز تأنيثها.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ وجولوا فى أقطارها ، ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ قبلكم ، كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ، كيف أهلكهم اللّه بعذاب الاستئصال ، كى تعتبروا وتنزجروا عن تكذيب محمد – عليه الصلاة السلام – .

الإشارة : يقال لأهل التنكير على أهل الذكر والتذكير : سيروا فى الأرض ، وانظروا كيف كان عاقبة المنكرين على المتوجهين ، كانت عاقبتهم الخذلان ، وسوء الذكر بعد الموت والخسران كابن البراء وغيره من أهل التنكير.

نعوذ بالله من التعرض لمقت اللّه.

لكن الأمر كله بيد اللّه ، كما قال تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٢ الى ١٣]

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣)

قلت : جملة (ليجمعنكم) : مقطوعة ، جواب لقسم محذوف ، وقيل : بدل من الرحمة ، وهو ضعيف لدخول النون الثقيلة فى غير موضعها. و«إلى» : هنا ، للغاية ، كما تقول : جمعت القوم إلى دارى. وقيل : بمعنى «فى» ، و(الذين خسروا) : مبتدأ ، وجملة : (فهم لا يؤمنون) : خبر ، و(له ماسكن) : عطف على (لله) ، وهو إما من السكنى فلا حذف ، أو من السكون ، فيكون حذف المعطوف. أي : ما سكن وتحرّك.

(١٠١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٠٢

يقول الحق جل جلاله : قُلْ للمشركين يا محمد : لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ خلقا وملكا وعبيدا؟. قُلْ لهم هو : لِلَّهِ لا لغيره ، والقصد بالآية : إقامة البرهان على التوحيد وإبطال الشرك. وجاء ذلك بصيغة الاستفهام لإقامة الحجة على الكفار ، فسأل أولا ، ثم أجاب عن سؤاله بنفسه لأنّ الكفار يوافقون على ذلك ضرورة ، فثبت أن الإله الحق هو الذي له ما فى السموات والأرض ، وإنما يحسن أن يكون السائل مجيبا إذا علم أن خصمه لا يخالفه فى الجواب الذي يقيم به الحجة عليه.

ثم دعاهم إلى الإيمان والتوبة بتلطّف وإحسان فقال : كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «١» كما فى الآية الأخرى ، والكتابة هنا عبارة عن القضاء السابق ، وقد فسرها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بقوله : «إنّ اللّه كتب كتابا قبل أن يخلق السّموات والأرض فهو عنده» وفيه : «أنّ رحمتى سبقت غضبى» «٢» وفى رواية : «تغلب غضبى» «٣».

قال البيضاوي : كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أي : التزمها تفضلا وإحسانا ، والمراد بالرحمة : ما يعمّ الدارين ، ومن ذلك : الهداية إلى معرفته ، والعلم بتوحيده ، بنصب الأدلة ، وإنزال الكتب والإمهال على الكفر. هـ.

ثم ذكر محل ظهور هذه الرحمة ، فقال : واللّه لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ أي : ليجمعنكم من القبور مبعوثين إلى يوم القيامة فيجازى أهل التوبة والإيمان ، ويعاقب أهل الشرك والكفران ، لا رَيْبَ فى ذلك اليوم ، أو فى ذلك الجمع ، فيظهر أهل الخسران من أهل الإحسان ، ولذلك قال : الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بتضييع رأس مالهم ، وهو النظر الصحيح الموجب للإيمان والتوحيد فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ حتى أدركهم الموت فلا خسران أعظم من ذلك. ودخلت الفاء فى الخبر للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبّب عن خسرانهم فإن إبطال النظر ، والانهماك فى التقليد واتباع الوهم ، أدّى بهم إلى الإصرار على الكفر ، والامتناع من الإيمان إلى الممات. فخسروا أولا بتضييع النظر ، فتسبب عنه عدم الإيمان.

ثم تمم جوابه فقال : وَلَهُ ما سَكَنَ أي : قل لهم : ما فى السموات والأرض للّه ، وله أيضا ما سكن فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أي : ما استقر فيهما وما اشتملتا عليه ، أو ما سكن فيهما وتحرك ، وَهُوَ السَّمِيعُ لكل مسموع ، الْعَلِيمُ بكل معلوم فلا يخفى عليه شيء فى الليل والنهار ، فى جميع الأقطار.

---

(١) الآية ٥٤ من السورة نفسها.

(٢) أخرجه البخاري فى (التوحيد ، باب قول اللّه تعالى : «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ») من حديث أبى هريرة.

(٣) أخرجها البخاري فى (التوحيد ، باب قوله تعالى «وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ») ومسلم فى (التوبة ، باب : فى سعة رحمة اللّه) من حديث أبى هريرة.

الإشارة : إذا علم العبد أن الخلق كلهم فى قبضة اللّه ، وأمورهم كلها بيد اللّه ، أحاط بهم علما وسمعا وبصرا ، لم يبق له على أحد عتاب ، ولا ترتيب خطأ ولا صواب ، إلّا ما أمرت به الشريعة على ظاهر اللسان. بل شأنه أن ينظر إلى ما يفعل المالك فى ملكه ، فيتلقاه بالقبول والرضى ، وفى الحكم : «ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر فى الوقت غير ما أظهره اللّه فيه» ، هذا شأن أهل التوحيد يدورون مع رياح الأقدار حيثما دارت ، غير أنهم يتحنّنون بقلوبهم إلى رحمة الكريم المنان ، وينهضون بهمتهم إلى مظانّ السعادة والغفران ، ويرجون منه الجمع عليه فى روح وريحان ، وجنة ورضوان ، بمحض فضل منه وإحسان. جعلنا اللّه منهم بفضله وكرمه. آمين.

ثم أقام الحجة على أهل الشرك ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤ الى ١٨]

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)

قلت : (فاطر) : نعت للّه ، ومعناه : خالق ومبدع. قال ابن عباس رضى اللّه عنه : (ما كنت أعرف معنى فاطر ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها بيدي). وجملة : (و هو يطعم) : حال ، وقرىء بعكس الأول ببناء الأول للمفعول ، والثاني للفاعل ، على أن ضمير (هو) راجع

لغير اللّه ، وبنائهما للفاعل على معنى يطعم تارة ، ويمنع أخرى ، كقوله : يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ «١» ، وجملة (إن عصيت) : معترضة بين الفعل والمفعول ، والجواب : محذوف دل عليه ما قبله ، أي : إن عصيت فإنى أخاف عذاب يوم عظيم.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا أي : معبودا أواليه بالعبادة والمحبة ، وأشركه مع اللّه الذي أبدع السموات والأرض ، وَهُوَ الغنى عما سواه ، الصّمدانى ، يُطْعِمُ عباده ولا يُطْعِمُ ولا يحتاج إلى من يطعمه ، فهو يرزق ولا يرزق ، وتخصيص الطعام لشدة الحاجة إليه. قُلْ لهم : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وأنقاد بكلّيتى إلى هذا الإله الحقيقي ، الغنى بالإطلاق ، وأرفض كل ما سواه ، ممن عمّه الفقر ابتداء ودواما. فكان عليه الصلاة والسلام هو أول سابق إلى الدين. ثم قيل له : وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ تنفيرا لغيره من الشرك ، وإلّا فهو مبرّأ منه – عليه الصلاة والسلام – .

---

(١) من الآية : ٢٤٥ من سورة البقرة.

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بالشرك وغيره عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، وهذه مبالغة أخرى فى قطع أطماعهم ، وتعريض لهم بأنهم عصاة ، مستوجبون للعذاب ، مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ ذلك العذاب ، يَوْمَئِذٍ أي : يوم القيامة ، فَقَدْ رَحِمَهُ أي : نجاه ، وأنعم عليه ، وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ أي : وذلك الصرف أو الرحمة هو الفلاح المبين.

ثم ذكر حجة أخرى على استحقاقه للعبادة والولاية ، فقال : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ كمرض أو فقر ، فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ إذ لا يقدر على صرفه غيره ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ بنعمة ، كصحة وغنى ومعرفة وعلم ، فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، فهو قادر على حفظه وإدامته ، ولا يقدر أحد على دفعه ، كقوله تعالى : فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ «١» ، وَهُوَ الْقاهِرُ لجميع خلقه كلهم فى قبضته ، فَوْقَ عِبادِهِ بهذه القهرية والغلبة والقدرة ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فى صنعه وتدبيره ، الْخَبِيرُ بخفايا أمور عباده ، لا يخفى عليه شىء من أحوالهم الباطنة والظاهرة.

الإشارة : فى الآية حضّ على محبة الحق ، وولايته على الدوام ، ورفض كل ما سواه ممن عمّه الفقر من الأنام ، وفيها أيضا : حث على المسابقة إلى الخيرات ، والمبادرة إلى الطاعات ، اقتداء بسيد أهل الأرض والسموات ، فكان – عليه الصلاة السلام – أول من عبد اللّه ، وأول من توجه إلى مولاه ، قال تعالى : قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ «٢» ، فلو جاز أن يتخذ ولدا ، لكنت أنا أولى به ،

لأنى أنا أول من عبده.

قال الورتجبي : قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ أي : أمرنى حين كنت جوهر فطرة الكون – حيث لم يكن غيرى فى الحضرة – أن أكون أول الخلق فى المحبة والعشق والشوق ، وأول الخلق له منقادا بنعت محبتى له ، راضيا بربوبيته ، غير منازع لأمر مشيئته. وقال بعضهم : أكون أول من انقاد للحق إذا ظهر. هـ.

ولما قالت قريش للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم : يا محمد : لقد سألنا عنك اليهود والنصارى ، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة ، فأرنا من شهد لك؟ أنزل اللّه تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٩]

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)

قلت : (قل اللّه شهيد) : يحتمل المبتدأ والخبر ، أو يكون (اللّه) خبرا عن مضمر ، أو مبتدأ حذف خبره ، و«شهيد» :

خبر عن مضمر ، أي : قل هو اللّه ، أو اللّه أكبر شهادة ، وهو شهيد بينى وبينكم ، و(من بلغ) : عطف على مفعول ، «أنذر» ، أي : لأنذركم يا أهل مكة ، وأنذر من بلغه القرآن ، وحذف مفعول (بلغ).

---

(١) من الآية : ١٠٧ من سورة يونس.

(٢) من الآية : ٨١ من سورة الزخرف.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٠٥

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد للذين سألوك من يشهد لك بالنبوة : أَيُّ شَيْءٍ عندكم هو أَكْبَرُ شَهادَةً؟ فإن لم يجيبوا فقل لهم : هو اللَّهُ فإنه أكبر الشاهدين ، وهو الذي يشهد لى بالنبوة والرسالة بإقامة البراهين وإظهار المعجزات ، وهو شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وكفى به شهيدا.

وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ أي : لأخوّفكم به ، إن أعرضتم عنه ، وأبشّركم به إن آمنتم به ، واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة لأنه مصرح به فى موضع آخر ، ولأن الأهم هنا هو الإنذار لغلبة الكفر حينئذ ، وأنذر به أيضا كل من بلغه القرآن من الأحمر والأسود ، والجن والإنس إلى يوم القيامة. وفيه دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت النزول ومن بعدهم ، وأنه لا يؤاخذ بها من لم

تبلغه ، وهو نادر ، قال سعيد بن جبير : (من بلغه القرآن فكأنما رأى محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم).
الإشارة : فى الآية حث على الاكتفاء بعلم اللّه ، والاستغناء به عما سواه ، وعلامة الاكتفاء بعلم اللّه ثلاث :
استواء المدح والذم ، والرضى بالقليل والكثير ، والرجوع إلى اللّه وحده فى السراء والضراء.
واعلم أن الحق تعالى إذا شهد لك بالخصوصية ، ثم اكتفيت بشهادته فأنت من أهل الخصوصية ، وإن لم تكتف بشهادته ، وتطلعت إلى أن يعلم الناس بخصوصيتك ، فأنت كاذب فى دعوى الخصوصية.
واطلاع الحق تعالى على ثبوت خصوصيتك هو شهادته لك ، فاقنع بعلم اللّه ، ولا تلتفت إلى أحد سواه ، لئلا ينزعها من قلبك ، حيث لم تقنع بعلم اللّه فيك. وباللّه التوفيق.
ولمّا أتى قوم من الكفار إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقالوا : يا محمد أما تعلم أن مع اللّه إلها آخر؟ أنزل اللّه تعالى :
أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ قلت : الاستفهام للإنكار والتوبيخ.
يقول الحق جل جلاله ، فى الإنكار على المشركين : أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى تستحق أن تعبد قُلْ لهم يا محمد : أنا لا أَشْهَدُ بما تشهدون به ، قُلْ لهم : إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ بل أشهد ألا إله إلا هو ، وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ به من الأصنام.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٠٦
الإشارة : لم يبرأ من الشرك الخفي والجلى إلا أهل الفناء الذين وحدوا اللّه فى وجوده ، فلم يروا معه سواه. قال بعض من بلغ هذا التوحيد : (لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع فإنه لا غير معه حتى أشهده)
وقال آخر : محال أن تشهده وتشهد معه سواه. وقال شاعرهم :
مذ عرفت الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوع
إلى غير ذلك من مقالاتهم الدالة على تحقيق وجدانهم. نفعنا اللّه بذكرهم ومحبتهم. آمين.
ولمّا قالت قريش : قد سألنا اليهود والنصارى عنك ، فلم يجدوا لك عندهم ذكرا ، ردّ اللّه عليهم ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٢٠ الى ٢١]
الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)

يقول الحق جل جلاله الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ من اليهود والنصارى ، يَعْرِفُونَهُ أي : محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم بحليته المذكورة فى التوراة والإنجيل ، كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ أو أشد ، وإنما كتموه جحدا وخوفا على رياستهم .. الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ من أهل الكتاب حيث كذّبوا وكتموا ، ومن المشركين حيث كفروا وجحدوا ، فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ لتضييعهم ما به يكتسب الإيمان من النظر والتفكير والإنصاف للحق ، فقد ظلموا أنفسهم وبخسوها.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بأن كتم شهادة الحق ، وهى صفة الرسول – عليه الصلاة والسلام – أو ادّعاء الملائكة بذات اللّه ، وهؤلاء شفعاؤنا عند اللّه ، أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ كالقرآن والمعجزات وسمّوها سحرا ، أي : لا أحد أظلم ممن فعل هذا ، وإنما عبّر ب «أو» ، وهم قد جمعوا بين الأمرين تنبيها على أن كل واحد منهما وحده بالغ غاية الإفراط فى الظلم على النفس ، إِنَّهُ أي : الأمر والشأن لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ، فضلا عمّن لا أحد أظلم منه.

الإشارة : أقبح الناس منزلة عند اللّه ، من تحقق بخصوصية ولى من أولياء اللّه ، ثم كتمها وجحدها حسدا وعنادا ، وجعل ينكر عليه ، فقد آذن بحرب من اللّه ، فالتسليم عناية ، والانتقاد جناية ، والاستنصاف من شأن الكرام ، والتعصب من شأن اللئام. وباللّه التوفيق.

(١٠٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٠٧

ثم ذكر وعيد أهل الشرك ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٢٢ الى ٢٤]

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)

قلت : لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ، من قرأ بالرفع والتأنيث : ففتنة اسمها ، و(إلّا أن قالوا) : خبرها ، ومن قرأ بالنصب : فخبر مقدم ، والتأنيث لأجل الخبر ، ومن قرأ بالتذكير والنصب ، فخبر مقدم ، و(إلّا أن قالوا) : اسمها.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يا محمد يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ أي : المشركين ، جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ أي : آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله ، الَّذِينَ كُنْتُمْ تزعمونهم شركاء ، وتودونها وتنتصرون لها ، فيحال بينهم وبينها ، ويتبرأون منها ، كما قال تعالى : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ أي : لم تكن عاقبة كفرهم الذي افتتنوا به ، إلا التبرؤ منه ، بعد الانتصار له والتعصب عليه

، أو : لم يكن جواب اختبارهم إلا التبرؤ من الشرك ، فيكذبون ويحلفون عليه ، مع علمهم بأنه لا ينفع من فرط الحيرة والدهشة.

فإن قلت : كيف يجحدون مع قوله : وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً «١» فالجواب : أن ذلك يختلف باختلاف الطوائف والمواطن ، فيكتم قوم ويقر آخرون ، ويكتمون فى موطن ويقرون فى موطن آخر لأن يوم القيامة طويل ، وقال ابن عباس لمّا سئل عن هذا : (إنهم جحدوا ، طمعا فى النجاة ، فختم اللّه على أفواههم وتكلمت جوارحهم ، فلا يكتمون حديثا).

قال تعالى : انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ بنفي الشرك عنها بعد تحققها به ونظيره قوله : يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ «٢» وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ «٣» أي : غاب عنهم ما كانوا يعبدونه من الشركاء افتراء على اللّه.

الإشارة : من أحب شيئا فهو عبد له ، ويوم القيامة يتبرأ منه ، ويرى وبال فتنته والاشتغال به ، فينبغى لمن أراد السلامة من الفتنة ، أن يفرد محبته للّه ، ويتبرأ من كل ما سواه ، ويفرد وجهته للّه ، ولا يشتغل ظاهرا ولا باطنا إلا

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة النساء.

(٢) من الآية : ١٨ من سورة المجادلة.

(٣) من الآية : ٤٢ من سورة يونس. [.....]

بما يقربه من اللّه ويبعده عما سواه وفى الحديث : «تعس عبد الدّينار والدّرهم والخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش» «١».

ثم ذكر أحوالهم فى الدنيا باعتبار الكفر والعناد ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (٢٦)

قلت : «من» : لفظها مفرد ومعناها جمع ، فيجوز فى الضمير مراعاة اللفظ فيفرد ، كقوله هنا : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، ويجوز مراعاة المعنى فيجمع ، كقوله فى يونس : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ «٢»

والأكنّة : الأغطية ، جمع كنان ، و(أن يفقهوه) : مفعول له أي : كراهية أن يفقهوه ، و(حتى) : غاية ، أي : انتهى التكذيب حتى وصلوا إليك يجادلونك ، والجملة بعدها : إمّا فى محل جر بها ويجادلونك جواب لها ، و(يقول) : تبيين لها ، وإما لا محل لها فتكون ابتدائية. والأساطير : جمع أسطورة ، أو أسطار جمع سطر ، فيكون جمع الجمع.

يقول الحق جل جلاله : ومن الكفار مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حين تقرأ القرآن ، والمراد : أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم ، اجتمعوا فسمعوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقرأ ، فقالوا للنضر : ما تقول؟ فقال :

والذي جعلها بيننا وبينه ما أدرى ما يقول ، إلا أنه يحرك لسانه ، ويقول أساطير الأولين ، مثل ما جئتكم به. قال السّهيلى : حيث ما ورد فى القرآن : «أساطير الأولين» فإنّ قائلها هو النضر بن الحارث ، وكان قد دخل بلاد فارس وتعلّم أخبار ملوكهم ، فكان يقول : حديثى أحسن من حديث محمد ، فنزلت فيه وفى أصحابه.

وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أي : أغطية كراهة أَنْ يَفْقَهُوهُ لما سبق لهم من الشقاء ، وَجعلنا فِي آذانِهِمْ وَقْراً أي : ثقلا وصمما فلا يسمعون معانيه ، ولا يتدبرونها. وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ ومعجزة لا يُؤْمِنُوا بِها لفرط عنادهم ، واستحكام التقليد فيهم ، وسبق الشقاء لهم ، فلا يزال التكذيب والشك يعظم فيهم حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ أي : حتى ينتهى بهم التكذيب إلى أن يجيؤوك يجادلونك يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أي : ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ أي : أكاذيب الْأَوَّلِينَ ، فإنّ جعل أصدق الحديث خرافات الأولين غاية التكذيب.

---

(١) إذا شيك فلا انتقش : أي : إذا شاكته شوكة فلا يقدر على انتقاشها ، وهو إخراجها بالمنقاش ... والحديث أخرجه البخاري مطولا فى (الجهاد والسير ، باب الحراسة). من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٢) من الآية : ٤٢ من سورة يونس.

وَهُمْ أيضا يَنْهَوْنَ عَنْهُ أي : ينهون الناس عن القرآن ، أو عن الرسول والإيمان به ، وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ أي : يبعدون عنه ، فقد ضلوا وأضلوا ، أو ينهون عن التعرض لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وينأون عنه فلا يؤمنون ، كأبى طالب ومن كان معه ، يحمى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وهو فى مكة. وفى (ينهون) ضرب من ضروب التجنيس من علم البلاغة.

قال تعالى : وَإِنْ أي : ما يُهْلِكُونَ بذلك إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ أن ضررهم لا يتعداهم إلى غيرهم.

الإشارة : اعلم أن القلب تحجبه عن تدبر كلام اللّه والتمتع بحلاوته أربعة حجب :

الأول : حجاب الكفر والشرك ويندفع بالإيمان والإسلام ..

والثاني : حجاب المعاصي والذنوب ، وينخرق بالتوبة والانقلاع.

والثالث : حجاب الانهماك فى الحظوظ والشهوات واتباع الهوى ، وينخرق بالزهد والورع والتعفف ونوع من الرياضة.

والرابع : حجاب الغفلة والخوض فيما لا يعنى ، والاشتغال بالبطالة ، وينخرق باليقظة والتوجه إلى الحق ، والانقطاع إلى اللّه بكليته ، فإذا انخرقت هذه الحجب عن القلب ، تمتع بحلاوة القرآن ، ومناجاة الحق على نعت القرب والمراقبة.

وبقي حجابان آخران ، إذا خرقهما العبد أفضى إلى مشاهدة المتكلم دون واسطة ، أولهما : حجاب حلاوة الطاعة والمعاملة الظاهرة ، والوقوف مع المقامات أو الكرامات ، فإنها عند العارفين سموم قاتلة.

وثانيهما : حجاب الوهم والوقوف مع ظاهر الحس ، دون الوصول إلى باطنه ، فيقف مع الأوانى دون شهود المعاني ، وقد قال الششترى :

لا تنظر إلى الأوانى وخض بحر المعاني

لعلّك ترانى.

وقال الغزالي : الموانع التي تحجب القلب عن الفهم أربعة : الأول : جعل الفهم مقصورا على تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها ، فهذا يتولى حفظه شيطان وكلّ بالقراء ، يصرفهم عن معانى كلام اللّه تعالى. الثاني : أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه ، من غير وصول إليه ببصيرة. الثالث : أن يكون مصرا على ذنب ، أو متصفا بكبر ، أو مبتلى بهوى فى الدنيا مطاع ، فإن ذلك سبب ظلمة القلب ، وهو كالخبء على المرآة ، فيمنع جلية الحق فيه ، وهو أعظم حجب القلب ، وبه حجب الأكثرون ، الرابع : أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا ، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلّا ما يتأوّل عن ابن عباس ، ومجاهد وغيرهما ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى منهى عنه ، فهذا أيضا من الحجب العظيمة ، فإن القرآن بحر لا ساحل له ، وهو مبذول لمن يغرف منه إلى يوم القيامة ، كل على قدر سعته وصفاء قلبه .. هـ. بالمعنى.

(١٠٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١٠

ثم هددهم بما أعد لهم يوم القيامة ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٢٧ الى ٢٨]

وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (٢٨)

قلت : (لو) : شرطية ، وجوابها محذوف : أي : لرأيت أمرا فظيعا هائلا ، وإنما حذف فى مثل هذا ليكون أبلغ ما يقدره السامع. و(لا نكذب) و(نكون) : قرىء بالرفع ، على الاستئناف والقطع عن التمني ، ومثّله سيبويه بقولك :

(دعنى ولا أعود) أي : وأنا لا أعود ، ويحتمل أن يكون حالا ، أي : غير مكذّبين ، أو عطفا على : (نرد) ، وقرىء بالنصب على إضمار «أن» – بعد واو المعية فى جواب التمني.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ تَرى يا محمد ، أو : يا من تصح منه الرؤية ، حال الكفار إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ حين يعاينونها أو يطلعون عليها ، أو يدخلونها ، فيعرفون مقدار عذابها ، لرأيت أمرا شنيعا وهو لا فظيعا فَقالُوا حينئذ : يا لَيْتَنا نُرَدُّ إلى الدنيا ، وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، ندموا حين لم ينفع الندم ، وقد زلّت بهم القدم ، قال تعالى : بَلْ بَدا لَهُمْ أي : ظهر لهم يوم القيامة فى صحائفهم ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ فى دار الدنيا من عيوبهم وقبائح أعمالهم ، أو : بدا لهم حقيّة الإيمان وبطلان ضده ، عيانا ، لمّا وقفوا على التوحيد وعرفوه ضرورة ، وقد كانوا فى الدنيا يخفونه ويظهرون الشرك ، عياذا بالله. قال تعالى : وَلَوْ رُدُّوا إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور ، لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ من الكفر والمعاصي لأنهم من قبضة الشقاء ، والعياذ بالله ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما وعدوا من أنفسهم من الإيمان وعدم التكذيب. وفى هذا : الإخبار بما لا يكون ، ولو كان كيف يكون ، وهو مما انفرد اللّه بعلمه.

الإشارة : يوم القيامة هو محل ظهور حقائق الأشياء على ما هى عليه ، فإن كانت حقا ظهرت حقيقتها وصحتها ، وإن كانت باطلة ، ظهر بطلانها عيانا ، لكن لا تنفع المعرفة حينئذ ، لرفع حجاب الحكمة وظهور القدرة ، فلم يبق غيب ، وإنما المزيّة فى الإيمان بالغيب ، والمعرفة فى النكران ، والشهود خلف رداء الكبرياء ، بشهود المعاني خلف الأوانى ، فإن ظهرت المعاني فلا إيمان ، وإنما يبقى العيان ، لأهل العيان ، والخيبة لأهل الخذلان.

قال الورتجبي : القوم لم يعرفوا حقائق الكفر فى الدنيا ، ولو عرفوه لكانوا موحدين ، فيظهر لهم يوم القيامة حقيقة الكفر ، ولا ينفعهم ذلك لفوتهم السير فى النكرات ، التي معرفتها توجب المعارف ، وذلك المقام فى أماكن صدورهم ، وهم كانوا يخفونه بمتابعة صورة الكفر وشهوة العصيان بغير اختيارهم لقلة عرفانهم به ، ولا يكون قلب من العرش إلى الثرى إلا ويطرقه هواتف الغيب ، بإلهام اللّه الذي يعرف به طرق رضى الحق ، وصاحبه يعلم ذلك ويسمع ويخفيه فى قلبه ، لأنه أدق من الشعرة ، وحركته أخفى من دبيب النمل ، ومع ذلك يعرفه من نفسه ، ولكن من غلبت شهوات نفسه عليه ، لا يتبع خطاب اللّه بالسر ، فأبدى اللّه لهم ما كانوا يخفونه ، تعييرا لهم وحجة عليهم. انتهى.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١١

قلت : قوله : ولا يكون قلب ... إلخ ، حاصل كلامه : أن القلب من حيث هو لا بد أن يطرقه الخصم إن حاد عن الحق ، وهو المراد بهواتف الغيب ، لكنه أخفى من دبيب النمل فى حق الغافلين. فإن كان القلب حيا متيقظا تتبع ذلك الخصم حتى يزيله بظهور الحق ، وإن كان ميتا بغلبة الشهوات أخفاه حتى يموت ، فيبدو له ما كان يخفيه من قبل. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتقادهم الفاسد ، وما أداهم إليه ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٢٩ الى ٣٢]

وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : الكفار فى إنكار البعث : إِنْ هِيَ أي : الحياة إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا لا حياة بعدها ، وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ، قال جل جلاله : وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ ، كناية عن حبسهم للسؤال والتوبيخ ، أو : وقفوا على قضاء ربهم بين عباده ، وعرفوه حق التعريف ، قال لهم الحق جل جلاله : أَلَيْسَ هذا الذي كنتم تنكرونه ، بِالْحَقِّ. قالُوا بَلى وَرَبِّنا إنه لحق ، ولكنا كنا قوما ضالين ، وهو إقرار مؤكد باليمين ، لانجلاء الأمر غاية الجلاء ، قال تعالى لهم : فَذُوقُوا أي : باشروا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أي : بسبب كفركم.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ ، حيث فاتهم النعيم ، واستوجبوا العذاب المقيم ، والمراد بلقاء اللّه : البعث وما يتبعه. فاستمروا على التكذيب حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أي : فجأة قالُوا يا حَسْرَتَنا أي : يا هلكتنا عَلى ما فَرَّطْنا أي : قصّرنا فِيها أي : فى الحياة الدنيا ، أو فى الساعة ، أي : فى شأنها والاستعداد لها ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ ، كناية عن تحمل الذنوب ، لأن العادة حمل الأثقال على الظهور ، وقيل : إنهم يحملونها حقيقة ، وقد روى : أن الكافر يركبه عمله ، بعد أن يتمثل له فى أقبح صورة ، وأن المؤمن يركب عمله ، بعد أن يتصور له فى أحسن صورة. قال تعالى فى شأن الكفار : أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ أي : بئس شيئا يزرونه ويرتكبونه فى الدنيا وزرهم هذا ، الذي يتحملونه على ظهورهم يوم القيامة.

وسبب هذا : الركون إلى دار الغرور ، ونسيان دار الخلود ، ولذلك قال تعالى بإثره : وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ أي : وما أعمالها إلا لعب ولهو ، تلهى الناس وتشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية ، وما مدة بقائها مع ما يعقبها من الفناء إلّا كمدة اللعب واللهو ، إذ لا طائل تحته لمن لم يعمر أوقاتها بطاعة ربه ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ لدوامها وخلوص نعيمها وصفاء لذاتها ، أَفَلا تَعْقِلُونَ أىّ الأمرين خير ، هل دار الخراب والفناء ، أو دار النعيم والبقاء ، وفى قوله : لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ : تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين كله لعب ولهو.

الإشارة : إذا كمل نور العقل حصل لصاحبه التمييز بين الحق والباطل ، وبين الضار والنافع ، فنظر بعين اعتباره إلى الدنيا ، فوجدها ذاهبة فانية ، ونظر إلى الآخرة ، فرآها مقبلة باقية دائمة ، فصدف عن الدنيا موليا ، وأعرض عن زهرتها مدبرا ، وأقبل بكليته إلى مولاه ، غائبا عن كل ما سواه ، فجعل الموت وما بعده نصب عينيه ، وخلف الدنيا وراء ظهره أو تحت قدميه. وفى الحكم : «لو أشرق نور اليقين فى قلبك ، لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها ، ولرأيت الدنيا ، وكسفة الفناء ظاهرة عليها» وقال بعض الحكماء : (لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من طين يبقى ، لاختار العاقل ما يبقى على ما يفنى. ولا سيما والأمر بالعكس ، الدنيا من طين يفنى والآخرة من ذهب يبقى). فلا يختار هذه الدار إلا من لا عقل له أصلا. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «الدّنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، لها يجمع من لا عقل له ، وعليها يعادى من لا علم عنده» «١». أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم سلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على ما لقى من قومه ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٣٣ الى ٣٥]

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (٣٥)

قلت : «قد» للتحقيق ، وإنه ضمير الشأن ، وقرأ نافع : «يحزن» ، بضم الياء حيث وقع ، إلا قوله : لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ «٢» والباقون : بفتح الياء ، وفيه لغتان : حزن يحزن ، كنصر ينصر ، وأحزن يحزن. والأول أشهر.

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند ١٦/ ٧١ من حديث السيدة عائشة – رضى اللّه عنها.

(٢) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١٣

ومن قرأ : «يكذّبونك» بالتشديد فمعناه : لا يعتقدون كذبك ، وإنما هم يجحدون الحق مع علمهم به ، ومن قرأ بالتخفيف فمعناه : لا يجدونك كاذبا ، يقال : أكذبت الرجل إذا وجدته كاذبا ، وقيل : معناهما واحد ، يقال : كذّب فلان فلانا ، وأكذبه ، بمعنى واحد ، وفاعل (جاءك) : مضمر ، أي : نبأ أو بيان ، وقيل : الجار والمجرور. وجواب (فإن استطعت) : محذوف ، أي : فافعل.

يقول الحق جل جلاله : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ أي : الكفار فى جانبك من أنك شاعر أو كاهن أو مجنون أو كاذب ، فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ فى الحقيقة ، لجزمهم بصحة نبوتك ، ولكنهم يجحدون بآيات اللّه ، حسدا وخوفا على زوال الشرف من يدهم. نزلت فى أبى جهل ، قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : إنّا لا نكذّبك ، ولكن نكذّب بما جئت به «١». وقال الأخنس بن شريق : واللّه إن محمدا لصادق ، ولكنى أحسده على الشرف. ووضع (الظالمين) موضع المضمر للدلالة على أنهم ظلموا لجحودهم ، أو جحدوا لتمرنهم على الظلم.

ثم سلّاه عن ذلك ، فقال : وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا أي : صبروا على تكذيبهم وأذاهم ، حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا ، فاصبر كما صبروا حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم ، وفيه إيماء بوعد النصر للصابرين ، ولذلك قيل : الصبر عنوان الظفر. وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ السابقة بنصر الصابرين ، كقوله تعالى :

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ «٢» : الآية. وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ أي : من قصصهم ، وما كابدوا من قومهم حتى نصرهم اللّه ، فتأنس بهم وانتظر نصرنا.

وَإِنْ كانَ كَبُرَ أي : عظم وشق عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ عنك وعن الإيمان بما جئت به ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً أي : سربا فِي الْأَرْضِ فتدخل فيه لتطلع لهم آية ، أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ لترتقى فيه فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ حتى يعاينوها فافعل ، ولكن الأمر بيدي ، فإنما أنت نذير.

قال البيضاوي : المقصود : بيان حرصه البالغ على إسلام قومه ، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إسلامهم ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى أي : لو شاء اللّه جمعهم على الهدى لوفقهم للإيمان حتى يؤمنوا ، ولكن لم تتعلق به مشيئته. وفيه حجة على القدرية. أو : لو شاء اللّه لأظهر لهم أية تلجئهم إلى الإيمان ، لكن لم يفعل لخروجه عن الحكمة ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ أي : من الذين يحرصون على ما لم تجر به المقادير ، أي : دم على عدم كونك منهم ، ولا تقارب حالهم بشدة التحسر هـ.

وقال فى نوادر الأصول : إن الخطاب به تربية له ، وترقية من حال إلى حال ، كما يربّى أهل التقريب

وينقلون من ترك الاختيار ، فيما ظاهره بر وقربة. هـ. قلت : تشديد الخطاب على قدر علو المقام ، كما هو معلوم

---

(١) أخرجه الترمذي فى : (تفسير سورة الأنعام) عن سيدنا على – كرم اللّه وجهه –

(٢) الآيتان : ١٧١ – ١٧٢ من سورة الصافات.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١٤

من الأب الشفيق أو الشيخ الناصح ، وقد قال لنوح عليه السّلام : إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ «١». وهذا الخطاب أشد لعلو مقامه صلّى اللّه عليه وسلّم.

الإشارة : كل ما سلّيت به الرسل تسلّى به الأولياء لأنهم ورثتهم الخاصة ، وكل ما أمرت به الرسل تؤمر به الأولياء ، من الصبر وعدم الحرص ، فليس من شأن الدعاة إلى اللّه الحرص على الناس ، ولا الحزن على من أدبر عنهم أو أنكر ، بل هم يزرعون حكمة التذكير فى أرض القلوب ، وينظرون ما ينبت اللّه فيها ، اقتداء بما أمر به الرسول – عليه الصلاة السلام ، وما تخلق به ، فمن أصول الطريقة : الإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار ، والرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر علّة إعراضهم ، وهو موت أرواحهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٣٦]

إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّما يَسْتَجِيبُ لك ، ويجيب دعوتك إلى الإيمان ، الَّذِينَ يَسْمَعُونَ سماع تفهم وتدبر ، وهو من كان قلبه حيا ، وأما الكفار فهم موتى لا يسمعون ولا يفقهون ، وَالْمَوْتى ، وهم الكفار الذين ماتت أرواحهم بالجهل حتى ماتوا حسا ، يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ، فيظهر لهم حينئذ الحق ، ويسمعون حين لا ينفع الإيمان ، أو يبعثهم اللّه فى الدنيا بالهداية ، أو الموتى حقيقة حسا ، يبعثهم اللّه للحساب ، ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ للجزاء.

الإشارة : إنما يستجيب لدعوة الخصوصية ، ويجيبون الدعاة إلى السير لشهود عظمة الربوبية ، الذين سبقت لهم العناية ، وأحيا اللّه قلوبهم بالهداية ، فيسمعون بسمع القلوب والأرواح ، ويترقّون من حضرة عالم الأشباح إلى حضرة عالم الأسرار والأرواح والموتى بالغفلة والجهل يبعثهم اللّه ببركة صحبة أهل اللّه ، فتهبّ عليهم نفحات الهداية لما سبق لهم من سر العناية ، ثم إليه يرجعون فيتنعمون فى حضرة الشهود ، فى مقعد صدق عند الملك الودود.

ثم عاتبهم على اقتراح الآيات ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٣٧ الى ٣٨]

وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)

---

(١) من الآية ٤٦ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١٥

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا – حين سمعوا ذكر البعث والرجوع إلى اللّه – : لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ تدل على ما ادعاه من البعث والرجوع إلى اللّه ، وعلى أنه رسول من عند اللّه ، قُلْ لهم : إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً خارقة للعوائد ، يرونها عيانا ، وتضطرهم إلى الإيمان ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن إنزالها وبال عليهم لأنهم إن عاينوها ولم يؤمنوا عوجلوا بالعقاب ، أو : لا يعلمون أن اللّه قادر على أكثر مما طلبوا؟.

وهذا الطلب قد تكرر منهم فى مواضع من القرآن ، وأجابهم الحق تعالى بأجوبة مختلفة ، منها : ما يقتضى الرد عليهم فى طلبهم الآيات لأنهم قد أتاهم بآيات ، وتحصيل الحاصل لا ينبغى ، كقوله : قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ «١» ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ «٢» ومنها : ما يقتضى الإعراض عنهم لأن الخصم إذا تبين عناده سقطت مكالمته. ويحتمل أن يكون منه قوله هنا : قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ ... الآية.

فإن قيل : كيف طلبوا آية وهم قد رأوا آيات كثيرة ، كانشقاق القمر ، وإخبارهم بالغيب ، وغير ذلك؟ فالجواب :

أنهم لم يعتدوا بما رأوا لأن سر الربوبية لا يظهر إلّا ومعه شىء من أردية القهرية ، وهم قد طلبوا آية يدركونها من غير نظر ولا تفكر ، وهو خلاف الحكمة.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث وغيره ، فقال : وَما مِنْ دَابَّةٍ تدبّ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ فى الهواء ، إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ مقدرة أرزاقها ، محدودة آجالها ، معدودة أجناسها وأصنافها ، محفوظة ذواتها ، معلومة أماكنها ، كلها فى قبضة الحق ، وتحت قدرته ومشيئته ، فدل ذلك على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ، فيدل على قدرته على أن ينزل آية ، وعلى بعثهم وحشرهم لأنه عالم بما

تنقص الأرض منهم ، كما قال تعالى : ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ أي : اللوح المحفوظ ، مِنْ شَيْءٍ فإنه مشتمل على ما يجرى فى العالم من جليل ودقيق ، لم يهمل فيه أمر حيوان ولا جماد ، ظاهرا ولا باطنا ، أو القرآن فإنه قد اشتمل على كل ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلا ومجملا ، حتى قال بعض السلف : (لو ضاع لى عقال لوجدته فى كتاب اللّه) أي : باعتبار العموم وأصول المسائل.

قال تعالى : ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ أي : الأمم كلها ، فينصف بعضها من بعض. كما روى أنه يؤخذ للجمّاء من القرناء «٣» وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أنه قال فى هذه الآية : (يحشر الخلق كلهم يوم القيامة : البهائم والدواب والطير وكل شىء ، فيبلغ من عدل اللّه تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كونى ترابا ، فذلك حين يقول الكافر : ا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً

«٤». وفى المسألة اضطراب بين العلماء ، والصحيح هو حشرها ، كما قال تعالى :

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ «٥» وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : (حشرها موتها). واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١١٨ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥١ من سورة العنكبوت.

(٣) كما فى حديث : «لتؤدّون الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ، أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب تحريم الظلم) من حديث أبى هريرة. والجماء : التي لا قرن لها.

(٤) من الآية ٤٠ من سورة النبأ.

(٥) الآية ٥ من سورة التكوير.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١٦

الإشارة : قد تقدم مرارا أن طلب الكرامات من الأولياء : لقلة الاعتقاد فيهم وقلة الصدق. وأكمل الكرامات :

الاستقامة على التوحيد فى الباطن ، وتحقيق العبودية فى الظاهر. وبالله التوفيق.

ثم قبّح شأن أهل التكذيب ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٣٩]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا الدالة على كمال قدرتنا وتحقيق وحدانيتنا ، أو بآياتنا المنزلة على رسولنا ، هم صُمٌّ لا يسمعون مثل هذه الآيات – الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظيم قدرته – سماعا تتأثر به نفوسهم ، وَهم أيضا بُكْمٌ لا ينطقون بالحق ، وهم فِي الظُّلُماتِ أي : خائضون فى بحر ظلمات الكفر والجهل ، وظلمة العناد ، وظلمة التقليد ، فوصفهم بالصمم والبكم والعمى ، ويؤخذ العمى من قوله :

فِي الظُّلُماتِ ، وهذا كله داخل تحت مشيئته وعلمه السابق مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ عدلا ، وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ بأن يرشده إلى الهدى ويحمله عليه ، فيتبع الطريق الذي لا عوج فيه.

الإشارة : أولياء اللّه فى أرضه آية من آيات اللّه ، فمن كذب بهم بقي فى ظلمة الجهل بالله وظلمة حجاب النفس وحجاب الأكوان ، محجوبا بمحيطاته ، محصورا فى هيكل ذاته ، قلبه أصم عن تذكّر الحقائق ، ولسانه أبكم عن النطق بحكم العلم والأسرار ، لم تسبق له فى مشيئة الحق عناية ، ولا هبّ عليه شيء من رياح الهداية ، عائذا بالله من سوء القضاء ودرك الشقاء.

ثم أقام لهم البرهان على توحيده ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٤٠ الى ٤١]

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (٤١)

قال فى المشارق : أرأيتك : معناه : الاستخبار والاستفهام ، أي : أخبرنى عن كذا ، وهو بفتح التاء فى المذكر والمؤنث والواحد والجمع ، تقول : أرأيتك وأ رأيتكما وأ رأيتكم ، ولم تثن ما قبل علامة المخاطب ولم تجمعه ، فإذا أردت معنى الرؤية – أي البصرية – تثنيت وجمعت وأنثت ، فقلت : أرأيتك قائما ، وأ رأيتك قائمة ، وأ رأيتكما وأ رأيتموكم وأ رأيتيكن. هـ. وقال فى الإتقان : إذا دخلت الهمزة على «رأيت» امتنع أن يكون من رؤية العين والقلب ، وصار المعنى : أخبرنى ، وهو خلاف ما قال فى المشارق ، فانظره وانظر الحاشية الفاسية.

قال البيضاوي : (أ رأيتكم) : استفهام تعجب ، والكاف : حرف خطاب ، أكد به الضمير للتأكيد ، لكن لا محل له من الإعراب ، لأنك تقول : أرأيتك زيدا ما شأنه ، فلو جعلت الكاف مفعولا – كما قاله الكوفيون – لعدّيت الفعل إلى ثلاثة

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١٧

مفاعيل ، ولزم فى الآية أن يقول : أرأيتكموكم ، بل الفعل معلق ، أو المفعول محذوف ، وتقديره :

أرأيتكم آلهتكم تنفعكم إذ تدعونها إن أتاكم عذاب اللّه ، ويدل عليه : (أ غير اللّه تدعون). هـ. وجواب (إن) : محذوف أي : إن أتاكم عذاب اللّه أو أتتكم الساعة فمن تدعون؟ وجواب (إن كنتم) : محذوف أيضا أي : إنّ كنتم صادقين فى أنّ غير اللّه ينفعكم فادعوه ، ثم وصفهم بأنهم لا يدعون حينئذ إلا اللّه.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : أَرَأَيْتَكُمْ أي : أخبرونى إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ فى الدنيا كما أتى من قبلكم ، أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ وأهوالها ، أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ وتلتجئون إليه فى كشف ما نزل بكم إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أن الأصنام آلهة ، لا ، بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ وحده ، فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ أي : ما تدعونه إلى كشفه ، إِنْ شاءَ أن يتفضل عليكم بالكشف فى الدنيا ، وقد لا يشاء ، وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ أي : وتتركون آلهتكم فى ذلك الوقت لما ركز فى العقول من أنه قادر على كشف الضر دون غيره ، أو تنسون من شدة الأمر وهوله.

الإشارة : إنما يظهر توحيد الرجال عند هجوم الأحوال ، فإن رجع إلى اللّه وحده ولم يلتفت إلى شىء سواه ، علمنا أنه من الأبطال ، وإن فزع إلى شىء من السّوى ، علمنا أنه من جملة الضعفاء. وعندهم من جملة أصول الطريق : الرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء ، فإن رجع إليه أجابه فيما يريد ، وفى الوقت الذي يريد ، وقد لا يريد على حسب إرادة المريد. واللّه تعالى أعلم.

ثم حضّ على الرجوع إليه فى حالة الضراء ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٤٢ الى ٤٥]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله ، تخويفا لهذه الأمة : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مضت مِنْ قَبْلِكَ رسلا فأنذروهم ، فكذبوا وكفروا فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ أي : الشدة ، كالقحط والجوع ، وَالضَّرَّاءِ كالأمراض والموت والفتن ، تخويفا لهم لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ أي : يتذللون ويتوبون من ذنوبهم ، فلم يفعلوا ، فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا أي : هلا تذللوا حين جاءهم البأس فنرحمهم ، وفيه دليل على نفع التضرع حين الشدائد ، وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١٨

أي : صلبت ولم تلن ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ فصرفهم عن التضرع ، أي : لا مانع لهم من

التضرع إلا قساوة قلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أي : تركوا الاتعاظ بما ذكروا به من البأساء والضراء ، ولم ينزجروا ، فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ من أنواع الرزق وضروب النعم ، مراوحة عليهم بين نوبتى الضراء والسراء ، وامتحانا لهم بالشدة والرخاء ، إلزاما للحجة وإزاحة للعلة ، أو مكرا بهم ، لما روى أنه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «مكر بالقوم ورب الكعبة» «١». حَتَّى إِذا فَرِحُوا أي : أعجبوا بِما أُوتُوا من النعم ، ولم يزيدوا على البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقه ، أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً أي : فجأة ، فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ متحيرون آيسون من كل خير ، فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أي : قطع آخرهم ، ولم يبق منهم أحد ، وهى عبارة عن الاستئصال بالكلية ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ على إهلاكهم ، فإن إهلاك الكفار والعصاة نعم جليلة ، يحق أن يحمد عليها من حيث إنه خلاص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم. وباللّه التوفيق.

الإشارة : المقصود من إظهار النقم الظاهرة ما يؤول الأمر إليه من النعم الباطنة ، فإن الأشياء كامنة فى أضدادها ، النعمة فى النقمة ، والرخاء فى الشدة ، والعز فى الذل ، والجمال فى الجلال ، إن وقع الرجوع إلى اللّه والانكسار والتذلل. «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى». فانكسار القلوب إلى علام الغيوب عبادة كبيرة ، توجب نعما غزيرة ، فإذا قست القلوب ولم يقع لها عند الشدة انكسار ولا رجوع ، كان النازل بلاء ونقمة وطردا وبعدا. فإنّ ما ينزل بالإنسان من التعرفات منها : ما يكون أدبا وكفارة ، ومنها : زيادة وترقية ، ومنها : ما يكون عقوبة وطردا ، فإن صحبها التيقظ والتوبة ، كان أدبا مما تقدم من سوء الأدب ، وإن صحبه الرضى والتسليم ، ولم يقع ما يوجب الأدب ، كان ترقية وزيادة ، وإن غضب وسخط كان طردا وبعدا. أعاذنا اللّه من موارد النقم.

ثم احتج عليهم بوجه آخر ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٤٦ الى ٤٧]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧)

---

(١) لم أقف عليه مرفوعا. وذكره السيوطي فى الدر موقوفا على الحسن ، وعزاه لابن أبى حاتم. لكن روى أحمد فى المسند ٤/ ١٤٥ والطبراني فى الكبير ١٧/ ٣٣١ وابن جرير فى التفسير ، من حديث عقبة بن عامر مرفوعا : (إن رأيت اللّه يعطى العبد فى الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج. ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : (فلما نسوا ما ذكروا به ...) الآية والتي بعدها).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١٩

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم أيضا : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ أي : أصمّكم وأعماكم ، وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ بأن غطى عليها بما يزول به عقلكم وفهمكم ، مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أي : بذلك المأخوذ. انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ أي : نكررها على جهات مختلفة ، كتصريف الرياح ، تارة من جهة المقدمات العقلية ، وتارة من جهة الترغيب والترهيب ، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين ، ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ أي : يعرضون عنها ولم يلتفتوا إليها ، و(ثم) : لاستبعاد الإعراض بعد تصريف الآيات وظهورها.

وقُلْ لهم أيضا : أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً من غير مقدمة أَوْ جَهْرَةً بتقديمها ، فالبغتة : ما لم يتقدم لهم به شعور ، والجهرة : ما قدمت لهم مخايله ، وقيل : بغتة بالليل ، وجهرة بالنهار ، هَلْ يُهْلَكُ أي :

ما يهلك به هلاك سخط وتعذيب ، إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ بالكفر والمعاصي.

الإشارة : إنما خلق الأسماع والأبصار ، لسماع الوعظ والتذكار ، ولنظرة التفكر والاعتبار ، فمن صرفهما فى ذلك فقد شكر نعمتها ، ومن صرفهما فى غير ذلك فقد كفر نعمتهما ، ومن كفر نعمتهما يوشك أن تؤخذ منه تلك النعمة ، وكذلك نور العقل ، ما جعله اللّه فى العبد إلا ليعرفه به ، ويعرف دلائل توحيده ، ويتبصّر به فى أمره.

فإذا صرفه فى تدبير هواه وشهواته فقد كفر نعمته ، فيوشك أيضا أن يؤخذ منه ، .

وإذا أنعم اللّه عليه باستعمال هذه الحواس فيما خلقت لأجله فليكن على حذر من أخذ ذلك منه أيضا ، فلا يأمن مكر اللّه ، فإن الأسماع والأبصار والقلوب بيد اللّه ، يقلبها كيف شاء ، فإن أخذها لن يقدر على ردها ، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير اللّه قراره ، والعذاب الذي يأتى بغتة ، هو السلب بغتة ، أي : فقد القلب فى مرة واحدة ، والذي يأتى جهرة هو فقده شيئا فشيئا ، وسبب هذا الهلاك : هو ظلم العبد لنفسه ، إما بسوء أدب مع اللّه ، أو نقض عهد الشيوخ العارفين باللّه. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم رغّب فى الإيمان بالرسل ، وحذّر من الكفر بهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]

وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)

يقول الحق جل جلاله : وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ للمؤمنين بالنعيم المقيم ، وَمُنْذِرِينَ للكفار بالعذاب الأليم ، ولم نرسلهم ليقترح عليهم ويتلهى بهم ، فَمَنْ آمَنَ بهم ، وَأَصْلَحَ ما يجب إصلاحه

على ما شرع لهم ، فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من العذاب ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ لفوات الثواب ، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ

(١١٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٢٠

أي : يلحقهم ، جعل العذاب ماسّا لهم كأنه الطالب للوصول إليهم ، واستغنى بتعريفه عن توصيفه.

وذلك المس بِما كانُوا يَفْسُقُونَ أي : بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

الإشارة : ما من زمان إلا ويبعث اللّه أولياء عارفين ، مبشرين لمن أطاعهم واتبعهم بطلعة أنوار الحضرة على أسرارهم ، ومنذرين لمن خالفهم بظهور ظلمة الكون على قلوبهم ، وانطباع الأكوان فى أسرارهم ، فمن آمن بهم وصحبهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، بدليل قوله : أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ «١» ، ومن كذب بهم وبما يظهر على أيديهم من أسرار المعارف يمسهم عذاب القطيعة ، بما كانوا يفسقون ، أي : بخروجهم عن طاعتهم والإذعان إليهم.

وليس من شرط الداعين إلى اللّه ظهور المعجزات أو الكرامات ، كما قال تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٥٠]

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : أنا لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ فآتيكم منها بكل ما تقترحون علىّ من المعجزات ، بل خزائن مقدوراته تعالى فى علم غيبه ، ليس لى منها إلا ما يظهره منها بقدرته ، وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ حتى أخبركم بالمغيبات ، بل مفاتيح الغيب عنده ، لا يعلمها إلا هو ، إلا ما يوحى إلىّ منها ، وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ فأستغنى عن الطعام والشراب ، أو أقدر على ما يقدر عليه الملك ، إن أنا إلا بشر أوحى إلىّ أن أنذركم ، فأتبع ما يوحى إلىّ وأتبرأ من دعوى الألوهية والملكية ، وأدعى النبوة التي هى من كمالات البشر.

قُلْ لهم : هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى الذي هو ضال جاهل ، وَالْبَصِيرُ الذي هو مهتد عالم ، أو : هل يستوى مدعى المستحيل كالألوهية والملكية ومدّعى الحق ، كالنبوة والرسالة ، أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ فتميزوا بين ادعاء الحق والباطل ، فتهتدوا إلى اتباع الحق وتجنب الباطل.

الإشارة : ما قالته الرسل للكفار حين اقترحوا عليهم المعجزات ، تقوله الأولياء لأهل الإنكار ، حين يطلبون منهم الكرامات ، وتقول لهم : إن نتبع إلا ما أمرنا به ربنا وسنه لنا رسولنا ، فمن اهتدى وتبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها.

وقال الورتجبي – بعد قوله – : وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ : تواضع صلّى اللّه عليه وسلّم حين أقام نفسه مقام الإنسانية ، بعد أن كان أشرف خلق اللّه من العرش إلى الثرى ، وأظهر من الكروبيين والروحانيين على باب اللّه سبحانه ، خضوعا_____

(١) الآية ٦٢ من سورة يونس. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٢١

لجبروته ، وخنوعا فى أنوار ملكوته ، بقوله : وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، وليس لى اختيار فى نبوتى ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ. هل يكون من هذا وصفه ، بعد كونه بصيرا بنور اللّه ، ورأفته به ، كالذى عمى عن رؤية إحاطته بكل ذرة من العرش إلى الثرى؟ أفلا تتفكرون أن من ولد من العدم بصيرا بنور القدم ، ليس كمن ولد من العدم أعمى عن رؤية عظمته وجلاله. انتهى كلامه.

ثم أمره بالإنذار لمن ينتفع به ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٥١]

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١)

قلت : الضمير فى (به) : يعود على (ما يوحى) ، وجملة (ليس) : حال من ضمير (يحشروا).

يقول الحق جل جلاله : وَأَنْذِرْ أي : خوّف بما أوحى إليك ، المؤمنين المقصرين فى العمل الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ بالبعث للحساب ، حال كونهم فى ذلك الوقت لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ ينصرهم من عذابه ، وَلا شَفِيعٌ يرده عنهم بشفاعته ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أي : كى يصيروا بإنذارك متقين ، وإنّما خص الإنذار هنا بالذين يخافون لأنّه تقدم فى الكلام ما يقتضى اليأس من إيمان غيرهم ، فكأنه يقول : أنذر الخائفين لأنه ينفعهم الإنذار ، وأعرض عمن تقدم ذكرهم من الذين لا يسمعون ولا يعقلون ، أو : أنذر من يتوقع البعث والحساب ، أو يتردد فيه مؤمنا أو كافرا. قاله البيضاوي.

الإشارة : لا ينفع الوعظ والتذكير إلا من سبق له الخوف من الملك القدير إذ هو الذي ينهضه الخوف المزعج أو الشوق المقلق ، وأما من سوّدت قلبه الخطايا ، وانطبعت فى مرآته صور الأشياء ، فلا ينفع فيه زاجر ولا واعظ ، بل ران على قلبه ما اقترفه من المآثم ، والعياذ باللّه.

ثم أمره بالدنو ممن ينفعه التذكير ، ونهاه عن ضده ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٥٢ الى ٥٣]

وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ

حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)

(١٢١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٢٢

قلت : (فتطردهم) : جواب النفي ، و(فتكون) : جواب النهى ، أي : ولا تطرد فتكون من الظالمين ، فليس عليك من حسابهم شيء فتطردهم.

يقول الحق جل جلاله لنبيه – عليه الصلاة والسلام – ، حين طلب منه صناديد قريش أن يطرد عنه ضعفاء المسلمين ليجالسوه ، فهمّ بذلك طمعا فى إسلامهم ، فنزلت : وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أي : يعبدونه بالذكر وغيره ، أو يدعونه بالتضرع والابتهال ، بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ أي : على الدوام. وخص الوقتين بالذكر لشرفهما.

وفى الخبر : «يا ابن آدم ، اذكرني أول النهار وآخره ، أكفك ما بينهما» «١». وقيل : صلاة الصبح والعصر ، وقيل :

الصلاة بمكة قبل فرض الخمس.

قال البيضاوي : بعد ما أمره بإنذار غير المتقين ليتقوا – أي : على التفسير الثاني فى الآية المتقدمة – أمره بإكرام المتقين وتقريبهم ، وألّا يطردهم ، ترضية لقريش ، روى أنهم قالوا : لو طردت هؤلاء الأعبد – يعنون فقراء المسلمين ، كعمّار وصهيب وخبّاب وبلال وسلمان – جلسنا إليك ، فقال : «ما أنا بطارد المؤمنين». قالوا : فأقمهم عنا ، قال : «نعم». [وروى أن عمر قال له : لو فعلت حتّى تنظر إلى ما يصيرون؟] قالوا : فاكتب بذلك كتابا ، فدعا بالصّحيفة وبعليّ ليكتب ، فنزلت «٢». هـ. وفى ذكر سلمان معهم نظر لتأخر إسلامه بالمدينة.

ثم وصفهم بالإخلاص فقال : يُرِيدُونَ وَجْهَهُ أي : يدعونه مخلصين طالبين النظر لوجهه ، وفيه تنبيه على أن الإخلاص شرط فى الأعمال ، ورتب النهى عليه إشعارا بأنه يقتضى إكرامهم ، وينافى إبعادهم ، ثم علل عدم طردهم فقال : ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ أي : أنت لا تحاسب عنهم ، وهم لا يحاسبون عنك ، فلأى شيء تطردهم؟ وقيل : الضمير : للكفار ، أي : أنت لا تحاسب عنهم ، وهم لا يحاسبون عنك ، فلا تهتم بأمرهم ، حتى تطرد هؤلاء من أجلهم ، فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ بطردهم ، لكنه – عليه الصلاة السلام – لم يفعل ، فلا ظلم يلحقه فى ذلك لسابق العناية والعصمة.

وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ أي : ومثل ذلك الاختبار ، وهو اختلاف أحوال الناس فى أمر الدنيا ، فَتَنَّا

بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ أي : ابتلينا بعضهم ببعض فى أمر الدين ، فقدّمنا هؤلاء الضعفاء على أشراف قريش بالسبق إلى الإيمان لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أي : أهؤلاء من أنعم اللّه عليهم بالهداية والتوفيق دوننا ، ونحن الأكابر والرؤساء ، وهم المساكين والضعفاء ، فنحن أحق منهم به إن كان حقا ، وهذا إنكار منهم لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير ، كقولهم لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا «٣». واللام فى «ليقولوا» : للعاقبة. قال تعالى

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء ، عن أبى هريرة .. انظر كنز العمال/ ١٧٩٥.

(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه فى : (الزهد ، باب مجالسة الفقراء) والطبراني فى الكبير (٤/ ٨٧ ح ٩٦٩٣) والواحدي فى أسباب النزول ، وابن جرير فى التفسير عن خباب ، بدون ذكر سلمان ، وكذلك بدون ذكر مشورة سيدنا عمر ، وقد جاء ذكر مشورة سيدنا عمر عند ابن جرير والواحدي عن عكرمة.

(٣) من الآية ١١ من سورة الأحقاف.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٢٣

فى الرد عليهم : أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ أي : بمن يقع منهم الإيمان والشكر فيوفقهم ، وبمن لا يقع منه فيخذله. وباللّه التوفيق.

الإشارة : فى صحبة الفقراء خير كثير وسر كبير ، وخصوصا أهل الصفاء والوفاء منهم ، وفى ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضى اللّه عنه :

مالذّة العيش إلّا صحبة الفقرا هم السّلاطين والسّادات والأمرا

فاصحبهمو وتأدّب فى مجالسهم وخلّ حظّك مهما خلّفوك ورا

إلى آخر كلامه.

فلا يحصل كمال التربية والتهذيب إلا بصحبتهم ، ولا تصفو المعاني إلا بمجالستهم والمذاكرة معهم ، والمراد من دخل منهم بلاد المعاني ، وحصّل مقام الفناء فى الذات ، فالجلوس مع هؤلاء ساعة تعدل عبادة الثقلين سنين ، ومن شأن شيوخ التربية : العطف على الفقراء والمساكين وتقريبهم ، ولا يطردون أحدا منهم ولو عمل ما عمل ، اقتداء بما أمر به نبيهم صلّى اللّه عليه وسلّم. بل شأنهم الإقبال على من أقبل إليهم ، عصاة كانوا أو طائعين ، وإقبالهم على العصاة المذنبين أكثر ، جبرا لكسرهم ، وتألفا لهم ، وسوقا لهم إلى اللّه بملاطفة الإحسان. وباللّه التوفيق.

ولما أمره بتقريب الضعفاء من المؤمنين ، أمره بإكرامهم بالسلام والبشارة بغفران الآثام ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٥٤]

وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)

قلت : من فتح (أنه) جعله بدلا من الرحمة ، ومن كسره فعلى الاستئناف ، و(بجهالة) : حال ، ومن قرأ (فإنه) بالكسر فالجملة : جواب الشرط ، ومن فتح فخبر عن مضمر ، أي : فجزاؤه الغفران ، أو مبتدأ فالغفران جزاؤه.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا وهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، خصهم بالإيمان بالقرآن ، بعد ما وصفهم بالمواظبة على الطاعة والإحسان ، فإذا أقبلوا إليك فَقُلْ لهم : سَلامٌ عَلَيْكُمْ تحية منى عليكم ، أو من اللّه أبلغه إليكم ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أي : حتمها عليه فضلا منه ، وهى أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً أي : ذنبا بِجَهالَةٍ أي : بسفاهة وقلة أدب ، أو جاهلا بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد ، ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ أي : من بعد عمل السوء وَأَصْلَحَ بالتدارك والندم على ألا يعود إليه ، فَأَنَّهُ غَفُورٌ لذنبه ، رَحِيمٌ به بقبول توبته.

(١٢٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٢٤

قال البيضاوي : أمره أن يبدأ بالتسليم ، أو يبلغ سلام اللّه ويبشرهم بسعة رحمته وفضله ، بعد النهى عن طردهم إيذانا بأنهم الجامعون لفضيلتى العلم والعمل ، ومن كان كذلك ينبغى أن يقرّب ولا يطرد ، ويعز ولا يذل ، ويبشّر من اللّه بالسلامة فى الدنيا وبالرحمة فى الآخرة ، وقيل : إن قوما جاءوا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا : إنا أصبنا ذنوبا عظاما ، فلم يردّ عليهم ، فانصرفوا ، فنزلت. هـ.

قال القشيري : أحلّه محل الأكابر والسّادات ، فإنّ السلام من شأن الجائى إلّا فى صفة الأكابر ، فإنّ الجائى والآتي يسكت لهيبة المأتى ، حتى يبتدىء ذلك المقصود بالسؤال ، فعند ذلك يجيب الآتي. هـ.

الإشارة : من شأن الأكابر من الأولياء ، الداعين إلى اللّه ، إكرام من أتى إليهم بحسن اللقاء وإظهار المسرّة والبرور ، وخصوصا أهل الانكسار فيؤنسونهم ، ويوسعون رجاءهم ، ويفرحونهم بما يسمعون منهم من سعة فضل اللّه وكرمه.

كان الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه إذا دخل عليه أحد من أهل العصيان – كأرباب الدولة والمخزن – ، قام إليهم ، وفرح بهم ، وأقبل عليهم ، وإذا أتى إليه أحد من العلماء أو الناسكين لم

يعتن بشأنهم ، فقيل له فى ذلك ، فقال :
أهل العصيان يأتوننا فقراء منكسرين من أجل ذنوبهم ، لا يرون لأنفسهم مرتبة ، فأردت أن أجبر كسرهم ، وهؤلاء أهل الطاعة يأتوننا أغنياء معتمدين على طاعتهم ، فلا يحتاجون إلى ما عندنا. أو كلاما هذا معناه ، ذكره فى لطائف المنن. واللّه تعالى أعلم.
ثم بيّن علّة ما تقدّم من النهى عن الطرد وغيره ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : آية ٥٥]
وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)
قلت : قرىء بتاء الخطاب ، ونصب السبيل على أنه مفعول به ، وقرىء بتاء التأنيث ورفع السبيل على أنه فاعل مؤنث ، وبالياء والرفع على تذكير السبيل لأنه يجوز فيه التذكير والتأنيث.
يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ أي : ومثل ذلك التفصيل الواضح نفصل الآيات ، أي : نشرح آيات القرآن ونوضحها فى صفة المطيعين والمجرمين ، والمصرين والأوابين ، ليظهر الحق ، ولتستوضح يا محمد سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ فتعاملهم بما يحق لهم من الإبعاد إن بعدوا ، أو الإقبال إن أقبلوا. أو لتتبين طريقهم ويظهر فسادها ببيان طريق الحق.
الإشارة : سبيل المؤمنين من أهل اليمين ، هو التمسك بظاهر الشريعة المحمدية بامتثال الأمر واجتناب النهى ، والمبادرة إلى التوبة ، إن أخل بأحد الأمرين من غير تحرّ لما وراء ذلك ، وسبيل المتوجهين من السائرين والواصلين :
تصفية القلوب وتهيؤها لإشراق أسرار علم الغيوب بتخليتها من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل لتتهيأ بذلك

لطلوع شموس العرفان ، والدخول فى مقام الكشف والعيان ، الذي هو مقام الإحسان ، وما خرج عن هذين السبيلين فهو سبيل المجرمين : إما بالكفر ، وإما بالإصرار على العصيان ، والعياذ بالله.
ثم نهى عن سلوك هذا السبيل – أعنى سبيل المجرمين – فقال :
[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٥٦ الى ٥٨]
قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

بِالظَّالِمِينَ (٥٨)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : إِنِّي نُهِيتُ أي : نهانى ربى أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ أي : تعبدون مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أو ما تدعونها آلهة أي : تسمونها بذلك ، وتخضعون لها من دون اللّه ، قُلْ لهم :

لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ الفاسدة وعقائدكم الزائغة ، قَدْ ضَلَلْتُ عن الحق إِذاً أي : إذا اتبعت أهواءكم ، وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ أي : ما أنا فى شىء من الهدى حتى أكون من عدادهم إن اتبعت أهواءكم ، وفيه تعريض بهم ، وأنهم ضالون حائدون عن طريق الهدى ، ليسوا على شىء منها.

قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ أي : طريق واضحة مِنْ رَبِّي توصلنى إلى تحقيق معرفته ، واستجلاب رضوانه ، أنا ومن اتبعنى ، وَأنتم كَذَّبْتُمْ بِهِ أي : بربي حيث أشركتم به وعبدتم غيره ، أو كذبتم بطريقه حيث أعرضتم عنها ، واستعجلتم عقابه فى الدنيا ، ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ من العذاب أو المعجزات ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ فى تعجيل العذاب وتأخيره ، أو فى إظهار الآيات وعدم إظهارها ، يَقُصُّ القصص الْحَقَّ وهو القرآن ، أي : ينزله علىّ لأنذركم به ، أو يقضى القضاء الحق من تعجيل ما يعجل وتأخير ما يؤخر ، فيحكم بينى وبينكم إن شاء ، وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ أي : القاضين.

قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي أي : فى قدرتى وطوقى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ من العذاب لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أي : لأهلكتكم عاجلا غضبا لربى ، وانقطع ما بينى وبينكم ، ولكن الأمر بيد خالقكم الذي هو عالم بأحوالكم ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ أي : عالم بما ينبغى أن يؤخذ عاجلا ، وبمن ينبغى أن يمهل ، فمفاتح الغيب كلها عنده ، كما سيذكره.

الإشارة : قل ، أيها العارف ، المتوجه إلى اللّه ، المنقطع بكليته إلى مولاه ، الغائب عن كل ما سواه : إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون اللّه من حب الدنيا ، ومن الرياسة والجاه. قل : لا أتبع أهواءكم لأنى قد اجتمعت

أهوائى فى محبوب واحد ، حين وصلت إلى حضرته ، وتنعمت بشهود طلعته ، فانحصرت محبتى فى محبوب واحد ، وفى ذلك يقول القائل :

كانت لقلبى أهواء مفرّقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى

فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

تركت للنّاس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

وقال آخر :

تركت للنّاس ، ما تهوى نفوسهم من حبّ دنيا ومن عزّ ومن جاه

كذاك ترك المقامات هنا وهنا والقصد غيبتنا عمّا سوى اللّه

قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي أي : بصيرة نافذة فى مشاهدة أسرار ربى ، فقد كذّبتم بخصوصيتى ، وطلبتم دلائل ولايتي ، ما عندى ما تستعجلون به من الكرامات ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، يقضى القضاء الحق ، فيظهر ما يشاء ، ويخفى من يشاء ، وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ أي : الحاكمين بين عباده ، قل لو أن عندى ما تستعجلون به من نفوذ دعوتى فى إظهار كرامتى ، لقضى الأمر بينى وبينكم ، واللّه أعلم بالمكذبين بأوليائه.

ثم قال تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٥٩]

وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٥٩)

قلت : (مفاتح) : جمع مفتح – بكسر الميم – مقصور ، من مفتاح ، وهو آلة الفتح ، وهو مستعار لما يتوصل به إلى الغيوب ، أو يفتحها ، وهو المخزن.

يقول الحق جل جلاله : وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ أي : علم المغيبات ، لا يعلمها غيره ، إلا من ارتضى من خلقه ، أو : عنده خزائن علم الغيوب لا يعلمها غيره ، والمراد بها الخمسة التي ذكرها الحق تعالى فى سورة لقمان :

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ «١» الآية لأنها تعم جميع الأشياء ، وسيأتى الكلام عليها إن شاء اللّه ، فقد اختص

---

(١) الآية ٣٤ من سورة لقمان.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٢٧

سبحانه بعلم المغيبات لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ فيعلم أوقاتها وما فى تعجيلها وتأخيرها من الحكم ، فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته ، وفيه دليل على أن اللّه تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها ، وهو أمر ضرورى.

وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ من عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات على اختلاف أجناسها وأنواعها

، حيها وجامدها ، فيعلم عددها وصفتها وأماكنها ، وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها كيف تسقط ، على ظهرها أو بطنها ، وما يصل منها إلى الأرض وما يتعلق فى الهواء ، وهو مبالغة فى إحاطة علمه بالجزئيات ، كما تعلق بالكليات ، وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ من حبوب الثمار وبذور سائر النبات ، والرمل ، وغير ذلك من دقائق الأشياء وجلائلها ، وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ من الأشجار والنبات والحيوانات التي فيها الحياة والتي فارقتها ، فهى من جنس اليابس ، إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ أي : علم اللّه القديم ، أو اللوح المحفوظ ، فعلى الأول ، يكون بدلا من الاستثناء الأول ، بدل الكل من الكل ، وعلى الثاني : بدل اشتمال. وقرئت بالرفع ، على العطف على محل : مِنْ وَرَقَةٍ ، أو على الابتداء ، والخبر : فِي كِتابٍ مُبِينٍ.

الإشارة : مفاتح الغيب هى أسرار الذات وأنوار الصفات ، أو أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، لا يعلمها إلا هو ، فما دام العبد محجوبا بوجود نفسه ، محصورا فى هيكل ذاته ، لا يذوق شيئا من هذه الغيوب ، فإذا أراد الحق جل جلاله أن يفتح على عبده شيئا من هذه الغيوب ، غطى وصف عبده بوصفه ، ونعته بنعته ، فغيّبه عن وجود نفسه ، فصار هو سمعه وبصره وقلبه وروحه ، فيعلم تلك الأسرار به ، لا بنفسه ، فما علم تلك الأسرار غيره ، ويحيط بأسرار الأشياء كلها ، برها وبحرها لأنه يصير خليفة اللّه فى أرضه. وقال الورتجبي : غيبه ذاته القدسية ، وهى خزانة أسرار الأزل والآباد ، ومفاتحها : صفاتها الأزلية ، لا يعلم صفاته وذاته بالحقيقة إلا هو تعالى بنفسه ، فنفى الغير عن البين ، حيث لا حيث ولا بين. انظر تمامه فيه.

ومن جملة الغيوب التي اختص اللّه بها : انقضاء الأجل ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٦٠ الى ٦٢]

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ (٦٢)

(١٢٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٢٨

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ أي : يقبض أرواحكم بِاللَّيْلِ إذا نمتم ، وفى ذلك اعتبار واستدلال على البعث الأخروى ، وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ أي : ما كسبتم من الأعمال بِالنَّهارِ. وخص الليل بالنوم والنهار بالكسب جريا على المعتاد ، ثُمَّ إذا توفاكم بالليل يَبْعَثُكُمْ فِيهِ أي : فى النهار ، لِيُقْضى

أَجَلٌ مُسَمًّى أي : ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له فى الدنيا ، وهو أجل الموت ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ بالموت ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فيعاتب المسيء ويكرم المحسن.

روى : أن العبد إذا قبض عرجت الملائكة بروحه إلى سدرة المنتهى ، فيوقف به هناك ، فيعاتبه الحق تعالى على ما فرط منه حتى يرفض عرقا ، ثم يقول له : قد غفرت لك ، اذهبوا به ليرى مقعده فى الجنة ، ثم يردّ إلى السؤال.

وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ بالقهر والغلبة ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ملائكة تحفظ أعمالكم ، وهم الكرام الكاتبون ، والحكمة فيه : أن العبد إذا علم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد ، كان أزجر له عن المعاصي ، ثم لا تزال الملائكة تكتب عليه أعماله حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا أي : ملك الموت وأعوانه ، وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ بالتواني والتأخير ، ولا يجاوزون ما حد لهم بالتقديم والتأخير. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ أي : إلى حكمه وجزائه ، أو مشاهدته وقربه ، مَوْلاهُمُ الذي يتولى أمرهم ، الْحَقِّ أي : المتحقق وجوده ، وما سواه باطل ، أَلا لَهُ الْحُكْمُ يومئذ ، لا حكم لغيره فيه ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ يحاسب الخلائق فى مقدار حلب شاة ، لا يشغله حساب عن حساب ، ولا شأن عن شأن ، سبحانه لا إله إلا هو.

الإشارة : وهو الذي يتوفاكم ، أي : يخلصكم بليل القبض ، ويعلم ما كسبتم فى نهار البسط ، ثم يبعثكم من ليل القبض إلى نهار البسط ، وهكذا ليقضى أجل مسمى للإقامة فيهما ، ثم إليه مرجعكم بالخروج عنهما لتكونوا لله لا شيء دونه ، وفى الحكم : «بسطك كى لا يبقيك مع القبض ، وقبضك كى لا يتركك مع البسط ، وأخرجك عنهما ، كى لا تكون لشيء دونه».

وقال فارس رضى اللّه عنه : القبض أولا ثم البسط ، ثم لا قبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقعان فى الوجود أي :

فى وجود النفس ، وأما مع الفناء والبقاء فلا. هـ. أي : فلا قبض ولا بسط لأن العارف الواصل مقبوض فى بسطه ، مبسوط فى قبضه ، لا تؤثر فيه هواجم الأحوال لأنه مالك غير مملوك. واللّه تعالى أعلم.

ومن علم أن اللّه قاهر فوق عباده ، انسلخ من حوله وقوته ، وانعزل عن تدبيره واختياره لإحاطة القهرية به ، ومن تحقق عموم قهاريته تعالى ، علم أنه لا حجاب حسى بينه وبينه ، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه ، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر ، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ، (و هو القاهر فوق عباده) ، وإنما المحجوب : العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله ، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحيا من ارتكاب القبائح ، لئلا تعرض على رؤوس الأشهاد.

ثم أمر بالرجوع إليه عند الشدائد ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٦٣ الى ٦٤]

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ أي : يخلصكم مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ أي : من شدائدهما ، استعير الظلمة للشدة لمشاركتهما فى الهول ، فقيل لليوم الشديد : يوم مظلم ، أو : من الخسف فى البر والغرق فى البحر ، حال كونكم تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً أي : جهرا وسرا ، قائلين : لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ «١» الظلمة ، أي :

الشدة ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ بإقرارنا بوحدانيتك ، قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ أي : غم سواها ، ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ أي : تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد ، وهذا شأن النفس اللئيمة فى وقت الشدة ترجع إلى الحق وتوحده ، وفى وقت السعة تنساه وتشرك معه ، كما قال تعالى : وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ «٢».

الإشارة : ظلمات البر هو ما يخوض القلب ويظلمه من أجل ما يدخل عليه من حس الظاهر ، الذي هو بر الشريعة ، وظلمات البحر هو ما يدهش الروح ويحيرها من أجل ما يدهمها من علم الحقائق ، عند الاستشراف عليها ، أو ما يشكل عليها فى علم التوحيد ، فإذا رجع إلى اللّه فيهما ، وتمسك بشيخ كامل فى علم الحقائق – أنجاه اللّه منهما ، فإذا شكر اللّه وأفرد النعمة إليه دامت نجاته ، وإن التفت إلى غيره خيف عليه العود إلى ما كان عليه. وباللّه التوفيق.

ثم هدد أهل الشرك ، أو : هم مع غيرهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٦٥ الى ٦٧]

قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ ، كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل ، أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ، كما أغرق فرعون وخسف بقارون ، وقيل : من فوقكم :

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (أنجيتنا) بالياء والتاء بعد الجيم من غير ألف .. وقرأ الباقون (أنجانا) بألف بعد الجيم من غير ياء ولا تاء. انظر الإتحاف (٢/ ١٦).

(٢) الآية ٣٣ من سورة الروم.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٣٠

بتسليط أكابركم وحكامكم عليكم ، ومن تحت أرجلكم : سفلتكم وعبيدكم ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ أي : يخلطكم شِيَعاً أي :

فرقا متحزبين على أهواء شتى ، فينشب القتال بينكم ، وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، بقتال بعضكم بعضا.

وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : أنه لما نزلت : أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ قال : «أعوذ بوجهك» ، ولما نزلت :

أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قال أيضا : «أعوذ بوجهك» ، ولما نزلت : أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً قال : «هذا أهون» «١» ، فقضى اللّه على هذه الأمة بالقتل والقتال إلى يوم القيامة ، نعوذ باللّه من الفتن.

قال تعالى : انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ أي : نقلبها بورود الوعد والوعيد لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ما نزل إليهم.

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ أي : بالعذاب ، أو بالقرآن ، وَهُوَ الْحَقُّ أي : الواقع لا محالة ، أو الصدق فى أخباره وأحكامه ، قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أي : وكل إلىّ أمركم فأمنعكم من التكذيب ، أو أجازيكم ، إنما أنا منذر ، واللّه هو الحفيظ. لِكُلِّ نَبَإٍ أي : خبر بعذاب أو إيعاد به ، مُسْتَقَرٌّ أي : وقت استقراره ووقوعه ، يعرف – عند انقضائه – صدقه من كذبه ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ما يحل بكم عند وقوعه فى الدنيا والآخرة.

الإشارة : الخطاب للمريدين السائرين ، أو الواصلين. خوفهم بأن يحول بينهم وبين شهود عظمته الفوقية والتحتية ، فينزل عليهم عذاب الفرق من جهة العلو أو السّفل ، فلا يشهدون إلا الأكوان محيطة بهم ، أو يخالف بين وجوههم ويلبسهم شيعا ، فإذا تفرقت الوجوه تفرقت القلوب غالبا ، والعياذ باللّه ، لأن الفتح والنصر مرتب على الجمع ، قال تعالى : قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ «٢». قال القشيري : فيه إشارة إلى أن الجمع مؤذن بالفتح. هـ. فينبغى للمريد أن يشهد الصفاء فى الجميع ، ويتودد إلى الجميع ، حتى لا يبقى معه فرق. واللّه تعالى أعلم.

ثم حذّر من صحبة أهل الخوض ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٦٨ الى ٦٩]

وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)

---

(١) أخرجه البخاري فى : (تفسير سورة الأنعام ، باب : قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا) من

حديث جابر رضى اللّه عنه.

(٢) الآية ٢٦ من سورة سبأ.

(١٣٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٣١

قلت : وَلكِنْ ذِكْرى : مفعول بمحذوف ، أي : يذكرونهم ذكرى ، أو مبتدأ ، أي : عليهم ذكرى.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا أي : القرآن بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ولا تجالسهم ، بل قم عنهم حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ أي : غير القرآن ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ النهى عن مجالستهم ، وجلست نسيانا ، فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى أي : بعد أن تذكر النهى ، مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، ونسبة النسيان إلى الشيطان أدبا مع الحضرة ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ «١» ، ووضع المظهر موضع المضمر ، أي : معهم ، للدلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم.

وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ أي : ما على المتقين الذين يجالسونهم شيء من حسابهم ، بل عقابهم على الخوض خاصّ بهم ، وَلكِنْ عليهم ذِكْرى أي : تذكيرهم ووعظهم ومنعهم من الخوض إن قدروا ، وكراهية ذلك إن لم يقدروا ، فيعظونهم لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ، فيجتنبون ذلك الخوض حياء أو كراهية مساءتهم ، وإنما أبيح للمؤمنين القعود مع الكفار الخائضين ومخالطتهم لأن ذلك يشق عليهم ، إذ لا بد لهم من مخالطتهم فى طلب المعاش وفى الطواف ، وغير ذلك ، بخلافه – عليه الصلاة والسلام – لأن اللّه أغناه عنهم به ، فنهاه عن مخالطة أهل الخوض مطلقا.

[سورة الأنعام (٦) : آية ٧٠]

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

ثم قال له : وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً أي : بنوا أمر دينهم على التشهّى ، وتدّينوا بما لا يعود عليهم بنفع ، عاجلا وآجلا ، كعبادة الأصنام واتخاذ البحائر والسوائب ، أو اتخذوا دينهم الذي كلفوا بالدخول فيه لعبا ولهوا ، حيث سخروا به ، أي : أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم. ومن جعله منسوخا بآية السيف حمله على الأمر بالكف عنهم ، وترك التعرض لهم ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وزخرفها ، حتى نسوا البعث وأنكروه ، والعياذ باللّه.

الإشارة : قد تقدم مرارا التحذير من مخالطة أهل الخوض وصحبة العوام ، وكل من ليس من جنس أهل

النسبة ، فإن ألجأه الحال إلى صحبتهم – فليذكرهم ، ويعظهم ، وينهضهم إلى اللّه بمقاله أو حاله ما استطاع. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه – عليه الصلاة والسلام – بالتذكير ، فقال :

---

(١) من الآية : ٧٨ من سورة النساء.

وَذَكِّرْ بِهِ ...

قلت : (تبسل) : تحبس وتسلم للهلكة ، وفى البخاري : «تبسل : تفضح ، أبسلوا : فضحوا وأسلموا» «١».

يقول الحق جل جلاله لنبيه – عليه الصلاة السلام – : وَذَكِّرْ بالقرآن الناس مخافة أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ أي : لئلا تحبس كل نفس وترتهن بما كسبت أو تسلم للهلكة ، أو لئلا تفضح على رؤوس الأشهاد بما كسبت ، لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ يدفع عنها العذاب ، وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ أي : وإن تفد كل فداء لا يُؤْخَذْ مِنْها أي : لا يقبل منها.

أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا أي : أسلموا للعذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة ، أو افتضحوا بما كسبوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وهو الماء الحار ، وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ ، والمعنى : هم بين ماء مغلى يتجرجر فى بطونهم ، ونار تشعل بأبدانهم بسبب كفرهم ، والعياذ بالله.

الإشارة : لا ينبغى للشيخ أو الواعظ أن يمل من التذكير ، ولو رأى من أصحابه غاية الصفاء ، ولا ينبغى للمريد أن يمل من التصفية والتشمير ، ولو بلغ من تصفية نفسه ما بلغ ، أو أظهرت له من الاستقامة ما أظهرت ، قال تعالى : وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها.

قال أبو حفص النيسابورى رضى اللّه عنه : من لم يتّهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم يجرها إلى مكروهها فى سائر أيامه ، كان مغرورا ، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها ، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم ، يقول : وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ «٢». وقال أيضا : منذ أربعين سنة اعتقادي فى نفسى – أن اللّه ينظر إليّ نظر السخط ، وأعمالى تدل على ذلك. وقال الجنيد رضى اللّه عنه : لا تسكن إلى نفسك ، وإن دامت طاعتها لك فى طاعة ربك. وقال أبو سليمان الداراني رضى اللّه عنه : (ما رضيت عن نفسى طرفة عين). إلى غير ذلك من مقالاتهم التي تدل على عدم الرضى عن النفس وعدم القناعة

منها بالتصفية التي أظهرت.

ويحكى عن القطب ابن مشيش أنه لما بلغ فى تلاوته هذه الآية ، تواجد وأخذه حال عظيم اقتطعه عن حسه ، حتى كان يتمايل ، فيميل الجبل معه يمينا وشمالا. نفعنا اللّه بذكرهم آمين.

---

(١) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الأنعام) من قول ابن عباس. رضى اللّه عنه.

(٢) من الآية ٥٣ من سورة يوسف.

فإن قلت : العارف لم تبق له نفس يتهما لفنائه فى شهوده وانطوائه فى وجوده؟ قلت : العارف الكامل هو الذي لا يحجبه جمعه عن فرقه ، ولا فرقه عن جمعه ، فإذا رجع إلى شهود فرقه ، رأى نفسه عبدا متصفا بنقائص العبودية التي لا نهاية لها ، ولذلك قالوا : للنفس من النقائص ما لله من الكمالات. فلو تطهرت كل التطهير لم يقبل منها ، وإذا نظر إلى نعت جمعه رأى نفسه مجموعا فى الحضرة ، متصفا بالكمالات التي لا نهاية لها ، فيغيب عن شهود عبوديته فى عظمة ربوبيته ، لكنه لا يحجب بجمعه عن فرقه لكماله ، وإلى هذا المعنى أشار فى الحكم بقوله :

«لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك ، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك». وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه – عليه الصلاة والسلام بالتبرؤ من الشرك مطلقا ، تشريعا ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٧١ الى ٧٣]

قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

قلت : (و نردّ) : عطف على (ندعو) والهمزة للإنكار ، والرد على العقب : الرجوع إلى وراء ، لعلّة فى المشي ، واستعير للمعانى ، و(كالذى استهوته) : الكاف فى موضع نصب على الحال من الضمير فى (نردّ) أي : كيف نرجع مشبهين بمن استهوته الشياطين ، أو نعت لمصدر محذوف ، أي : ردا كرد الذي ... إلخ. واستهوى : استفعل ، من هوى فى الأرض إذا ذهب ، وقال الفارسي : استهوى بمعنى أهوى ، مثل استزل بمعنى أزل ، و(حيران) : حال من مفعول استهوى.

و«أن أقيموا» : عطف على «لنسلم» ، أو «أمرنا». «قوله الحق» : مبتدأ ، و«يوم يقول» : خبر مقدم ، أي : قوله الحق حاصل يوم يقول : كن فيكون ، وفاعل «يكون» : ضمير فاعل كن ، أي : حين يقول للشيء : كن فيكون ذلك الشيء ، و«يوم ينفخ» : ظرف لقوله : «الملك» ، كقوله : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ «١».

---

(١) من الآية ١٦ من سورة غافر.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٣٤

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : نعبد ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا من الأصنام الجامدة ، وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا أي : نرجع إلى الشرك بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ وأنقذنا ، ورزقنا الإسلام ، وهذا على الصحابة. وأما النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فلم يتقدم له شرك لعصمته ، أي : كيف نرد على أعقابنا ردا كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ ، أي : أضلته مردة الجن عن الطريق المستقيم ، فذهب فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ متحيرا ضالا عن الطريق ، لَهُ أَصْحابٌ أي : رفقة يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أي : إلى الطريق المستقيم ، يقولون له : ائْتِنا وكن معنا لئلا تتلف. وهو مثال لمن ترك الإسلام وضل عنه.

قُلْ لهم : إِنَّ هُدَى اللَّهِ ، وهو الإسلام ، هُوَ الْهُدى وحده ، وما عداه ضلال. وَقد أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ نكون على الجادة من الهدى ، وَأمرنا أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ أي : أمرنا بإقامة الصلاة والتقوى ، روى أن عبد الرحمن بن أبى بكر دعا أباه إلى عبادة الأوثان ، فنزلت ، وعلى هذا أمر الرسول بهذا القول إجابة عن الصديق تعظيما لشأنه ، وإظهارا للاتحاد الذي كان بينهما. قاله البيضاوي. وقال ابن جزى : ويبطل هذا قول عائشة : ما نزل فى آل أبى بكر شيء من القرآن إلا برائتى. هـ. قلت : ليس بحجة لصغر سنّها وقت نزول الآية بمكة ، والإسلام يمحو ما قبله. ثم قال جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ يوم القيامة فيظهر من تبع الحق من الباطل.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، أي : قائما بالحق والحكمة ، فهو أحق بالعبادة وحده ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ أي : قوله العدل حاصل يوم يقول للبعث والحشر : كن فيكون ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ أي : انفرد الملك له يوم ينفخ فى الصور فيقول : لمن الملك اليوم؟ فلا يجاب ، فيقول : لله الواحد القهار ، عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أي : هو عالم بما غاب وما ظهر ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فى صنعه ، الْخَبِيرُ بأمر عباده.

الإشارة : إذا توجه العبد إلى مولاه ، وانقطع بكليته إلى اللّه ، طالبا منه معرفته ورضاه ، قد يمتحن

بشيء من شدائد الزمان كالفاقة وإيذاء الخلق والأحزان ، فيقال اختبارا له : تعلق فى دفع ما نزل بك بشيء من السّوى ، فيجب عليه أن يقول : أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بالالتفات إلى غير ربنا ، بعد إذ هدانا اللّه إلى توحيده ومعرفته ، ونكون كالذى استهوته الشياطين فى الأرض ، حيران بالتفاته إلى غير الكريم المنان ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ أي : هدايته الخاصة ، وهى الانقطاع إليه وحده فى الشدائد ، هُوَ الْهُدى ، وقد أمرنا بالانقياد بكليتنا إلى ربنا ، وأمرنا إذا حزبنا شيء بإقامة الصلاة لأنها مفتاح الفرج ، وبالتقوى لأنها سبب النصر إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وآخر أمرنا الموت والحشر إلى ربنا ، والاستراحة إلى الروح والريحان. وباللّه التوفيق.

(١٣٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٣٥

ثم ذكر قصة إبراهيم إبطالا لدعوى الشرك ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٧٤]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٧٤)

قلت : آزر : عطف بيان ، أو بدل من أبيه ، ومنع من الصرف للعلمية والعجمة. وقرأ يعقوب بالضم – على النداء ، وقيل : إن آزر اسم صنم لأنه ثبت أن اسم أبى إبراهيم تارخ. فعلى هذا يحتمل أن يكون لقب به لملازمته له ، وقيل : هما علمان له كإسرائيل ويعقوب.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ، حين دعاه إلى التوحيد : أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً تعبدها من دون اللّه ، وهى لا تنفع ولا تضر ، إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ : بيّن الضلالة ، ظاهر الخطأ.

الإشارة : كل من سكن إلى شيء دون اللّه ، أو مال إليه بالعشق والمحبة ، فهو صنم فى حقه ، فإن لم ينزع عن محبته ، ولم يقلع عن السكون إليه ، كان حجابا بينه وبين شهود أسرار التوحيد. وفى الحكم : «ما أحببت شيئا إلا وكنت عبدا له ، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا». وفى الحديث : «تعس عبد الدينار والدرهم» ... أي : خاب وخسر ، فإذا اطلع الحق تعالى على قلب عبده فرآه مائلا لغيره ، حجب عنه أنوار قدسه ، وفى ذلك يقول الششترى رضى اللّه عنه :

لى حبيب إنما هو غيور ، يطلّ فى القلب كطير حذور ،

إذا رأى شيئا امتنع أن يزور.

وباللّه التوفيق.

ثم ذكر احتجاج إبراهيم على قومه ، وتبصره بأمر ربه ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٧٥ الى ٧٩]

وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٣٦

قلت : الملك : ما ظهر فى عالم الشهادة من المحسوسات ، والملكوت : ما غاب فيها من معانى أسرار الربوبية ، والجبروت : ما لم يدخل عالم التكوين من أسرار المعاني الأزلية.

يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ أي : مثل ذلك التبصر الذي بصّرنا به إبراهيم حتى اهتدى للرد على أبيه ، نريه مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : نكشف له عن أسرار التوحيد فيهما ، حتى يشاهد فيهما صانعهما ، ولا يقف مع ظاهر حسهما ، وإنما فعلنا له ذلك لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ بمعرفتنا ، عارفا بأسرار قدسنا.

ولما كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والقمر والشمس ، أراد أن يرشدهم إلى التوحيد من طريق النظر والاستدلال فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ أي : ستره بظلامه ، رَأى كَوْكَباً وهو الزهرة أو المشترى ، قالَ هذا رَبِّي على سبيل التنزل إلى قول الخصم ، وإن كان فاسدا فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم ، ثم يكرّ عليه بالفساد لأن ذلك أدعى إلى الحق ، وأقرب إلى رجوع الخصم ، فَلَمَّا أَفَلَ أي : غاب ، قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فضلا عن عبادتهم فإن التغير بالاستتار والانتقال يقتضى الإمكان والحدوث وينافى الألوهية.

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً : مبتدئا فى الطلوع ، قالَ هذا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. استعجز نفسه واستعان ربه فى درك الحق ، وأنه لا يهتدى إليه إلا بتوفيقه إرشادا لقومه ، وتنبيها لهم على أن القمر أيضا لتغيّر حاله ، لا يصلح للألوهية ، وأن من اتخذه إلها ، فهو ضالّ.

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي ، إنما ذكّر الإشارة لتذكير الخبر ، وصيانة للرب عن شبهة التأنيث هذا أَكْبَرُ لكبر النور وسطوعه أكثر ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ من الأجرام المحدثة المحسوسة ، المحتاجة إلى محدث يحدثها ، ومخصص يخصصها.

ولما تبرأ من عبادتها توجه إلى موجدها ومبدعها ، فقال : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ أي : أبدع

السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حال كونى حَنِيفاً أي : مائلا عن دنيكم وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مثلكم. وإنما احتج بالأفول دون البزوغ ، مع أنه تغير لأن الأفول أظهر فى الدلالة لأنه انتقال مع اختفاء واحتجاب. ولأنه رأى الكوكب الذي يعبدونه فى وسط السماء حين حاول الاستدلال. وقيل : إن هذا الاستدلال والاحتجاج كان فى حال طفولته قبل التكليف. فقد روى أنه لما ولدته أمه فى غار ، خوفا من نمرود إذ كان يقتل الأطفال لأن المنجمين أخبروه أن هلاكه على يد صبى يولد فى هذا العصر ، فكان يستدل بما رأى على توحيد ربه ، وهو فى الغار ، وهذا ضعيف لأن قوله : إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ يقتضى المحاجة والمخاصمة لقومه.

وقوله عليه السّلام : هذا رَبِّي مع قوله إِنِّي سَقِيمٌ «١» وفَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا «٢» ، ليس بكذب للعصمة ، وإنما هو تورية. وفى الحديث : «ليس بكاذب من كاذب ظالما ، أو دفع ضررا ، أو رعى حقا ، أو حفظ قلبا». وفى

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة الصافات.

(٢) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء. [.....]

رواية أخرى : «ليس بكاذب ، من قال خيرا أو نواه». وأما اعتذاره فى حديث الشفاعة فلهول المطلع ، فيقع الحذر من أدنى شيء. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لمّا كوشف إبراهيم بعالم الملكوت ، رأى اللّه فى الأشياء كلها ، كما ورد فى بعض الأثر : (ما رأيت شيئا إلا رأيت اللّه فيه). وإنما قال : لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ حذرا من الوقوف مع الحس دون شهود المعنى ، إذ بحر المعاني متصل دائم ليس فيه تغيير ولا انتقال. وإنما تتغير الأوانى دون المعاني ، فشمس المعاني مشرقة على الدوام ، ليس لها مغيب ولا تغير ولا انتقال ، ولذلك قيل :

طلعت شمس من أحب بليل واستنارت فما تلاها غروب

إنّ شمس النّهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليس لها مغيب

أي : طلعت شمس نهار عرفانهم على ليل وجودهم ، فامتحت ظلمة وجودهم فى شهود محبوبهم ، وفى الحكم :

«أنار الظواهر بأنوار آثاره ، وأنار السرائر بأنوار أوصافه ، لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر ، ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر».

قال الجوزي : لما بدا لإبراهيم نجم العلم ، وطلع قمر التوحيد ، وأشرقت شمس المعرفة – قال : إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ... الآية. هـ. قيل : لما نظر إبراهيم عليه السّلام بعيون رأسه إلى نور النجم والشمس والقمر الحسى ، نودى فى سره : يا إبراهيم ، لا تنظر ببصرك إلى الجهة الحسية ، وانظر ببصيرتك إلى الحقيقة المعنوية لأن الوجود كله عين الأحدية ، فافهم معانى الأسماء ، ولا تقف مع جرم الأرض والسماء ، فإن الوقوف مع الحس حجاب عن المعنى. فقال إبراهيم : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. هـ. وفى ذلك يقول الششترى أيضا :

لا تنظر إلى الأوانى وخض بحر المعاني

لعلّك ترانى.

ولما احتج إبراهيم عليه السّلام على قومه خاصموه فى ذلك ، كما قال تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٨٠]

وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)

يقول الحق جل جلاله : وَحاجَّهُ قَوْمُهُ أي : خاصموه فى التوحيد ، فقال لهم : أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ أي : فى وحدانيته ، أو فى الإيمان به ، وقد هدانى إلى توحيده وأرشدنى إلى معرفته ، فلا ألتفت إلى غيره ، ولا أعبأ بمن خاصمنى فيه ، والأصل : تحاجوننى ، فحذف نافع وابن عامر نون الرفع ، وأبقى نون الوقاية ، وقيل : العكس ، وأدغم الباقون إحدى النونين فى الأخرى.

الإشارة : مخاصمة العموم لأهل الخصوصية سنّة ماضية (و لن تجد لسنة اللّه تبديلا) لأنّ من أنكر شيئا عاداه ، فأهل الخصوصية يعذرون من أنكر عليهم لأن ذلك مبلغهم من العلم ، والعامة لا يعذرون أهل الخصوصية لخروجهم عن بلادهم فلا يعرفون ما هم فيه. واللّه تعالى أعلم.

(١٣٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٣٨

ولما خاصموا إبراهيم عليه السّلام فلم يلتفت إليهم ، خوفوه بأصنامهم ، فقال لهم :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٨١ الى ٨٢]

وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)

قلت : الاستثناء فى قوله : (إلا أن يشاء) : منقطع. قاله ابن جزى. وظاهر كلام البيضاوي : أنه متصل ،

وهو المتبادر ، أي : ولا أخاف ما تشركون فى حال من الأحوال إلا أن يشاء ربى أن يصيبنى بمكروه من جهتها استدراجا لكم ، وفتنة. وقال الواحدي : لا أخاف إلا مشيئة ربى أن يعذبنى.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن خليله إبراهيم : وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ أي : لا أخاف معبوداتكم أن تصيبنى بشيء لأنها جوامد لا تضر ولا تنفع ، إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً يصيبنى بقدره وقضائه ، فإنه يصيبنى لا محالة ، لا بسببها ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ، كأنه علّة الاستثناء ، أي : لا أخاف إلا ما سبق فى مشيئة اللّه ، لأنه أحاط بكل شيء علما ، فلا يبعد أن يكون فى علمه وقدره أن يحيق بي مكروه من جهتها ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز؟.

وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وهو جامد عاجز لا يتعلق به ضرر ولا نفع؟ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ وهو أحق أن يخاف منه كل الخوف ، لأنه القادر على الانتقام ممن أشرك معه غيره ، وسوّى بينه وبين مصنوع عاجز ، لا يضر ولا ينفع ، فأنتم أحق بالخوف لأنكم أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً أي : لم ينزل بإشراكه كتابا ، ولم ينصب عليه دليلا ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ : أهل التوحيد والإيمان ، أو أهل الشرك والعصيان؟ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ما يحق أن يخاف منه.

ثم أجاب عن الاستفهام : الحق تعالى أو خليله ، فقال : الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا أي : يخلطوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أي : بشرك ، بل آمنوا بالله ولم يعبدوا معه غيره ، أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ فى الآخرة ، وَهُمْ مُهْتَدُونَ فى الدنيا. أما الطائع فأمنه ظاهر ، وأما العاصي فيؤمن من الخلود وتحريم الجنة عليه.

ولمّا نزلت الآية أشفق منها أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقالوا : أينا لم يظلم نفسه؟ لأنهم فهموا عموم الظلم فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «ليس ما تظنون ، إنما هو ما قال لقمان لابنه : يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ» «١» ،

---

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان ... والحديث أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء باب قول اللّه تعالى «ولقد آتينا لقمان الحكمة ...)

ومسلم فى (الإيمان ، باب صدق الإيمان وإخلاصه) من حديث ابن مسعود رضى اللّه عنه.

وقد كان المشركون يقرّون بالصانع ويخلطون معه التصديق بربوبية الأصنام ، فقد آمنوا بوجود الصانع ، ولكنهم لبسوا إيمانهم بالشرك ، فلا أمن لهم ولا هداية. وبهذا يرد جهالة الزمخشري فى إنكاره الحديث الصحيح ، ولو بقي الظلم على عمومه – أي : ولم يخلطوا إيمانهم بمعصية – لصحّ ، ويكون

المراد بالأمن أمنا خاصا وهداية خاصة ، لكن ما قاله – عليه الصلاة والسلام – يوقف عنده.

الإشارة : العارف بالله ، المتحقق بوحدانية اللّه ، لا يسكن خوف الخلق فى قلبه ، ولا ينظر إلا إلى ما يبرز من عند ربه ، فإن وعده بالعصمة أو الحفظ لم يترك بذلك التضرع والالتجاء إلى ربه لسعة علمه تعالى ، وقد يكون ذلك متوقفا على أسباب وشروط ، أخفاها الحق تعالى إظهارا لقهريته ، ولذلك قال الخليل عليه السّلام : وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً. وقال سيدنا شعيب عليه السّلام : وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً «١». فالعارف لا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير اللّه قراره ، وأما الأمن من التحويل والانقلاب ، فاختلف فيه فقال بعضهم : يحصل للوليّ الأمن ، إذا تحقق بمقام القرب ، وحصل له الفناء والبقاء ، متمسكا بقوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ. وقال بعضهم : لا يحصل الأمن إلا للأنبياء – عليهم السلام – للعصمة.

قال الورتجبي : مقام الأمن لا يحصل لأحد ، مادام هو بوصف الحدثية ، وكيف يكون آمنا منه وهو فى رقّ العبودية ويعرف نفسه بها ، ويعرف الحق بوصف القدم والبقاء وقهر الجبروت؟ وقال تعالى : فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ «٢». فإذا رأى اللّه تعالى بوصف المحبة والعشق والشوق ، وذاق طعم الدنو ، واتّصف بصفات الحق ، بدا له أوائل الأمن ، لأن فى صفة القدم لا يكون علة الخوف والرجاء ، لأن هناك جنة القرب والوصال ، وهم فيها آمنون من طوارق القهر ، وهم مهتدون ماداموا متصفين بصفاته ، وإن كانوا فى تسامح من مناقشة اللّه بدقائق خفايا مكره. هـ.

فظاهر كلامه ، أن المتحقق بمقام الفناء والبقاء ، يحصل له الأمن من الشقاء ، وكذلك قال أبو المواهب : من رجع إلى البقاء أمن من الشقاء. وقال فى نوادر الأصول : من حظّه من أهل التقريب : الجلال والجمال ، وقد أقيم فى الهيبة والأنس ، قد غاب عن خوف العقوبة ، ولكنه يخاف التحويل والهوى والسقوط ، لما ركب فى نفوس بنى آدم من الشهوات ، فهن أبدا يهوين بصاحبهن عن اللّه إلى الإخلاد والبطء ، وإنما يسكن خوف التحويل إذا خلص إلى الفردانية وتعلّق بالوحدانية لتلاشى الهوى منه والشهوة بكشف الغطاء ، ولا يذهب خوف ذلك بالكلّية عنه ، وإن

---

(١) الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٩٩ من سورة الأعراف.

سكن لبقاء خيال ذلك فى حق غير الأنبياء. وأما هم فلم يبق لهم ظلّ الهوى ، فبشّروا بالنجاة فلم تغرهم البشرى لأنهم لم يبق لهم نفوس ، فتستبدّ وتجور إذا أمنت السقوط ، ومن بعدهم بقي لهم فى نفوسهم شيء فمنعوا البشرى ، وأبهم عليهم الأمر صنعا بهم ونظرا لهم ، لتكون نفوسهم منقمعة بخوف الزوال. هذا هو الأصل فافهمه. هـ.

وحاصل كلامه : أن غير الأنبياء لا ينقطع عنه خوف التحويل ، بل يسكن خوفه فقط ، ولا يبشّر بالأمن إلا الأنبياء ، وهو الصواب ، لبقاء قهر الربوبية فوق ضعف العبودية ، قال تعالى : وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ «١».

واللّه تعالى أعلم.

ثم مدح خليله بما أظهر على يديه من الحجة والعلم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٨٣]

وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

قلت : (على قومه) : متعلق بحجتنا ، إن جعل خبرا عن (تلك) ، وبمحذوف ، إن جعل بدله ، أي : وتلك الحجة آتيناها إبراهيم حجة على قومه. ومن قرأ : «درجات : بالتنوين فمن نشاء : مفعول ، ودرجات : تمييز.

يقول الحق جل جلاله : وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ ، إشارة إلى ما تقدم من استدلاله على وحدانيته تعالى بأفول الكوكب والقمر والشمس ، واحتجاجه بذلك على قومه ، وإتيانه إياها : وإرشاده لها وتعليمه إياها ، قال تعالى : نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ فى العلم والحكمة ، أو فى اليقين والمعرفة ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ فى رفعه وخفضه ، عَلِيمٌ بحال من يرفعه ويخفضه ، وبحال الاستعداد لذلك.

الإشارة : رفع الدرجات فى جنات الزخارف يكون بالعلم والعمل وزيادة الطاعات ، ورفع الدرجات فى جنة المعارف يكون بكبر اليقين ، والترقي فى شهود رب العالمين. وذلك بحسب التبتل والانقطاع ، والتفرغ من شواغل الحس ودوام الأنس. واللّه تعالى أعلم.

ومما خصّ به إبراهيم عليه السّلام وكان زيادة فى درجته ، أن الأنبياء جلّهم من ذريته ، كما قال تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٨٤ الى ٩٠]

وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)

أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ

(٨٩) أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ (٩٠)

---

(١) من الآية ١٨ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤١

قلت : الضمير فى (ذريته) لإبراهيم عليه السّلام لأن الحديث عليه ، أو لنوح عليه السّلام لذكر لوط ، وليس من ذرية إبراهيم ، لكنه ابن أخيه فكأنه ابنه ، و(داود) : عطف على (نوح) أي : وهدينا من ذريته داود ، و(من آبائهم : فى موضع نصب ، عطف على (نوح) أي : وهدينا بعض آبائهم ، والهاء فى (اقتده) : للسكت ، فتحذف فى الوصل ، ومن أثبتها راعى فيها خط المصحف ، وكأنه وصل بنية الوقف.

يقول الحق جل جلاله : وَوَهَبْنا لإبراهيم إِسْحاقَ ابنه ، وَيَعْقُوبَ حفيده ، كُلًّا منهما هَدَيْنا وَنُوحاً قد هديناه مِنْ قَبْلُ إبراهيم ، وعدّه نعمة على إبراهيم من حيث إنه أبوه ، وشرف الوالد يتعدّى إلى الولد ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ أي : إبراهيم ، داوُدَ بن أيشا ، وَسُلَيْمانَ ، وَأَيُّوبَ بن قوص بن رازح بن عيصو بن إسحاق وَيُوسُفَ بن يعقوب بن إسحاق ، وَمُوسى وَهارُونَ ابنا عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوى بن يعقوب.

وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي : نجزى المحسنين جزاء مثل ما جازينا إبراهيم برفع درجاته وكثرة أولاده ، وجعل النبوة فيهم.

وَزَكَرِيَّا بن آذن بن بركيا ، من ذرية سليمان ، وَيَحْيى بن زكريا ، وَعِيسى بن مريم بنت عمران ، وفيه دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت ، وَإِلْياسَ بن نسى بن فنحاص بن إلعازر بن هارون.

وقيل : هو إدريس جد نوح ، وفيه بعد. كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ الكاملين فى الصلاح ، وهو الإتيان بما ينبغى والتحرز مما لا ينبغى.

وَإِسْماعِيلَ بن إبراهيم ، قد هدينا أيضا ، وهو أكبر ولد إبراهيم ، وهو ابن هاجر ، وَالْيَسَعَ بن أخطوب بن العجوز ، وقرىء : «والليسع» بالتعريف ، كأن أصله : ليسع ، و«أل» فيه : زائدة ، لا تفيد التعريف لأنه علم ، وَيُونُسَ بن متى ، اسم أبيه ، وهو من ذرية إبراهيم ، خلافا للبيضاوى. قال القرطبي : لم يبعث اللّه نبيا من بعد إبراهيم إلا من صلبه. هـ. ويونس مثلث النون كيوسف ، يعنى بتثليث السين.

وَلُوطاً هو ابن هاران أخى إبراهيم ، فهو ابن أخيه ، وقيل : ابن أخته ، فقد يطلق على العم أب مجازا ، وَكُلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ أي : عالمى زمانهم بالنبوة والرسالة. فكل واحد فضّل على أهل زمانه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٢

وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ أي : فضّلنا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم ، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، وَاجْتَبَيْناهُمْ أي : اخترناهم للرسالة واصطفيناهم للحضرة ، وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ الذي يوصل إلى حضرة قدسنا. ذلِكَ هُدَى اللَّهِ أي : ذلك الدين الذي دانوا به هو هدى اللّه يَهْدِي بِهِ أي : بسببه ، مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ، تحذيرا من الشرك ، وإن كانوا معصومين منه.

أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ أي : جنس الكتب ، وَالْحُكْمَ أي : الحكمة ، أو الفصل بين العباد ، على ما يقتضيه الحق ، وَالنُّبُوَّةَ الرسالة ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ : أهل مكة ، فَقَدْ وَكَّلْنا بِها أي : بالإيمان بها والقيام بحقوقها ، قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ وهم الأنبياء المذكورون ، وتابعوهم ، وقيل : الصحابة المهاجرون والأنصار ، وهو الأظهر. وقيل : كل مؤمن ، وقيل : الفرس. والأول أرجح لدلالة ما بعده عليه ، وهو قوله : أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، الإشارة إلى الأنبياء المذكورين ، فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ أي : اتبع آثارهم ، والمراد بهديهم : ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين ، دون الفروع المختلف فيها ، فإنها ليست هدى مضافا إلى الكل ، ولا يمكن التأسّى بهم جميعا فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة السلام متعبّد بشرع من قبله. قاله البيضاوي.

قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أي : التبليغ أو القرآن ، أَجْراً أي : جعلا من جهتكم ، كحال الأنبياء قبلى اقتداء بهم فيه ، فهو من جملة ما أمر بالاقتداء بهم فيه ، إِنْ هُوَ أي : ما هو ، أي : التبليغ أو القرآن ، إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ إلا تذكرة وموعظة لهم.

الإشارة : فضّل هؤلاء السادات على أهل زمانهم بما هداهم إليه من أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، وبما خصهم به من كمال العبودية والآداب مع عظمة الربوبية. وفى قوله لحبيبه : فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ فتح لباب اكتساب التفضيل ، فكلّ من اقتدى بهم فيما ذكر شرّف على أهل زمانه ، وقد جمع فى حبيبه صلّى اللّه عليه وسلّم ما افترق فيهم ، وزاد عليهم بالمحبة ورفع الدرجات ، فكان هو سيد الأولين والآخرين ، فكل من اقتدى به فى أفعاله وأقواله وأخلاقه نال من السيادة بقدر اقتدائه ، وأمره سبحانه له بالاقتداء بهم ، إنما هو فى الآداب ، وكان ذلك قبل أن يترقّى عنهم إلى مقامه الذي خصّه اللّه به. فإن للأنبياء سيرا وترقّيا يليق بهم. كما للأولياء سير وترقّ يليق بهم.

قال الورتجبي : أمر حبيبه – عليه الصلاة والسلام – بالاقتداء بالأنبياء والرسل قبله فى آداب الشريعة ، لأن هناك منازل الوسائط ، فإذا أوصله بالكلّية إليه ، وكحّل عيون أسراره بكحل الربوبية ، جعله مستقلا بذاته مستقيما بحاله ، وخرج عن حدّ الإرادة إلى حد المعرفة والاستقامة ، وأمره بإسقاط الوسائط ، حتى قال : «لو كان موسى حيّا ما وسعه إلّا اتّباعى» ، وغير ذلك. هـ. وقال الشاذلى رضى اللّه عنه : أمره بالاقتداء بهم فيما شاركوه فيه ، وإن انفرد عنهم بما خصّ به. هـ.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٣

ولمّا ذكر مشاهير الرسل ، وما أتحفهم به من الهداية وإنزال الوحى ، ردّ على من أنكر ذلك ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٩١]

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)

يقول الحق جل جلاله فى الرد على اليهود : وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أي : ما عرفوه حق معرفته فى الرحمة والإنعام على العباد بالوحى وغيره ، إذ لو عرفوه لهابوا أن ينكروا بعثة الرسل ، أو ما جسروا على هذه المقالة ، أو ما عظموه حق تعظيمه. حيث كذّبوا رسله وأنكروا أن يكون أنزل عليهم كتابا ، إذ لو عظّموه حق تعظيمه لصدّقوا الرسول الوارد عنه ، وهو معنى قوله : إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، والقائلون هم اليهود ، كفنحاص ومالك بن الصيف وغيرهما ، قالوا ذلك مبالغة فى إنكار إنزال القرآن ونبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، فردّ اللّه عليهم بما لا بدّ لهم من الإقرار به وهو إنزال التوراة على موسى فقال : قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ ، فالنور للبواطن ، والهداية للظواهر ، تَجْعَلُونَهُ أي : التوراة ، قَراطِيسَ أي :

تجزّؤونه أجزاء متفرقة ، ما وافق أهواءكم أظهرتموه وكتبتموه فى ورقات متفرقة ، وما خالف أهواءكم كتمتموه وأخفيتموه.

روى أنّ مالك بن الصّيف قاله ، لمّا أغضبه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بقوله : «أنشدك اللّه الذي أنزل التّوراة على موسى ، هل تجد فيها أنّ اللّه يبغض الحبر السّمين ، فأنت الحبر السّمين» ، فغضب ، وقال : ما أنزل اللّه على بشر من شيء ، فردّ اللّه عليه بما تقدّم «١». وقيل : القائلون ذلك :

المشركون ، وإلزامهم بإنزال التوراة لأنه كان مشهورا عندهم يقرّون به ، ولذلك قالوا : أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ «٢».

وَعُلِّمْتُمْ على لسان محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ ، زيادة على ما فى التوراة ، وبيانا لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم. ونظيره : إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ «٣» أو : وعلّمتم من التوراة ما لم تكونوا تعلّمتم أنتم ولا آباؤكم قبل إنزاله ، وإن كان الخطاب لقريش فالذى علّموه : ما سمعوا من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من القصص والأخبار.

(١) أخرجه الطبري فى التفسير. وذكره الواحدي فى أسباب النزول ، عن سعيد بن جبير مرسلا.
(٢) الآية ١٥٧ من السورة نفسها.
(٣) الآية ٧٦ من سورة النمل.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٤
ثم أجاب عن استفهامه بقوله : قُلِ اللَّهُ أي : أنزله اللّه ، أو اللّه أنزله. قال البيضاوي : أمره بأن يجيب عنهم إشعارا بأن الجواب بهذا متعيّن لا يمكن غيره ، وتنبيها على أنهم بهتوا بأنهم لا يقدرون على الجواب هـ.
ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ فى أباطيلهم. فلا عليك بعد التبليغ وإلزام الحجة ، وأصل الخوض فى الماء ، ثم استعير للمعانى المشكلة ، وللقلوب المتفرقة فى أودية الخواطر.
الإشارة : يفهم من الآية أنّ من أقرّ بإنزال الكتب وآمن بجميع الرسل ، فقد قدر اللّه حق قدره وعظّمه حق تعظيمه. وهذا باعتبار ضعف العبد وعجزه وجهله وإلّا فتعظيم الحق حق تعظيمه ، ومعرفته حق معرفته ، لا يمكن انتهاؤها ، ولا الوصول إلى عشر العشر منها. قال تعالى وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً «١» ، وقال : كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ «٢» فلو بقي العبد يترقى فى المعرفة أبدا سرمدا ، ما عرف اللّه حق معرفته ، حتى ينتهى إلى غايتها ، ولو بقي يعبد أبد الأبد ما قام بواجب حقه.
وقوله تعالى : قُلِ اللَّهُ استشهد به الصوفية ، فى طريق الإشارة ، على الانفراد والانقطاع إلى اللّه ، وعدم الالتفات إلى ما عليه الناس من الخوض والاشتغال بالأغيار والأكدار ، والخروج عنهم إلى مقام الصفا ، وهو شهود الفردانية ، والعكوف فى أسرار الوحدانية. قال ابن عطاء اللّه – لما تكلم على أهل الشهود – قال : (لأنهم لله لا لشىء دونه ، قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ). وقد ينكر عليهم من لم يفهم إشارتهم تجمدا ووقوفا مع الظاهر ، وللقرآن ظاهر وباطن لا يعرفه إلا الربانيون. نفعنا اللّه بهم ، آمين.
ثم قرر صحة إنزال كتابه ، فقال :
[سورة الأنعام (٦) : آية ٩٢]
وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (٩٢)
يقول الحق جل جلاله : وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ أي : كثير البركة ، حسا ومعنى لكثرة فوائده وموم نفعه ، أو : كثير خيره ، دائم منفعته ، قال القشيري : مبارك : دائم باق ، لا ينسخه كتاب ، من قولهم :

برك الطير على الماء. هـ. مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب المتقدمة ، وَلِتُنْذِرَ أنت أُمَّ الْقُرى أي : مكة ،

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة طه.

(٢) الآية ٢٣ من سورة عبس.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٥

وَمَنْ حَوْلَها من المشرق والمغرب أو لينذر القرآن أمّ القرى ومن حولها أي : أنزلناه للبركة والإنذار ، وإنما سميت مكة أمّ القرى لأنها قبلة أهل القرى وحجهم ومجمعهم ، وأعظم القرى شأنا. وقيل : لأن الأرض دحيت من تحتها أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس.

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ هم الذين يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ لأنّ من صدّق بالآخرة ، وخاف عاقبتها ، تحرى لنفسه الصواب ، وتفكر فى صدق النجاة ، فآمن بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وصدّق بما جاء به ، وحافظ على مراسم الشريعة ، وأهمها : الصلاة لأنها عماد الدين وعلم الإيمان ، من حافظ عليها حفظ ما سواها ، ومن ضيّعها ضيّع ما سواها.

الإشارة : مفتاح القلوب هو كتاب اللّه ، وهو عنوان السير ، فمن فتح له فى فهم كتاب اللّه ، عند سماعه والتدبر فى معانيه ، فهو علامة فتح قلبه ، فلا يزال يزداد فى حلاوة الكلام ، حتى يشرف على حلاوة شهود المتكلم من غير واسطة وذلك غاية السير ، وابتداء الترقي فى أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، التي لا نهاية لها. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد من كذّب به أو عارضه ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٩٣ الى ٩٤]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)

قلت : (كما خلقناكم) : بدل من (فرادى) ، أو حال ثانية ، و(لقد تقطع بينكم) من قرأ بالرفع ، فهو فاعل ، أي :

تقطع وصلكم ، ومن قرأ بالنصب ، فظرف ، على إضمار الفاعل ، أي : تقطع الاتصال بينكم ، أو على حذف الموصول لقد تقطع ما بينكم.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فزعم أنه يوحى إليه ، كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي ، أو : غيّر الدين ، كعمرو بن لحيى وأمثاله ، أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ كابن أبى سرح

(١٤٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٦

ومن تقدم ، إلا من تاب ، كابن أبى سرح. وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ كالذين قالوا : لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا «١» كالنضر بن الحارث وأشباهه.

وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ من اليهود والكذابين والمستهزئين ، حين يكونون فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ : شدائده وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ لقبض أرواحهم ، أو بالضرب لوجوههم وأدبارهم ، قائلين لهم : أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ من أجسادكم تغليظا عليهم ، الْيَوْمَ وما بعده تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ أي : الهوان ، يريد العذاب المتضمن للشدة والهوان ، وإضافته للهوان لتمكنه فيه. وذلك العذاب بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، كادعاء النبوة كذبا ، وادعاء الولد والشريك لله ، وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ فلا تستمعون لها ، ولا تؤمنون بها ، فلو أبصرت حالهم ذلك الوقت لرأيت أمرا فظيعا وهولا شنيعا.

يقول الحق سبحانه لهم : وَلَقَدْ جِئْتُمُونا للحساب والجزاء ، فُرادى . متفرّدين عن الأعوان والأوثان ، أو عن الأموال والأولاد ، وهذا أولى بقوله : كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أي : على الهيئة التي ولدتم عليها من الانفراد والتجريد حفاة عزاة غرلا «٢» وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ أي : تفضّلنا به عليكم من الدنيا فشغلتم به عن الآخرة ، وَراءَ ظُهُورِكُمْ ، فلم تقدموا منه شيئا ، ولم تحملوا معكم منه نقيرا ، وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ أي : أصنامكم الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ أي : أنهم شركاء مع اللّه فى ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ أي : تفرّق وصلكم وتشتت شملكم ، وَضَلَّ أي : غاب عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أنهم شفعاؤكم ، أو لا بعث ولا حساب لظهور كذبكم.

الإشارة : كل من ادعى حالا أو مقاما ، يعلم من نفسه أنه لم يدركه ولم يتحقق به ، فالآية تجرّ ذيلها عليه. وفى قوله : وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى .. إلخ ، إشارة إلى أن الدخول على اللّه والوصول إلى حضرته ، لا يكون إلا بعد قطع العلائق والعوائق والشواغل كلها ، وتحقيق التجريد ظاهرا وباطنا إذا لا تتحقق الفردانية إلا بهذا.

وقال الورتجبي : ولى هنا لطيفة أخرى ، أي : ولقد جئتمونا موحّدين بوحدانيتى ، شاهدين بشهادتى ،

بوصف الكشف والخطاب ، كما جئتمونا من العدم فى بدء الأمر ، حين عرّفتكم نفسى بقولي : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى «٣» ، بلا إشارة التشبيه وغلط التعطيل ، كما وصفهم نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم : «كلّ مولود يولد على الفطرة» ، يعنى : على

---

(١) من الآية ٣١ من سورة الأنفال.

(٢) أي غير مختونين.

(٣) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٧

فطرة الأزل بلزوم سمة العبودية بلا علة الاكتساب ، عند سبق الإرادة. انتهى. قلت : وحاصل كلامه : أن مجيئهم فرادى ، كناية عن دخولهم الحضرة القدسية بعد تقديس الأرواح وتطهيرها ، حتى رجعت لأهلها ، كما خلقها أول مرة ، أعنى : مقدسة من شواهد الحس ، مطهرة من لوث الأغيار ، على فطرة الأزل ، فشبه مجيئها الثاني بعد التطهير ببروزها الأول ، حين كانت على أصل التطهير ، كأنه قال : ولقد جئتمونا فرادى من الحس وشهود الغير كما خلقناكم كذلك فى أول الأمر. واللّه تعالى أعلم.

وقوله تعالى : وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ أي : من العلوم الرسمية ، والطاعات البدنية والكرامات الحسية ، قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى العارف : كنت أعرف أربعة عشر علما ، فلما علمت علم الحقيقة سرطت ذلك كله ، فلم يبق لى إلا التفسير والحديث والمنطق. هـ. وقوله تعالى : وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ إشارة إلى أنهم دخلوا من باب الكرم لا من باب العمل. واللّه تعالى أعلم.

ثم شرع يذكر دلائل توحيده وتعريف ذاته ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٩٥ الى ٩٦]

إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)

قلت : (و مخرج) : معطوف على (فالق) ، على المختار لأنّ (يخرج الحي) – واقع موقع البيان له ، و(سكنا) :

مفعول بفعل محذوف ، أي : جعله سكنا ، إلا أن يريد بجاعل : الاستمرار ، فحينئذ ينصب المفعول.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى أي : يفلق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها ، ويفلق النوى لخروج الشجر منها ، يُخْرِجُ الْحَيَّ أي : كل ما ينمو من الحيوان والنبات ليطابق ما قبله

، مِنَ الْمَيِّتِ مما لا ينمو كالنطف والحب. وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ أي : ومخرج الحب والنّطف من الحي ، ذلِكُمُ اللَّهُ أي : ذلكم المخرج والمحيي المميت هو اللّه المستحق للعبادة دون غيره ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ تصرفون عنه إلى غيره.

فالِقُ الْإِصْباحِ أي : شاقّ عمود النهار عن ظلمة الليل ، وَجَعَلَ «١» اللَّيْلَ سَكَناً أي : يسكن فيه من تعب النهار للاستراحة ، وَجعل الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً أي : على أدوار مختلفة ، يعلم بها حساب

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي – وكذا خلف – : (جعل) فعلا ماضيا. وقرأ باقي السبعة (جاعل) باسم الفاعل مضافا إلى الليل.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٨

الأزمنة والليل والنهار ، أو حسبانا كحسبان الرّحا يدور بهما الفلك دورة بين الليل والنهار ، ذلِكَ التسيير بالحساب المعلوم ، هو تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الذي قهرهما بعزته ، وسيرهما على ذلك السير البديع بعلمه وحكمته.

الإشارة : إذا أحب اللّه عبدا فلق حبة قلبه بعشقه ومحبته ، وفلق نواة عقله بالتبصر فى عجائب قدرته ، فلا يزال قلبه يميل إلى حضرته ، وعقله يتشعشع أنواره بازدياد تفكره فى عجائب عظمته ، حتى تشرق عليها شمس العرفان ، فيفلق عمود فجرها عن ظلمة ليل وجود الإنسان ، فيصير حيا بمعرفته ، بعد أن كان ميتا بجهله وغفلته ، فيميته عن شهود نفسه ، ثم يحييه بشهود ذاته ، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ، جاعل ليل العبودية سكنا ، وشمس العرفان وقمر الإيمان حسبانا ، تدور الفكرة بأنوارهما ، كما يدور الفلك بالشمس والقمر الحسّيين ، ذلك تقدير العزيز العليم.

ثم ذكر برهانا آخر ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٩٧]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها أي : ببعضها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ أي : فى ظلمات الليل فى البر والبحر ، وأضاف الظلمات إليهما لملابستها بهما ، أو فى مشتبهات الطرق فى البر والبحر ، وسماها ظلمات على الاستعارة ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ بيناها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ فإنهم المنتفعون بها.

الإشارة : جعل الحق – جل جلاله – نجوم العلم يهتدى السائرون بها فى مشكلات أمور الشريعة

وأمور الحقيقة ، فلبر الشريعة علم يسير به أهله إلى جنته ورضوانه ، ولبحر الحقيقة علم يسير به أهلها الطالبون لها إلى معرفة ذاته وصفاته ، وشهودها فى حال جلاله وجماله ، ولله در المجذوب رضى اللّه عنه ، حيث قال :

العلم مرايا من هند ، والجهل صندوق راشى من لا قرايش يعرف اللّه ما هو مبنى على شى «١»

ثم ذكر دليلا آخر ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٩٨]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)

---

(١) زجل بلهجة مغربية. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤٩

قلت : من قرأ (مستقر) بفتح القاف ، فمصدر ، أو اسم مكان ومن قرأه بالكسر فاسم فاعل ، وعلى كل – هو مبتدأ ، حذف خبره الجار والمجرور ، أي : لكم مستقر.

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ آدم عليه السّلام فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ أي : فلكم استقرار فى الأصلاب أو فوق الأرض ، واستيداع فى الأرحام أو تحت الأرض ، أو موضع استقرار واستيداع فيهما ، أو : فمنكم مستقّر فى الأصلاب أو فى الأرض ، أي : قارّ فيهما ، ومنكم مستودع فى الأرحام أو تحت الأرض.

وقيل : الاستقرار : فى الأرحام ، والاستيداع : فى الصلب ، بدليل قوله : وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ «١».

قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ أي : يفهمون دقائق أسرار القدرة ، ذكر مع النجوم : يَعْلَمُونَ لأن أمرها ظاهر ، وذكر مع تخليق بنى آدم : يَفْقَهُونَ لأن إنشاءهم من نفس واحدة ، وتصريفهم على أحوال مختلفة ، دقيق يحتاج إلى زيادة تفهم وتدقيق نظر.

الإشارة : بعض الأرواح مستقرها الفناء فى الذات ، ومستودعها الفناء فى الصفات ، وهم العارفون من أهل الإحسان ، وبعضها مستقرها الفناء فى الصفات ، ومستودعها الاستشراف على الفناء فى الذات ، وهم أهل الإيمان بالغيب. وقال الورتجبي : بعض الأرواح مستقرها الصفات ، ومستودعها الذات ، بنعت البقاء فى الصفات ، والفناء فى الذات لأن القدم منزه أن يحل فيه الحدث. هـ.

ثم ذكر برهانا آخر ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٩٩]

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

قلت : الضمير فى (منه) : يعود على النبات ، و(خضرا) : نعت لمحذوف ، أي : شيئا خضرا ، و(قنوان) : مبتدأ ، و(من النخل) : خبر ، و(من طلعها) : بدل ، والطّلع : أول ما يخرج من التمر فى أكمامه ، والقنوان : جمع قنو ، وهو العنقود من التمر ، و(مشتبها) : حال من الزيتون والرمان ، أو من كل ما تقدم من النبات ، و(جنات) : عطف على (نبات كل شى ء). و(ينعه) أي : نضجه وطيبه ، يقال : ينعت الثمرة ، إذا أدركت وطابت.

---

(١) من الآية ٥ من سورة الحج.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٥٠

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ أي : السحاب أو جانب السماء ، ماءً فَأَخْرَجْنا ، فيه الالتفات من الغيبة إلى التكلم ، بِهِ أي : بذلك الماء ، نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ أي : نبات كل صنف من النبات على اختلاف أنواعه ، فالماء واحد والزهر ألوان ، فَأَخْرَجْنا مِنْهُ أي : من النبات ، شيئا خَضِراً وهو ما يتولد من أصل النبات من الفراخ ، نُخْرِجُ مِنْهُ أي : من الخضر ، حَبًّا مُتَراكِباً وهو السنبل لأن حبه بعضه فوق بعض ، وكذلك الرمان والذرة وشبهها ، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ أي : ويخرج من طلع النخل عناقيد متدانية قريبة من المتناول ، أو ملتفة ، قريب بعضها من بعض ، وإنما اقتصر على المتدانى دون العالي لزيادة النعمة والتمكن من النظر فيه ، دون ضده.

وَأخرجنا أيضا بذلك الماء ، جَنَّاتٍ أي : بساتين ، مِنْ أَعْنابٍ مختلفة الألوان والأصناف وَأخرجنا به الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ على اختلاف أصنافها ، مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ أي : من النبات والثمار ما يشبه بعضه بعضا ، فى اللون والطعم والصورة ، ومنه ما لا يشبه بعضه بعضا ، وفى ذلك دليل قاطع على الصانع المختار القدير العليم المريد ، ولذلك أمر بالنظر والاعتبار فقال : انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ أي : انظروا إلى ثمرة كل واحد من ذلك إِذا أَثْمَرَ ، وَانظروا إلى يَنْعِهِ إذا ينع ، أي : طاب ونضج ، والمعنى : انظروا إلى ثمره أول ما يخرج ضعيفا لا منفعة فيه ، ثم ينتقل من طور إلى طور ، حتى يينع ويطيب.

إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ دالة على وجود الحكيم ووحدانيته ، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع

المتفننة ، ونقلها من حال إلى حال ، لا يكون إلا بإحداث قادر ، يعلم تفاصيلها ، ويرجّح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ، ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه ، أو ضد يعانده ، ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك فقال : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ ... إلخ. قاله البيضاوي.

الإشارة : من كحّل عينه بإثمد التوحيد ، غرق الكائنات كلها فى بحر التوحيد والتفريد ، فكل ما يبرز لنا من المظاهر والمطالع ، ففيه نور من جمال الحضرة ساطع ، ولذلك قال ابن الفارض رضى اللّه عنه :

عينى لغير جمالكم لا تنظر وسواكم فى خاطرى لا يخطر

وقال الششترى رضى اللّه عنه :

انظر جمالى شاهدا فى كلّ إنسان

كالماء يجرى نافذا فى أس الأغصان

يسقى بماء واحد والزّهر ألوان

وقال صاحب العينية :

تجلّى حبيبى فى مرائى جماله ففى كلّ مرئى للحبيب طلائع

فلمّا تبدى حسنه متنوّعا تسمّى بأسماء فهن مطالع

فما برز فى عالم الشهادة هو من عالم الغيب على التحقيق ، فرياض الملكوت فائضة من بحر الجبروت ، (كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان) ، ولا يعرف هذا ذوقا إلا أهل العيان ، الذين وحدوا اللّه فى وجوده ، وتخلصوا من الشرك جليه وخفيه ، الذي أشار إليه بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٠٠ الى ١٠٢]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)

قلت : (الجن) : مفعول أول لجعلوا ، و(شركاء) : مفعول ثان ، وقدّم لاستعظام الإشراك ، أو (شركاء) : مفعول أول ، و(للّه) : فى موضع المفعول الثاني ، و(الجن) : بدل من شركاء ، وجملة (خلقهم) : حال ، و(بديع) : خبر عن مضمر ، أو مبتدأ وجملة (أنّى) : خبره ، وهو من إضافة الصفة إلى مفعولها أي : مبدع السموات ، أو إلى فاعلها : أي : بديع سمواته ، من بدع إذا كان على نمط عجيب ، وشكل فائق ، وحسن لائق.

يقول الحق جل جلاله ، توبيخا للمشركين : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ فى عبادته ، وهم الْجِنَّ أي : الملائكة لاجتنانهم أي : استتارهم ، فعبدوهم واعتقدوا أنهم بنات اللّه ، أو الجن حقيقة ، وهم الشياطين لأنهم أطاعوهم كما يطاع اللّه تعالى ، أو : عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم ، فقد أشركوا مع اللّه ، وَالحال أن اللّه قد خَلَقَهُمْ أي : الجن أي : عبدوهم وهم مخلوقون ، أو الضمير للمشركين ، أي : عبدوا الجن ، وقد علموا أن اللّه قد خلقهم دون الجن لعجزه ، وليس من يخلق كمن لا يخلق. وَخَرَقُوا لَهُ أي : اختلفوا وافتروا ، أو زوروا برأيهم الفاسد له بَنِينَ كالنصارى فى المسيح ، واليهود فى عزير ، وَبَناتٍ كقول العرب فى الملائكة : إنهم بنات اللّه – تعالى اللّه عن قولهم – قالوا ذلك بِغَيْرِ عِلْمٍ أي : بلا دليل ولا حجة ، بل مجرد افتراء وكذب ، سُبْحانَهُ وَتَعالى أي : تنزيها له ، وتعاظم قدره عَمَّا يَصِفُونَ من أن له ولدا أو شريكا.

(١٥١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٥٢

وكيف يكون له الولد أو الشريك ، وهو بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ؟. أي : مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ، ولا قانون ينتحيه ، والمعنى : أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوي والسفلى بلا مادة لأنه تعالى منزه عن الأفعال بالمادة. والوالد عنصر الولد ، ومنفصل بانتقال مادته عنه ، فكيف يمكن أن يكون له ولد؟. ولذلك قال :

أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ أي : من أين ، أو كيف يكون له ولد ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ يكون منها الولد ، فإن انتفاء الصاحبة مستلزم لانتفاء الولد ، ضرورة استحالة وجود الولد بلا والدة فى العادة ، وانتفاء الصاحبة مما لا ريب فيه ، وكيف أيضا يكون له ولد وَقد خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدا لخالقه؟ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أي : أحاط بما من شأنه أن يعلم كائنا ما كان ، فلا تخفى عليه خافية مما كان ، ومما سيكون من الذوات والصفات ، ومن جملتها : ما يجوز عليه تعالى وما يستحيل كالولد والشريك.

ذلِكُمُ المنعوت بما ذكر من جلائل الصفات ، هو اللَّهُ المستحق للعبادة خاصة ، رَبُّكُمْ أي : مالك أمركم لا شريك له أصلا ، خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، مما كان وسيكون ، ولا تكرار مع ما قبله لأن المعتبر فيما تقدم خالقيته لما كان فقط ، كما تقتضيه صيغة الماضي ، بخلاف الوصف يصلح للجميع ، وإذا تقرر أنه خالق كل شىء فَاعْبُدُوهُ فإن من كان خالقا لكل شىء ، جامعا لهذه الصفات ، هو المستحق للعبادة وحده ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أي : هو متولى أمور جميع عباده ومخلوقاته ، التي أنتم من جملتها ، فكلوا أمركم إليه ، وتوسلوا بعبادته إلى جميع مآربكم الدنيوية والأخروية ، فإنه يكفيكم أمرها بقدرته

وحفظه.

الإشارة : كل من خضع لمخلوق فى نيل حظ دنيوى ، إنسيا أو جنيا ، أو أطاعه فى معصية الخالق ، فهو مشرك به مع ربه ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً «١» ، فلذلك عمل الصوفية على مجاهدة نفوسهم فى مخالفة الهوى لئلا تميل بهم إلى شيء من السّوى ، وتحرروا من رق الطمع ، وتوجهوا بهمتهم إلى الحق وحده ، ليتبرأوا من أنواع الشرك كلها ، جليها وخفيها. حفظنا اللّه بما حفظهم به. آمين.

ثم عرّف بذاته المقدسة ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠٣]

لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)

يقول الحق جل جلاله : لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ أي : لا تحيط به ، ولا تناله بحقيقته ، وعن ابن عباس : (لا تدركه فى الدنيا ، وهو يرى فى الآخرة) ، ومذهب الأشعرية : أن رؤية اللّه فى الدنيا جائزة عقلا ، لأن موسى عليه السّلام سألها ، ولا يسأل موسى ما هو محال ، وأحالته المعتزلة مطلقا ، وتمسكوا بالآية ، ولا دليل فيها لأنه ليس الإدراك مطلق الرؤية ، ولا النفي فى الآية عامّا فى الأوقات ، فلعله مخصوص ببعض الحالات ، ولا فى الأشخاص فإنه فى قوة قولنا : لا كل بصر يدركه ، مع أن النفي لا يوجب الامتناع. قاله البيضاوي.

---

(١) الآية ١١٦ من سورة النساء

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٥٣

ثم قال تعالى : وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ أي : يحيط علمه بها إذ لا تخفى عليه خافية ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ فيدرك ما لا تدركه الأبصار ، ويجوز أن يكون تعليلا للحكمين السابقين على طريق اللفّ ، أي : لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف ، وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير ، فيكون اللطيف مقابلا للكثيف ، لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها. قاله البيضاوي وأبو السعود.

الإشارة : اعلم أن الحق جل جلاله قد تجلى لعباده فى مظاهر الأكوان ، لكنه لحكمته وقدرته ، قد تجلى بين الضدين ، بين الأنوار والأسرار ، بين الحس والمعنى ، بين مظهر الربوبية وقالب العبودية. فالأنوار ما ظهر من الأوانى ، والأسرار ما خفى من المعاني ، فالحس ما يدرك بحاسة البصر ، والمعنى ما يدرك بالبصيرة. فالحس رداء للمعنى ، فمن فتح اللّه بصيرته استولى نور بصيرته على نور بصره ،

فأدرك المعاني خلف رقة الأوانى ، فلم تحجبه الأوانى عن المعاني ، بل تمتحق فى حقه الأوانى ، ولا يرى حينئذ إلا المعاني. لذلك قال الحلاج ، لما سئل عن المعرفة ، قال : (استهلاك الحس فى المعنى) ، فإذا فنى العبد عن شهود حسّه بشهود معناه ، غاب وجوده فى وجود معبوده ، فشاهد الحقّ بالحق. فالعارفون لمّا فنوا عن أنفسهم ، لا يقع بصرهم إلا على المعاني ، فهم يشاهدون الحق عيانا. ولذلك قال شاعرهم :

مذ عرفت الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوع

وقال فى الحكم : «ما حجبك عن الحقّ وجود موجود معه إذ لا شيء معه ، وإنّما حجبك توهّم موجود معه».

وقوله تعالى : لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ أي : الأبصار الحادثة ، وإنما تدركه الأبصار القديمة فى مقام الفناء. وقال الورتجبي : لا تدركه الأبصار ، إلا بأبصار مستفادة ، من أبصار جلاله ، وكيف يدركه الحدثان؟ ووجود الكون عند ظهور سطوات عظمته عدم. هـ. أو لا تحيط به ، إذ الإحاطة بكنه الربوبية متعذرة. وعلى هذا حمل الآية فى نوادر الأصول ، قال : إدراك الهوية ممتنع ، وإنما يقع التجلي بصفة من صفاته.

وقال ابن عبد الملك فى شرح مشارق الصغاني ، ناقلا عن المشايخ : إنما يتجلى اللّه لأهل الجنة ، ويريهم ذاته تعالى ، فى حجاب صفاته ، لأنهم لا يطيقون أن يروا ذاته بلا حجاب مرتبة من مراتب الصفات. وقال الورتجبي :

التجلي لا يكون بكلية الذات ، ولا بكلية الصفات ، وإنما يكون على قدر الطاقات ، فيستحيل أن يقال : تجلى كل الهوى لذرة واحدة ، وإنما يتجلى لها على قدرها. هـ.

وتتفاوت الناس فى لذّة النظر يوم القيامة على قدر معرفتهم فى الدنيا ، وتدوم لهم النظرة على قدر استغراقهم هنا ، فمن كان هنا محجوبا لا يرى إلا الحس ، كان يوم القيامة كذلك ، إلا فى وقت مخصوص ، يغيبه الحق تعالى

(١٥٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٥٤

عن حسه ، فيشاهد معانى أسرار الربوبية فى مظاهر أنوار صفاته. ومن كان هنا مفتوحا عليه فى شهود المعاني ، كان يوم القيامة كذلك ، لا تغيب عنه مشاهدة الحق ساعة.

قال الغزالي فى كتاب الأربعين : إذا ارتفع الحجاب بعد الموت انقلبت المعرفة بعينها مشاهدة. قلت : ومعنى كلامه : أن ما عرفه به هنا من التجليات ، صار بعينه هناك مشاهدة لأن المعنى هناك غالب على

الحس ، بخلاف دار الدنيا ، الحس فيها غالب ، إلّا لمن غاب عنه واستهلكه. ثم قال : ويكون لكل واحد على قدر معرفته ، ولذلك تزيد لذة أولياء اللّه تعالى فى النظر على لذة غيرهم ، ولذلك يتجلى اللّه تعالى لأبى بكر خاصة ، ويتجلى للناس عامة.

وقال فى الإحياء : ولمّا كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي على درجات متفاوتة ، ثم ذكر حديث التجلي لأبى بكر المتقدم. ثم قال : فلا ينبغى أن يظن أن غير أبى بكر ، ممن هو دونه ، يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر ، بل لا يجده ، إلا عشر عشره ، إن كانت معرفته فى الدنيا عشر عشره ، ولما فضل الناس بسر وقر فى صدره ، فضل لا محالة بتجلّ انفرد به.

وقال أيضا : يتجلى الحق للعبد ، تجليا يكون الكشاف تجلّيه ، بالإضافة إلى ما علمه ، كانكشاف تجلى المرئيات بالإضافة إلى ما تخيله – أي : إلى ما وصفه له الواصف. ثم قال : وهذه المشاهدة والتجلي هى التي تسمى رؤية ، ثم قال : المعرفة الحاصلة فى الدنيا هى التي تستكمل ، فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة فى الآخرة والمعلوم فى الدنيا اختلاف ، إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح. وقال أيضا : وبحر المعرفة لا ساحل له ، والإحاطة بكنه جلاله محال ، وكلما كثرت المعرفة وقويت كثر النعيم فى الآخرة ، وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن ، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا فى الدنيا ، ولا يزرع إلا فى صعيد القلب ، ولا حصاد إلا فى الآخرة. هـ.

قال شيخنا مولاى العربي رضى اللّه عنه : بل الرجال زرعوا اليوم وحصدوا اليوم. وفى تفسير الأقليشى لقوله : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ «١» : ليس لهذه الهداية – مادام العبد فى الدنيا – نهاية ، حتى إذا حصل فى جوار الجبار ، ونظر إلى وجهه العظيم ، كان حظه من النعيم بقدر ما هداه فى الدنيا لصراطه المستقيم. هـ. وقال فى نوادر الأصول : فى الحديث : «إنّ من أهل الجنّة من ينظر إلى اللّه عزّ وجلّ غدوة وعشيّا». وروى عن معاذ أنه قال : «صنف من أهل الجنّة من ينظر إلى اللّه عزّ وجلّ ، لا يستر الربّ عنهم ولا يحتجب» ثم قال : وذكر أن الرضوان آخر ما ينال أهل الجنة ، ولا شيء أكبر منه ، وكل عبد من أهل الجنة حظه من الرضوان هناك فيها على قدر جوده بنفسه على اللّه فى الدنيا. هـ.

---

(١) الآية ٦ من سورة الفاتحة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٥٥

وقوله تعالى : وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ، قال الورتجبي : هو بلطف ذاته ممتنع عن مطالعة خلقه ، مع علو

شأن علمه وإحاطته بجميعهم ، وجودا وعدما ، أي : وإنما يرى بنوره ، لا بالحواس الخفاشية ، فإنها تضعف عن مقاومة شعاعه ، وتنخنس عند انكشاف سبحانه. هـ. على نقل الحاشية الفاسية. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان الاطلاع على هذه الأسرار ، به تنفتح البصائر ، أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠٤]

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤)

قلت : البصائر : جمع بصيرة ، وهى عين القلب ، كما أن البصر عين البدن ، فالبصيرة ترى المعاني القديمة ، والبصر يرى الحسيات الحادثة.

يقول الحق جل جلاله : قَدْ جاءَكُمْ أيها الناس بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ أي : براهين توحيده ، ودلائل معرفته ، حاصلة من ربكم ، تنفتح بها البصائر ، وتبصر بها أنوار قدسه ، فَمَنْ أَبْصَرَ الحق ، وآمن به ، واستعمل الفكر فيه حتى عرفه ، فَلِنَفْسِهِ أبصر ، ولها نفع ، وَمَنْ عَمِيَ عنها ، ولم يرفع بها رأسا ، وضل عن الحق ، فَعَلَيْها وباله وضرره ، ولا يتضرر بها غيره ، وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ أرقب أعمالكم وأجازيكم ، وإنما أنا منذر ، واللّه هو الحفيظ عليكم ، يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

الإشارة : البصيرة كالبصر ، أدنى شيء يقع فيها يضرّ بناظرها ، وهى على أقسام : منها ما تكون عمياء ، والعياذ بالله ، وهى التي فسد ناظرها بفساد الاعتقاد ، كبصيرة الكفار ومن قاربهم ، ومنها ما تكون مريضة فقط ، لا تقاوم شعاع شمس التوحيد الخاص ، وهى بصيرة أهل الغفلة ، ومنها ما يخف مرضها فيكون لها شعاع ، تدرك قرب نور الحق منها وهى بصيرة المتوجهين من العباد والزهاد ونهاية الصالحين.

ومنها ما تكون قريبة البرء والصحة ، قد انفتحت ، لكنها حيرى لما فاجأها من النور ، وهى بصيرة المريدين السائرين من أهل الفناء ، ومنها ما تكون صحيحة قوية ، قد تمكنت من شهود الأنوار ، ورسخت فى بحر الأسرار ، وهى بصيرة العارفين المتمكنين فى مقام البقاء ، وقد أشار فى الحكم إلى الثلاثة فقال : «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق لاعدمك ولا وجودك ، كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان».

وذكر هذه الآيات ، سبب لضلال أهل الشقاء وهداية أهل العناية ، كما بيّن ذلك بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠٥]

وَكَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٥٦

قلت : تصريف الشيء : إجراؤه على أحوال متعاقبة وجهات مختلفة ، ومنه : تصريف الرياح لهبوبها من جهات مختلفة ، ولما كانت آيات القرآن تنزل على أنواع مختلفة فى أوقات متعاقبة ، شبهت ، بتصريف الرياح على أنحاء مختلفة ، (و ليقولوا) : متعلق بمحذوف ، أي : وليقولوا : درست ، صرفنا الآيات ، واللام للعاقبة ، وكذلك : (و لنبينه) :

المتعلق واحد.

يقول الحق جل جلاله : ومثل ذلك التصريف الذي صرفنا من الآيات ، من قوله : إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى «١» إلى قوله : قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ «٢» – نُصَرِّفُ الْآياتِ فى المستقبل لتكون عاقبة قوم الشقاء بها بتكذيبهم إياها ، وَلِيَقُولُوا لك : دارست «٣» أهل الكتاب ، وتعلمت ذلك منهم ، وليس بوحي ، أو دَرَسْتَ هذه الأخبار وعفت ، وأخبرت بها من إملاء غيرك عليك ، كقولهم : أساطير الأولين ، وليكون عاقبة قوم آخرين الاهتداء ، وإليهم الإشارة بقوله : وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أي : وليتضح معناه عند قوم آخرين ، فيهتدوا به إلى معرفتى وتوحيدى ومحل رضوانى وكرامتى ، فالخطاب متحد ، والأثر مختلف على حسب السابقة.

الإشارة : ظهور الآيات على يد أهل الخصوصية – كالعلوم اللدنية والمواهب الربانية – لا يوجب لهم التصديق لجميع الخلق ، فلو أمكن ذلك لكان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أولى به ، بل لا بد من الاختلاف ، فقوم قالوا : هذه العلوم ... دارس فيها وتعلمها ، وقوم قالوا : بل هى من عند اللّه لا كسب فيها ، قال تعالى : وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ «٤».

ثم أمر نبيه بالإعراض عن أهل الإنكار ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧)

يقول الحق جل جلاله : اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ بالدوام على التمسك به ، والاهتداء بهديه ، ودم على توحيده ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فلا تصغ إلى من يعبد معه غيره ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، فلا تحتفل بأقوالهم ، ولا تلتفت إلى رأيهم ، وهذا محكم ، أو : أعرض عن عقابهم وقتالهم ، وهو منسوخ بآية السيف ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا : لكن سبقت مشيئته بإشراكهم ، ولو أراد إيمانهم لآمنوا ، وهو حجة على المعتزلة ، وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً : رقيبا ، وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ تقوم بأمرهم ، وتلجئهم إلى الإيمان إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ «٥».

---

(١) الآية ٩٥ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ١٠٤ من السورة نفسها.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (دارست) بألف ، وقرأ ابن عامر ويعقوب (درست) أي : قدمت وبليت ، وقرأ الباقون (درست) أي : حفظت وقرأت .. انظر : إتحاف فضلاء البشر.

(٤) الآية ١١٨ من سورة هود.

(٥) الآية ٢٣ من سورة فاطر.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٥٧

الإشارة : الإعراض عن الخلق والاكتفاء بالملك الحق ركن من أركان الطريق ، قال الشيخ زروق رضى اللّه عنه : أصول الطريقة خمسة أشياء : تقوى اللّه فى السر والعلانية ، واتباع الرسول فى الأقوال والأفعال ، والإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار ، والرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء ، والرضا عن اللّه فى القليل والكثير. هـ.

ثم نهى عن التعرض لأصنامهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠٨]

وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَسُبُّوا أصنامهم الَّذِينَ يدعونها آلهة ، ويخضعون لها مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : ولا تذكروا آلهتهم بسوء ، فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً أي : ظلما وتجاوزا عن الحق إلى الباطل ، بِغَيْرِ عِلْمٍ أي : على جهالة بالله تعالى ، وبما يجب أن يذكر به من التعظيم ، روى أنه صلّى اللّه عليه وسلّم كان يطعن فى آلهتهم ، فقالوا : لتنتهين عن آلهتنا أو لنهجون إلهك ، فنزلت. وقيل : كان المسلمون يسبون آلهتهم ، فنهوا لئلا يكون سبهم سببا لسب اللّه تعالى ، واستدل المالكية بهذا على سد الذرائع. قال البيضاوي : وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت لمعصية راجحة وجب تركها ، فإنّ ما يؤدى إلى الشر شر. هـ. وقال ابن العربي : وقاية العرض بترك سنة واجب فى الدنيا. هـ.

قال تعالى : كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ من الخير والشر ، نحملهم على ما سبق لهم توفيقا أو تخذيلا ، أو يكون مخصوصا بالشر ، أي : زيّنا لكل أمة من الكفرة عملهم السوء كسب اللّه تعالى وغيره من الكفر ، ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ من الخير فيجازيهم عليه ، أو من الشر فيعاقبهم عليه.

الإشارة : العارف الكامل لا ينقص شيئا من مصنوعات اللّه ، ولا يصغر شيئا من مقدورات اللّه ، بل يتأدب مع كل شيء لرؤية صنعة اللّه فى كل شيء ، وكذلك المريد اللبيب ، يتأدب مع كل من ظهر

بالخصوصية فى زمنه ، كان صادقا أو كاذبا لئلا يؤدى إلى تنقيص شيخه ، حين يذكر غيره بنقص أو غض. وفى الحديث : «لعن اللّه من يسبّ والديه ، فقالوا :

وكيف يسبّ والديه يا رسول اللّه؟ قال : يسبّ أبا الرجل فيسب الرجل أباه وأمه» «١» أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم.

ثم ردّ عليهم فى اقتراح الآيات ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٠٩ الى ١١٠]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

---

(١) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب : لا يسب الرجل والديه) ومسلم فى (الإيمان ، باب : بيان الكبائر) عن عبد اللّه بن عمرو.

ولفظ البخاري : «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قيل : يا رسول اللّه وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه».

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٥٨

قلت : (جهد) : مصدر لعامل محذوف ، أي : واجتهدوا جهد أيمانهم ، وهو حال ، أي : وأقسموا جاهدين أيمانهم ، ومن قرأ : (أنها) بالفتح ، فهو مفعول بيشعركم ، أي : وما يدريكم أن الآيات إذا جاءت لا يؤمنون ، وقيل : (لا) :

مزيدة ، أي : وما يدريكم أنهم لا يؤمنون إذا رأوها ، وقيل : أن ، هنا ، بمعنى لعل. ومن قرأ بالكسر فهو استئناف ، وتم الكلام فى قوله : (و ما يشعركم) أي : وما يشعركم ما يكون منهم ، فعلى القراءة بالكسر ، يوقف على : (ما يشعركم) ، وأما على القراءة بالفتح ، فإن كانت أنّ – مصدرية لم يوقف عليه لأنه عامل فيها ، وإن كانت بمعنى : لعل ، فأجاز بعض الناس الوقف ، ومنعه بعضهم.

يقول الحق جل جلاله : وَأَقْسَمُوا أي : المشركون ، بِاللَّهِ واجتهدوا فى أيمانهم ، لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ ظاهرة يشاهدونها ، لَيُؤْمِنُنَّ بِها وبمن جاء بها ، قُلْ لهم : إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وفى قدرته وإرادته ، يظهرها حيث شاء ، وليس فى قدرتى منها شيء ، وَما يُشْعِرُكُمْ أي : وما يدريكم أيها المؤمنون ، أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ بها ، لما سبق لهم من الشقاء ، وقد كان المؤمنون يتمنّون إنزالها طمعا فى إيمانهم ، وفيه

تنبيه على أنه تعالى إنما لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ بها. وقيل : الخطاب للمشركين ، ويتأتى هذا على كسر «إن» ، أو على قراءة ابن عامر وحمزة : لا تؤمنون بتاء الخطاب ، وقرىء : وما يشعرهم بالغيبة ، فيكون إنكارا لهم على حلفهم.

ثم ذكر سبب عدم إيمانهم فقال : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ عند نزول الآية ، أي : نصرف قلوبهم ونحولها عن الحق ، فلا يفقهون بها ، ونقلب أبصارهم عن النظر والتفكر ، فلا يبصرون بها الحق ، فيصرفون عن الإيمان بما أنزل إليك كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أي : بما أنزل من الآيات ، أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ أي :

فى كفرهم وجحدهم يَعْمَهُونَ أي : يتحيرون ، فلا نهديهم هداية المؤمنين.

الإشارة : سألنى بعض العوام ، فقال لى : ليس لكم ولا لأصحابكم كرامات تظهر فيمن آذاكم ، فقد كان أصحاب سيدى فلان وفلان يظهرون الكرامات ، وينفذون فى من آذاهم؟! فقلت له : نحن على قدم نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم ، أرسله اللّه رحمة للعالمين ، فقد أوذى وضرب ، فلما خيّره ملك الجبال فى أن يطبق عليهم الأخشبين – أي الجبلين – قال : «لا ، لعل اللّه تعالى يخرج منهم من يعبد اللّه» ، وقال حين أكثروا إيذاءه : «اللهمّ اغفر لقومى فإنّهم لا يعلمون» ، فالأولياء المحققون : رحمة للعباد ، يتحملون أذاهم ، ويتوجهون لمن آذاهم فى الدعاء له بالهداية والتوفيق ، فهم قوم لا يشقى جليسهم ، جالسهم بالإنكار أو بالإقرار ، وقد ظهرت الكرامات على بعض الأولياء ولم ينقطع عنهم الإنكار ، فإنّ الإيمان أو التصديق بالنبي أو الولي إنما هو محض هداية من الكبير العلى ، كما بيّن ذلك بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١١١]

وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٥٩

قلت : (قبلا) : بكسر القاف معاينة ، وبضمتين : جمع [قبيل] «١» ، أي : ضمناء ، وهو حال.

يقول الحق جل جلاله ، فى الرد على المشركين ، حين أقسموا : لئن رأوا آية ليؤمنن بها ، فقال تعالى : وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ تشهد لك بالنبوة كما اقترحوا ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى كما طلبوا بقولهم : فَأْتُوا بِآبائِنا «٢» ، وقالوا : إنّ قصيّا كان شيخ صدق ، فابعثه لنا يكلمنا ويشهد لك بما تدعى.

وَلو حَشَرْنا عَلَيْهِمْ أي : جمعنا عليهم ، كُلَّ شَيْءٍ من الحيوانات والجمادات ، معاينة ، أو ضمناء ،

تشهد لك بالرسالة والنبوة ، ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بك فى حال من الأحوال ، إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إيمانهم فيمن لم يسبق له الشقاء ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا ، فكيف يقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يعلمون؟! ، فالجهل بهذا المعنى حاصل لأكثرهم ، ومطلق الجهل حاصل لجميعهم ، أو : ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون ، فيتمنون نزول الآية طمعا فى إيمانهم. قاله البيضاوي.

الإشارة : فى الآية تسكين لقلوب الأولياء الداعين إلى اللّه ، حين يرون الخلق قد حادوا عن باب اللّه ، وتعلقت هممهم بالدنيا الدنية ، وتشتتت قلوبهم ، وضاعت عليهم أعمارهم ، فيتأسفون عليها ، فإذا تفكروا فى هذه الآية وأمثالها سكنوا وردوا أمر عباد اللّه إلى مشيئته وإرادته ، فلو شاء اللّه لهدى الناس جميعا ، ولا يزالون مختلفين :

(ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء اللّه). وبالله التوفيق.

ومما تعلقت به المشيئة ، وجرت به الحكمة ، أنه لا بد أن يبقى للنبى من يحرّكه إلى ربه ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١١٢ الى ١١٣]

وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)

قلت : (شياطين) : بدل من (عدو) إذ هو بمعنى الجمع ، أو مفعول أول لجعلنا ، و(عدوا) : مفعول ثان ، والضمير فى (فعلوه) : للوحى ، أو للعداوة ، و(غرورا) : مفعول له ، أو مصدر فى موضع الحال (لتصغى) : عطف على غرورا ، أو متعلق بمحذوف ، أي : فعلنا ذلك لتصغى ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله ، فى تسلية نبيه – عليه الصلاة والسلام – : وكما جعلنا لك أعداء من الكفار ، جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا من شياطين الْإِنْسِ وَالْجِنِّ أي : من مردة الفريقين ، وشياطين الإنس أقبح لأنه يأتى فى

---

(١) فى الأصول : قبل.

(٢) كما جاء فى الآية ٣٦ من سورة الدخان

صورة ناصح ، لا يدفع بتعوذ ولا غيره. يُوحِي أي : يوسوس ، بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ ، فيوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس ، ثم يوسوس شياطين الإنس إلى من يريد الحق اختباره وابتلاءه ، يلقى إليه ذلك الشيطان زُخْرُفَ الْقَوْلِ أي : أباطيله ، أي : قولا مزخرفا مزوّقا غُرُوراً أي : لأجل الغرور ، فإن أراد اللّه خذلان ذلك العبد غره ذلك الشيطان بزخرف ذلك القول فيتبعه ، وإن أراد توفيقه وزيادته أيده وعصمه ، وكل شيء بقدره وقضائه ، وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ هدايتهم ما فعلوا ذلك الوحى ، أو ما ذكر من المعاداة للأنبياء ، فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ على اللّه من الكفر وغيره ، فلا تهتم بشأنهم.

وإنما فعلنا ذلك الإيحاء لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فيغتروا به ، وَلِيَرْضَوْهُ لأنفسهم ، وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ أي : وليكتسبوا من الإثم والكفر ما هم مكتسبون بسبب ذلك الوحى من الجن أو الإنس ، وفى الآية دليل لأهل السنة فى أن اللّه خالق الكفر والإيمان ، والطاعة والمعصية ، فالمعصية خلقها وقدرها ، ولم يرضها ، لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ «١».

الإشارة : كما جعل اللّه لكل نبى عدوّا من شياطين الإنس والجن جعل للأولياء كذلك تحويشا لهم إليه ، وتطهيرا لهم من البقايا ليصلحوا لحضرته ، قال فى الحكم : «إنما أجرى الأذى عليهم كى لا تكون ساكنا إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شى ء». وقال فى لطائف المدن : اعلم أن أولياء اللّه حكمهم فى بدايتهم أن يسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا ، وتكمل فيهم المزايا ، كى لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد ، أو يميلوا إليهم باستناد ، ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه ، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه ، ولذلك قال صلّى اللّه عليه وسلّم :

«من أسدى إليكم نعما فكافئوه ، فإن لم تقدروا فادعوا له». كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق ، ويتعلق بالملك الحق. هـ.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى اللّه عنه : آذاني إنسان فضقت به ذرعا ، فرأيت يقال لى : من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يبالى بهم. وقال بعضهم : الصيحة من العدو ، سوط من اللّه يزجر بها القلوب إذا ساكنت غيره ، وإلا رقد القلب فى ظل العز والجاه ، وهو حجاب عن اللّه تعالى عظيم. هـ.

وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضى اللّه عنه : (عداوة العدو حقا : اشتغالك بمحبة الحبيب حقّا ، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو نال مراده منك ، وفاتتك محبة الحبيب). وقال بعض أشياخ الشعراني فى بعض وصاياه له : لا تشتغل قط بمن يؤذيك ، واشتغل باللّه يرده عنك فإنه هو الذي حركه عليك ليختبر دعواك فى الصدق ، وقد غلط فى هذا الأمر خلق كثير ، فاشتغلوا بأذى من آذاهم ، فدام الأذى مع الإثم ، ولو أنهم رجعوا إلى اللّه لردهم عنهم وكفاهم أمرهم. هـ.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٦١

وهذا كله إنما يكون فى البدايات ، كما قال الشاذلى رضى اللّه عنه : (اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا) .. فإذا تمت أنوارهم وتطهرت من البقايا أسرارهم ، حكّمهم فى العباد ، وأذلهم لهم ، فيكون العبد المجتبى سيفا من سيوف اللّه ، ينتصر اللّه به لنفسه كما نبه على ذلك فى لطائف المنن. وذلك من أسرار عدم مشروعية الجهاد من أول الإسلام تشريعا لما ذكرنا ، وتحذيرا من الانتصار للنفس ، وعدم تمحض النصرة للحق. وعند الرسوخ فى اليقين ، والأمن من مزاحمة الصدق غيره ، وقع الإذن فى الجهاد ، هذا بالنسبة إلى الصحابة الكرام ، وأما النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فكامل من أول نشأته ، وإنما ذلك تشريع لغيره ، وترفيع لرتبته. واللّه تعالى أعلم.

ولما طلبوا من يحكم بينهم وبينه صلّى اللّه عليه وسلّم ، أنزل اللّه :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١١٤ الى ١١٥]

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)

قلت : (غير) : مفعول ، و(حكما) : حال ، وهو أبلغ من حاكم ، ولذلك لا يوصف به غير العادل ، و(صدقا وعدلا) : تمييز ، أو حال ، أو مفعول له.

يقول الحق جل جلاله : قل يا محمد : أَفَغَيْرَ اللَّهِ أطلب حَكَماً يحكم بينى وبينكم ، ويفصل المحق منّا من المبطل ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ أي : القرآن المعجز ، مُفَصَّلًا مبينا ، قد بيّن فيه الحق من الباطل ، بحيث انتفى به الالتباس ، فهو الحاكم بينى وبينكم ، فلا أطلب حاكما غيره ، وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه مغن عن سائر الآيات. وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ كأحبار اليهود ، يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لتصديقه ما عندهم ، وموافقته له فى كثير من الأخبار ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فى أنهم يعلمون ذلك ، أو فى أنه منزل من ربك ، والمراد غيره – عليه الصلاة والسلام – ممن يطرقه ارتياب ، والمعنى : أن الأدلة تعاضدت على صحته ، فلا ينبغى لأحد أن يمترى فيه.

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ آيات القرآن ، بلغت الغاية فى التمام والكمال ، صِدْقاً وَعَدْلًا أي : من جهة الصدق والعدل ، صدقا فى الأخبار والمواعيد ، وعدلا فى الأقضية والأحكام ، فلا أصدق منها فيما أخبرت ، ولا أعدل منها فيما حكمت ، لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ أي : لا أحد يقدر أن يبدل منها شيئا بما هو أصدق وأعدل ، ولا أن يحرف شيئا منها ، كما فعل بالتوراة ، فهو ضمان من الحق لحفظ القرآن ، كما قال : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «١»

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٦٢

أو : لا نبى ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها ، وَهُوَ السَّمِيعُ لكل ما يقال ، الْعَلِيمُ بكل ما يضمر ، فمن ألحد أو بدل فالله عليم به.

الإشارة : من قواعد أهل التصوف : الرجوع إلى اللّه فى كل شىء ، والاعتماد عليه فى كل نازل ، والتحاكم إلى اللّه فى كل أمر ، إن توقفوا فى حكم رجعوا إلى كتاب اللّه ، فإن لم يجدوه نصا ، رجعوا إلى سنة رسول اللّه ، فإن لم يجدوه ، استفتوا قلوبهم ، وفى الحديث عنه : «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك». وفى بعض الآثار قالوا :

يا رسول اللّه أرأيت إن اختلفنا بعدك ، ولم نجد نصّا فى كتاب اللّه ولا فى سنة رسول اللّه؟ قال : «ردوه إلى صلحائكم ، واجعلوه شورى بينهم ولا تتعدّوا رأيهم». أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم نهى عن الركون إلى الجهال ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١١٦ الى ١١٧]

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)

قلت : (من يضل) : موصولة ، أو موصوفة فى محل نصب بفعل دل عليه «أعلم» ، أي : يعلم من يضل ، فإن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به إجماعا. أو مبتدأ ، والخبر : «يضل» على أن (من) استفهامية ، والجملة : معلق عنها الفعل المقدر ، كقوله تعالى : لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى «١».

يقول الحق جل جلاله لرسوله – عليه الصلاة والسلام – ولمن كان على قدمه : وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ من الكفار أو الجهال أو من اتبع هواه يُضِلُّوكَ عَنْ طريق اللَّهِ ، الموصلة إلى معرفته ، وحلول رضوانه ، فإن الضال لا يأمر إلا بما هو فيه ، مقالا أو حالا. والمراد بهم : من لا يقين عندهم ، بل إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وهو ما استحسنته عقولهم ، إما تقليدا ، كظنهم أن آباءهم كانوا على الحق ، أو ما ابتدعوه برأيهم الفاسد من العقائد الزائفة والآراء الفاسدة ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أي : يكذبون على اللّه فيما ينسبون إليه كاتخاذ الولد ، وجعل عبادة الأوثان وصلة إلى اللّه ، وتحليل الميتة وتحريم البحائر ، أو يقدّرون فى عقولهم أنهم على شىء ، وكل ذلك عن تخمين وظن لا يقين فيه ، ثم قال لنبيه : إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ أي : هو عالم بالفريقين ، لا يخفى عليه أهل

الحق من أهل الباطل.

الإشارة : مخالطة العموم والركون إليهم والمعاملة معهم سموم قاتلة ، قال بعض الصوفية : قلت لبعض الأبدال :

كيف الطريق إلى التحقيق والوصول إلى الحق؟ قال : لا تنظر إلى الخلق ، فإن النظر إليهم ظلمة ، قلت : لا بد لى ،

---

(١) من الآية ١٢ من سورة الكهف. [.....]

قال : لا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة ، قلت : لا بد لى ، قال : فلا تعاملهم ، فإنّ معاملتهم خسران وحسرة ووحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم ، لا بد لى من معاملتهم ، قال : لا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة ، قلت : هذا لعله يكون ، قال : يا هذا ، تنظر إلى اللاعبين ، وتسمع إلى كلام الجاهلين ، وتعامل البطّالين ، وتسكن إلى الهلكى ، وتريد أن تجد حلاوة المعاملة فى قلبك مع اللّه عز وجل!! هيهات ، هذا لا يكون أبدا. هـ.

وفى الخبر المروي عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «أخوف ما أخاف على أمتى ضعف اليقين» «١». وإنما يكون برؤية أهل الغفلة ومخالطة أرباب البطالة والقسوة ، وتربية اليقين وصحته إنما تكتسب بصحبة أهل اليقين واستماع كلامهم ، والتودد إليهم وخدمتهم. وفى بعض الأخبار : (تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين) ، وفى رواية : «فإنّى أتعلّمه» ، والحاصل : أن الخير كله فى صحبة العارفين الراسخين فى عين اليقين. أو حق اليقين ، وما عداهم يجب اعتزالهم ، كيفما كانوا ، إلا بقصد الوعظ والتذكير ، ثم يغيب عنهم ، وإلى هذا أشار ابن الفارض رضى اللّه عنه بقوله :

تمسّك بأذيال الهوى واخلع الحيا وخلّ سبيل النّاسكين وإن جلّوا

وباللّه التوفيق.

وأصل تنوير القلب باليقين والمعرفة : هو أكل الحلال وتجنب الحرام ، كما بيّنة الحق تعالى بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١١٨ الى ١٢١]

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَما لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ

(١٢٠) وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)

يقول الحق جل جلاله : فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ عند ذبحه ، ولا تتورعوا منه ، إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ ، فإن الإيمان يقتضى استباحة ما أحل اللّه تعالى ، واجتناب ما حرمه ، وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أي : ما يمنعكم منه ، وأىّ غرض لكم فى التحرّج عن أكله؟. وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ فى الكتاب ،

---

(١) ذكره بنحوه السيوطي فى الجامع الصغير ، وعزاه للطبرانى فى الصغير والبيهقي فى الشعب ، من حديث أبى هريرة ، وحسنّه.

أو فصّل الله لكم ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ مما لم يحرم بقوله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ... الآية «١» إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ مما حرم عليكم فإنه حلال حال الضرورة.

وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بتحليل الحرام وتحريم الحلال بِأَهْوائِهِمْ أي : بمجرد أهوائهم بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا دليل ، بل بتشهى أنفسهم ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ المجاوزين الحق إلى الباطل ، والحلال إلى الحرام ، وَذَرُوا أي : اتركوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ أي : سره وعلانيته ، أو ما يتعلق بالجوارح والقلب ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سرا أو علانية ، سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ يكتسبون.

ولما أمرهم بأكل الحلال نهاهم عن الحرام ، فقال : وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، بأن ترك التسمية عليه عمدا لا سهوا كما هو مذهب مالك وأبى حنيفة «٢». وقال الشافعي : تؤكل مطلقا ، لقوله – عليه الصلاة والسلام – :

«ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم اللّه عليه» «٣» ، وقال أحمد وداود : لا تؤكل إن تركت مطلقا ، عمدا أو سهوا.

وقال ابن جزى : إنما جاء الكلام فى سياق تحريم الميتة وغيرها مما ذبح للنصب ، فإن حملناه على ذلك لم يكن فيه دليل على وجوب التسمية فى ذبائح المسلمين ، وإن حملناه على عمومه كان فيه دليل على ذلك. وقال عطاء : هذه الآية أمر بذكر اللّه على الذبح والأكل والشرب. هـ.

وَإِنَّهُ أي : الأكل مما لم يذكر اسم اللّه عليه لَفِسْقٌ أو : وإنه – أي : عدم ذكر اسم اللّه على الذبيحة ، لفسق ومن تزيين الشياطين ، إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ ليوسوسون إِلى أَوْلِيائِهِمْ من الكفار لِيُجادِلُوكُمْ بقولهم

: إنكم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله اللّه. وهذا يؤيد أن المراد بما لم يذكر اسم اللّه عليه هو الميتة ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ فى استحلال ما حرمت عليكم ، إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ مثلهم ، لأن من أحل ما حرم اللّه فقد كفر ، والجواب عن شبهتهم : أن الذكاة تطهير لخبث الميتة ، مع ضرب من التعبد.

الإشارة : ليس المراد من التسمية على الطعام أو غيره مجرد اللفظ ، وإنما المراد حضور المسمى ، وهو شهود المنعم فى تلك النعمة لأن الوقت الذي يغلب فيه حظ النفس ، ينبغى للذاكر المتيقظ أن يغلب فيه جانب الحق ،

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة.

(٢) فرّق أبو حنيفة بين العامد والناسي.

(٣) أخرجه أبو داود فى مراسيله (باب فى الضحايا والذبائح) من حديث الصلت السدوسي. وهذا المرسل يعضده ما رواه الدارقطني فى السنن : (الصيد والذبائح) عن ابن عباس قال : (إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم اللّه فليأكل ، فإن المسلم فيه اسم من أسماء اللّه).

ويؤيد ما ذهب إليه أيضا ما أخرجه البخاري فى : (الصيد والذبائح ، باب ذبيحة الأعراب) عن عائشة : أن ناسا قالوا : يا رسول اللّه ، إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم اللّه عليه أم لا؟ قال : وسموا أنتم وكلوا». قالت : وكانوا حديثى عهد بالكفر. راجع تفسير :

القرطبي وابن كثير ..

فيكون تناوله لتلك النعمة باللّه من اللّه إلى اللّه ، وهذا هو المقصود من الأمر بذكر اسم اللّه ، لأن الاسم عين المسمى فى التحقيق ، فإن كان الأكل أو غيره مما شرعت التسمية فى أوله ، على هذا التيقظ ، فهو طائع للّه وعابد له فى أكله وشربه ، وسائر أحواله ، وإن كان غافلا عن هذا ، فأكله فسق ، قال تعالى : وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ، سبب ذلك : غلبة الغفلة. والغفلة من وحي الشيطان ، وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ.

أو : ولا تنظروا إلى الأشياء بعين الفرق والغفلة ، بل اذكروا اسم اللّه عليها وكلوها بفكرتكم وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عليه من الأشياء فإنه غفلة وفسق فى الشهود ، وقوله تعالى : وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ هو ما ظهر على الجوارح من الذنوب ، وقوله : وَباطِنَهُ هو ما كمن فى السرائر من العيوب. واللّه تعالى أعلم.

ثم حذر من الشرك والكفر ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٢٢]

أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)

قلت : (كمن) : موصولة ، و(مثله) : مبتدأ ، و(فى الظلمات) : خبره ، وقيل : مثل – هنا – زائدة ، أي : كمن هو فى الظلمات ، و(ليس بخارج) : حال من الضمير فى الخبر.

يقول الحق جل جلاله : أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً «١» بالكفر والجهل فَأَحْيَيْناهُ بالإيمان والعلم ، وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً فى قلبه أي : نور الإيمان والعلم ، يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، فيذكرهم بالله ، ويدلهم على اللّه ، كَمَنْ مَثَلُهُ غريق فِي الظُّلُماتِ فى ظلمة الكفر والجهل والتقليد والذنوب ، لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها أي : لا يفارق ضلالته بحال. كَذلِكَ أي : كما زين الإيمان لهؤلاء زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.

قال البيضاوي : مثل به من هداه اللّه تعالى وأنقذه من الضلال ، وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها فى الأشياء ، فيميز بين الحق والباطل ، والمحق والمبطل ، ثم قال : والآية نزلت فى حمزة وأبى جهل ، وقيل : فى عمّار وعمر وأبى جهل. هـ. ولفظها أعم ، وفى الآية من أنواع البيان : الطباق فى قوله : مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ.

الإشارة : الروح تكون أولا على الفطرة التي فطرها اللّه عليها ، من العلم والإقرار بالربوبية ، فإذا بلغت قد تطرأ عليها موتات ، ثم تحيا من كل واحدة على حسب المشيئة ، فقد تموت بالكفر ، ثم تحيا بالإيمان ، وقد تموت بالذنوب والجرائم ، ثم تحيا بالتوبة ، وقد تموت بالحظوظ والشهوات ، ثم تحيا بالزهد والورع والرياضة ، وقد تموت بالغفلة والبطالة ثم تحيا باليقظة والإنابة ، وقد تموت برؤية الحس وسجن الأكوان والهيكل ، ثم تحيا برؤية المعاني وخروج الفكرة إلى فضاء الشهود والعيان ، ثم لا موت بعد هذا إلى أبد الأبد. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) قرأ نافع : «ميتا» بالتشديد ، وقرأ الآخرون : «ميتا» بالتخفيف.

وسبب هذه الموتات : صحبة الغافلين الموتى ، وطاعتهم حتى يمكروا بصاحبهم ، كما قال تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٢٣]

وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِميها لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ (١٢٣)

قلت : (جعلنا) بمعنى صيّرنا ، يتعدى إلى مفعولين ، و(مجرميها) : مفعول أول ، مؤخر ، و(أكابر) : مفعول ثان ، وفيه ضعف من جهة الصناعة لأن أكابر جمع أكبر ، وهو من أفعل التفضيل ، فلا يستعمل إلا بالإضافة ، أو مقرونا بمن. قاله ابن جزى. قلت : ويجاب بأنه لم يقصد به المفاضلة ، وإنما المراد مطلق الوصف ، أي : جعلناهم كبراء ، فلا يلزم إفراده ولا اقترانه بمن. فتأمله.

يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ أي : كما جعلنا فى مكة أكابر مجرميها ، ليمكروا فيها بأهلها ، جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها أي : مجرميها أكابر ، لِيَمْكُرُوا فِيها بمن فيها ، فيمكروا بالناس فيتبعوهم على ذلك المكر ، لأنهم أكابر تصعب مخالفتهم ، فيحملونهم على الكفر والعصيان ، ويخذلونهم عن الإسلام والإيمان ، وَما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ لأن وبال مكرهم راجع إليهم ، وَما يَشْعُرُونَ بذلك.

الإشارة : إذا أراد اللّه بقوم خيرا جعل الخير فى أكابرهم ، فيجعل أمراءهم عدولا حلماء ، وعلماءهم زهّادا أعفّاء ، وأغنياءهم رحماء أسخياء ، وصلحاءهم قانعين أغنياء ، وإذا أراد بهم شرا جعل الشر فى كبرائهم ، فيجعل أمراءهم فجارا يحكمون بالهوى ، وعلماءهم حراصا جامعين للدنيا ، وأغنياءهم أشحاء قاسية قلوبهم ، وصلحاءهم طماعين فى الناس ، منتظرين لما فى أيديهم ، فبهؤلاء يصلح الدين إذا صلحوا ، ويفسد إذا فسدوا ، وفى ذلك يقول ابن المبارك رحمه اللّه :

وهل أفسد الدّين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

وقد تقدم تمامه فى تفسير سورة البقرة «١». وباللّه التوفيق.

ثم بيّن حال تلك الأكابر المجرمين ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٢٤]

وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)

قلت (حيث) : مفعول بفعل مقدر ، لا بأعلم لأن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به ، أي : يعلم حيث يجعل رسالته ، أي : يعلم المكان الذي يصلح للرسالة ، إلا إن أوّل أفعل بما لا تفضيل فيه ، فينتصب المفعول به ، ويحتمل أن

---

(١) راجع إشارة الآية (١٥٩) وما بعدها من سورة البقرة.

يكون هذا منه ، قال أبو حيان : ويحتمل أن تكون حيث على بابها من الظرفية المجازية ، ويضمّن أعلم

معنى يتعدى إلى الظرف ، والتقدير : اللّه أنفذ علما حيث يجعل رسالته. انظر المحشى.
يقول الحق جل جلاله : وَإِذا جاءَتْهُمْ أي : هؤلاء المجرمين الأكابر ، آيَةٌ نزلت على نبى ، قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بها حَتَّى نُؤْتى من النبوة مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ، فنكون أنبياء مثلهم ، والقائل لهذه المقالة أبو جهل ، قال : تزاحمنا : بنو عبد مناف الشرف مع بنى هاشم ، حتى إذا صرنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يوحى إليه ، واللّه لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه ، فنزلت الآية. وقيل : فى الوليد بن المغيرة ، قال : أنا أولى بالنبوة من محمد «١». فرد اللّه على من قال ذلك بقوله : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ. فعلم أن محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم أهل للرسالة ، فخصه بها ، وعلم أنهم ليسوا بأهل لها ، فحرمهم إياها ، فإن النبوة ليست بمجرد النسب والمال ، وإنما هى بفضائل نفسانية يخصّ اللّه بها من يشاء من عباده ، بل بمحض الفضل والكرم ، فيجتبى لرسالته من علم أنه يصلح لها ، وهو أعلم بالمكان الذي فيه يضعها.
ثم ذكر وعيد المنكرين ، فقال : سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ أي : ذل وحقارة يوم القيامة ، بعد تكبرهم وارتفاعهم فى الدنيا. روى «أنهم يبعثون فى صورة الذّرّ ، يطؤهم الناس فى المحشر».
وَيصيبهم عَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ أي : بسبب مكرهم ، أو جزاء مكرهم. كما تدين تدان.
الإشارة : ما حرم الناس من الخير إلا خصلتان : التكبر والحسد ، فمن طهر قلبه من الحسد ، وتواضع لكل أحد ، نال الرفعة والشرف عند اللّه فى الدنيا والآخرة ، ولا يضع اللّه سر الخصوصية إلا فى قلب طاهر متواضع ، يحط صاحبه رأسه لأقدام الرجال ، ويذل نفسه لأهل الصفاء والكمال ، وفى ذلك يقول الشاعر :

يا من يلوم خمرة المحبّة قولوا له عنّى هى حلال
ومن يرد يسقى منها غبّا خدّ يضع لأقدام الرجال
رأسى حططت بكلّ شيبه هم الموالي سقونى زلال

فكما أن الحق تعالى علم حيث يجعل رسالته ، علم حيث يجعل سر ولايته ، وهى النفوس المتواضعة المتطهرة من رذائل النفوس كالحسد والكبر وسائر الأوصاف المذمومة.

---

(١) ذكره البغوي فى التفسير عن مقاتل.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٦٨
ثم ذكر علامة الهداية والشقاء ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٢٥ الى ١٢٦]

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)

قلت : من قرأ حَرَجاً بالفتح ، فهو مصدر وصف به للمبالغة ، ومن قرأ بالكسر ، فوصف ، أي : شديد الضيق ، ومن قرأ يَصَّعَّدُ بالشد والقصر ، فأصله : يتصعد ، أدغم التاء فى الصاد ، ومن قرأ : يصاعد فأصله : يتصاعد ، فأدغم أيضا.

يقول الحق جل جلاله : فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ أي : يعرّفه طريق الحق ويوفقه للإيمان يَشْرَحْ صَدْرَهُ أي : يوسعه لِلْإِسْلامِ ، فيتسع له ، ويقبله ، ويغتبط به ، ويبتهج ، فرحا وسرورا. والشرح :

كناية عن جعل النفس قابلة للحق ، مهيأة لحلوله فيها ، مصفاة عما يمنعها منه ، وإليه أشار النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، حين سئل عنه ، فقال : «نور يقذفه اللّه فى قلب المؤمن ، فينشرح له وينفسح ، قالوا : هل لذلك أمارة يعرف بها؟ قال : نعم ، الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول» «١».

ثم ذكر ضدّه ، فقال : وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً شديد الضيق ، بحيث ينبو عن قبول الحق ، فلا يدخله الإيمان ، ولا ينشرح صدره له ، بل يفر منه ، ويثقل عليه كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ أي :

يتكلف الصعود فيه. شبهه – على وجه المبالغة – بمن يحاول ما لا يقدر عليه ، فإن صعود السماء غاية فيما يبعد عن الاستطاعة ، تنبيها على أن الإيمان تمنّع عليه كما يمتنع عليه الصعود إلى السماء ، كَذلِكَ أي :

كما يضيق صدر الكافر ويبعد قلبه عن الحق ، يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ أي : العذاب والخذلان ، عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتعليل.

وَهذا البيان الذي جاء به القرآن ، أو ما سبق من التوفيق والخذلان ، صِراطُ رَبِّكَ أي : الطريق الذي ارتضاه ، إن قلنا : الإشارة للبيان ، أو عادته وطريقه الذي اقتضته حكمته ، إن قلنا ما سبق من التوفيق والخذلان ، حال كونه مُسْتَقِيماً لا عوج فيه ، أو عادلا مطردا لا جور فيه ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ أي : بيّناها لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ فيعلمون أن الفاعل هو اللّه وحده ، وأن كل ما يحدث من خير وشر ، أو إيمان وكفر ، بقضائه وخلقه ، فإنه عالم بأفعال العباد ، حكيم عادل فيما يفعل بهم من تقريب أو إبعاد.

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (٢/ ٣/ ٣٧٧) وابن جرير فى تفسير الآية ، والحاكم فى المستدرك (٤/ ١١) ، وسكت عنه وتعقبه الذهبي. من حديث ابن مسعود موصولا. وأخرجه مرسلا من

حديث أبى جعفر : ابن جرير فى التفسير ، وابن المبارك فى الزهد/ ١٠٦ والبيهقي فى الأسماء/ ١٥٦.

(١٦٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٦٩

الإشارة : فمن يرد اللّه أن يهديه لسر الخصوصية ونور الولاية يشرح صدره للدخول فى طريقها ، ويوفقه لبذل نفسه وروحه فى تحصيلها ، ويصبّره على حمل لأوائها «١» ، وينهضه إلى السير فى ميدانها ، بعد أن يسقطه على شيخ كامل عارف بطريقها ، فيحققه بخصوصيته ، ويطلعه على سر ولايته ، حتى يلقى القياد إليه بكليته ، فلا يزال يسايره حتى يقوله له : ها أنت وربك. ومن يرد أن يضله عنها يجعل صدره ضيقا عن قبولها ، حرجا عن الدخول فيها ، حتى يثقل عليه حمل أعبائها ، أو ينكر وجود أهلها ، كذلك يجعل اللّه رجس حجابه على الذين لا يؤمنون بطريق الخصوص ، فإنه طريق مستقيم يوصل إلى حضرة النعيم فى الدنيا والآخرة. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ما أعدّ لأهل التوفيق ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٢٧]

لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)

يقول الحق جل جلاله : لَهُمْ دارُ السَّلامِ التي هى الجنة. والسلام اسم الحق تعالى ، وأضافها إلى نفسه تعظيما لها ، أو دار السلامة من المكاره ، أو دار التحية تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ «٢» ، عِنْدَ رَبِّهِمْ ذخيرة لهم عنده حين يقدمون عليه ، لا يعلم كنهها غيره ، أو فى ضمانه وكفالته ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ أي : مولاهم وناصرهم فى الدارين ، بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أي : بسبب أعمالهم ، أي : تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة ، فيحفظهم فى الدنيا ، هم وذريتهم ، ويحفظهم فى الآخرة كذلك.

الإشارة : من هداه اللّه لطريق الخصوصية ، واستعمله فى الوصول إليها ، ووصله إلى من يسيره إليها ، فقد دخل دار السلام قبل موته ، فلله جنتان جنة المعارف وجنة الزخارف ، [من دخل جنة المعارف لم يشتق إلى جنة الزخارف] «٣» ، لأن اللّه تولاه وأغناه عما سواه.

ثم ذكر ما أعد لأهل الخذلان ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٢٨ الى ١٢٩]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)

(١) أي : شدتها.

(٢) من الآية ١٠ من سورة يونس.

(٣) وددت لو أن الشيخ المفسر – رحمه اللّه – ترك هذه العبارة المشعرة بدونية ما أطلق عليه جنة الزخارف. وهى الدار التي سماها اللّه عز وجل «دار السلام» وفيها يتحقق للمؤمن رؤية النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وفوق هذا : رؤية اللّه تعالى. فكيف لا يشتاق المؤمن إلى هذه الجنة؟!.

(١٦٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٧٠

قلت : (خالدين) : حال مقدّرة من الكاف ، والعامل فيه : مَثْواكُمْ ، إن جعل مصدرا ، أو معنى الإضافة ، إن جعل مكانا.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ «١» أي : الثقلين ، جَمِيعاً ونقول : يا مَعْشَرَ الْجِنِّ أي : الشياطين قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ أي : من إغوائهم وإضلالهم ، أو استكثرتم منهم بأن جعلتموهم فى أتباعكم ، فحشروا معكم ، وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ الذين أطاعوهم فى الكفر : رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ أي : انتفع الإنس بالجن ، بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها ، وانتفع الجن بالإنس بأن أطاعوهم وحصّلوا مرادهم ، وقيل : استمتاع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم فى المفاوز وعند المخاوف ، كان الرجل إذا نزل واديا يقول : أعوذ بصاحب هذا الوادي ، يعنى كبير الجن ، واستمتاعهم بالإنس : اعترافهم بأنهم يقدرون على إجارتهم ، وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا وهو الموت أو البعث والحشر ، وهو اعتراف بما فعلوا من طاعة الشياطين واتباع الهوى ، وتكذيب البعث ، وتحسر على حالهم ، وإظهار للاستكانة والضعف. أقروا بذنبهم لعله ينفعهم.

قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ : منزلكم ، خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إلا أوقات ، ينتقلون فيها من النار إلى الزمهرير ، وقيل : ليس المراد بالاستثناء هنا الإخراج ، وإنما هو على وجه الأدب مع اللّه وإسناد الأمور إليه. وسيأتى فى الإشارة تكميله إن شاء اللّه ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ فى أفعاله ، عَلِيمٌ بأعمال الثقلين.

وَكَذلِكَ أي : كما ولينا الشياطين على الكفرة ، نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً أي : نكّل بعضهم إلى بعض ، أو نجعل بعضا يتولى بعض فيقويهم ، أو : أولياءهم وقرناءهم فى العذاب ، كما كانوا قرناء فى الدنيا ، وذلك التولي والتسليط بِما كانُوا يَكْسِبُونَ من الكفر والمعاصي.

الإشارة : ليست الآية خاصة بالكفار ، بل كل من عوّق الناس عن طريق الخصوص ، واستكثر من العموم بأن أبقاهم فى حزبه ، يقال له : يا معشر أهل الرياسة قد استكثرتم من العموم ، فيقول أهل

اليمين من العموم : ربنا استمتع بعضنا ببعض فتبعناهم فى الوقوف مع الحظوظ والعوائد ، وتمتعوا بتكثير سوادهم بنا وتنعيش رياستهم ، مع ما يلحقهم من الارتفاق من قبلنا ، فيقول الحق تعالى : نار القطيعة والحجاب مثواكم خالدين فيها ، إلا وقت الرؤية مع عوام الخلق ، وهذه عادته تعالى : يولى بعض الغافلين بعضا بسبب غفلتهم.

وفى قوله تعالى : إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ – إرشاد إلى استعمال الأدب ، ورد الأمور كلها إلى رب الأرباب ، وعدم التحكيم على غيب مشيئته وعلمه ، وقوفا مع ظاهر الوعد أو الوعيد ، فالأكابر لا يقفون مع وعد ولا وعيد ،

---

(١) قرأ حفص (يحشرهم) بالياء ، وقرأ الباقون (نحشرهم) بالنون.

كقول عيسى عليه السّلام : وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «١» ، وكقول إبراهيم عليه السّلام : وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً

«٢» الآية ، وكقوله : وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٣» ، وكقول شعيب عليه السّلام : وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا «٤» وكاستغفار نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم للمنافقين قبل نزول النهى ، وبعد نزوله ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ... «٥» الآية. وكقوله ، يوم بدر : «إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» ، مع تقدم الوعد بالنصر ، وكخوف موسى بعد قوله : لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما ... «٦» الآية.

ومنه : خوف الأكابر بعد تأمينهم لأن ظاهر الوعد والوعيد لا يقضى على باطن المشيئة والعلم ، ومثله يجرى فى سورة هود فى قوله : إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ «٧» ، وفى سورة يوسف : وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا «٨» بالتخفيف ، وغير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة ، وانظر الورتجبي. فقد انفرد بمقالة ، بعد حكاية اتفاق مذاهب المسلمين جميعا على عدم غفران الشرك ، ولكن قول عيسى عليه السّلام : وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ ... الآية ، يشير إلى ما أشار إليه ابن عباس وابن مسعود فى قوله تعالى : خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال «٩» :

تؤمر النار أن تأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدد خلقهم ، ويرجى من كرم اللّه ولطفه إدخالهم بعد ذلك الجنة ، قال : وهذا مرجو ، ليس بمعتقد أهل السنة. هـ.

قال فى الحاشية : وهو يرجع عند التحقيق إلى طرح الأسباب وعدم الوقوف معها ، نظرا إلى أن الحق تعالى لا يتقيد فى وعيد ولا وعد ، فمن غلبه النظر إليه ، سرى إليه الرجاء فى عين التخويف ، كما أنه

يسرى الخوف فى عين الرجاء ، لكونه اقتطع من الوقوف مع خصوص وصف ، ولما كانت تلك الحالة هى عين الأدب اللائق بالعبودية مع اللّه تعالى أرشد تعالى إليها بقوله : إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ ، إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ ، وهو حال أهل الحقيقة ، والوقوف مع خصوص الوعد أو الوعيد حال أهل الشريعة. انتهى ببعض اختصار. وقد رد الثعالبي هذه المقالة التي حكاها الورتجبي.

ثم وبخهم على عدم الإيمان بالرسل ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٣٠ الى ١٣٤]

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (١٣٠) ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)

---

(١) الآية ١١٨ من سورة المائدة.

(٢) الآية ٨٠ من سورة الأنعام. [.....]

(٣) الآية ٣٦ من سورة ابراهيم.

(٤) الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٥) الآية ٨٠ من سورة التوبة.

(٦) الآية ٤٦ من سورة طه.

(٧) من الآية ١٠٧.

(٨) من الآية ١١٠

(٩) أي : الورتجبي.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٧٢

قلت : (ذلك أن لم يكن ربك) : خبر عن مضمر ، وأن على حذف لام العلة ، أي : الأمر ذلك لأجل أن لم يكن ربك متصفا بالظلم.

يقول الحق جل جلاله ، يوم القيامة فى توبيخ الكفار : ا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ أي : من مجموعكم ، أو رسل الجن : نذرهم الذين يبلغون لهم شريعة الإنس إذ ليس فى الجن رسل

على المشهور.

وروى الطبري من طريق الضحاك بن مزاحم إثبات ذلك ، واحتج بأن اللّه تعالى أخبر أن من الجن والإنس رسلا أرسلوا إليهم ، يعنى ظاهر هذه الآية. وأجاب الجمهور بأن معنى الآية : أن رسل الإنس رسل من قبل اللّه إليهم ، ورسل الجن يبلغون كلام رسل الإنس إليهم ، ولهذا قال قائلهم : إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى الآية «١» ، فالرسالة إلى الجن خاصة بنبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، أي : مع الإنس.

حال كون الرسل الذين أتوكم قُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا

يعنى يوم القيامة ، قالوا فى الجواب : هِدْنا عَلى أَنْفُسِنا

بالكفر والعصيان ، وهو اعتراف منهم بما فعلوا.

قال تعالى : غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا

ألهتهم بزخرفها عن النظر والتفكر ، شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ

، وهذا ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم ، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات الفانية ، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية ، حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيرا للسامعين وإرشادا لهم. قاله البيضاوي.

ثم ذكر حكمة إرسال الرسل فقال : ذلِكَ الإرسال حكمته ل أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ أي : إنما أرسل الرسل لئلا يكون ظالما لهم بإهلاكهم بسبب ظلم فعلوه ، وهم غافلون عن الإنذار ، بحيث لم ينذرهم أحد ، أو : لم يكن مهلك القرى ملتبسا بظلم حيث أهلكهم من غير إنذار ، ففاعل الظلم ، على الأول : القرى ، وعلى الثاني : اللّه تعالى ، على تقدير إهلاكهم من غير إنذار. والأول يتمشى على مذهب المعتزلة ، والثاني على مذهب أهل السنة. انظر ابن جزى.

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأحقاف.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٧٣

وَلِكُلٍّ من الإنس والجن دَرَجاتٌ مراتب ، مِمَّا عَمِلُوا من أجل أعمالهم بالخير والشر ، فهم متفاوتون فى النعيم والعذاب ، وظاهر الآية : أن الجن يثابون ويعاقبون لأنهم مكلفون ، وهو المشهور ، واختلف : هل يدخلون الجنة أم لا؟ فروى الطبري وابن أبى حاتم عن أبى الدرداء موقوفا : أنهم يكونون ترابا كسائر الحيوانات ، وروى عن أبى حنيفة مثله ، وذهب الجمهور – وهو قول الأئمة الثلاثة والأوزاعى

وأبى يوسف ، وغيرهم أنهم يثابون على الطاعة ويدخلون الجنة. ثم اختلفوا ، هل يدخلون مدخل الإنس ، وهو الأكثر ، أو يكونون فى ربض الجنة ، وهو عن مالك وطائفته ، أو أنهم أصحاب الأعراف ، أو التوقف عن الجواب؟ فى هذا أربعة أقوال ، والله تعالى أعلم بغيبه. وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ فيخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق عليه من ثواب أو عقاب.

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ عن العباد وعبادتهم ، ذُو الرَّحْمَةِ يترحم عليهم بالتكليف ، تكميلا ، ويمهلهم على المعاصي حلما ، وليس له حاجة فى طاعة ولا معصية ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيها العصاة ، وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ من الخلق ، كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ فأنشأكم قرنا بعد قرن ، لكنه أبقاكم رحمة بكم ، إِنَّ ما تُوعَدُونَ من البعث وما بعده ، لَآتٍ لا محالة ، وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ تعجزون قدرة الله الطالب لكم بالبعث والحساب.

الإشارة : كما أن الحق تعالى لم يعذب الكفار إلا بعد إرسال الرسل ، كذلك لا يعاقب أهل الإصرار إلا بعد بعث الأطباء وهم أهل التربية النبوية ، فكل من لم يصحبهم وينقد إليهم مات مصرا على الكبائر – أي : كبائر القلوب – وهو لا يشعر ، فيلقى الله بقلب سقيم ، فيعاقبه الحق تعالى على عدم صحبتهم ، ومعاتبته له : بعده عن مشاهدته وعن مقام المقربين ، فإذا رأى مقام المقربين وقربهم من الحضرة ، قال : غرتنا الحياة الدنيا وزخارفها ، وجاهها ورياستها ، وشهد على نفسه أنه كان غافلا.

فحكمة وجود الأولياء فى كل قرن لتقوم الحجة على أهل الغفلة ، فإذا وقع البعد لقوم لم يكن الحقّ ظالما لهم ، فالدرجات على حسب المقامات ، والمقامات على حسب الأعمال ، وأعمال القلوب هى التي تقرب إلى حضرة علام الغيوب ، بها يقع القرب ، وبالخلو عنها يقع البعد. وعليها دلت الأولياء بعد الأنبياء ، لأن الأنبياء جاءوا بالشريعة الظاهرة والحقيقة الباطنة ، فمن رأوه أهلا لسر الحقيقة دلّوه عليها ، فكان من المقربين ، ومن رأوه ضعيفا عنها دلوه على الشريعة ، فكان من أصحاب اليمين. وبالله التوفيق.

ثم أمره بتهديد قريش وتخويفهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٥]

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٧٤

قلت : مَنْ تَكُونُ : إما مفعول (تعلمون) ، أو مبتدأ ، وهى إما موصولة أو استفهامية ، والمكانة :

التمكن أو الجهة ، يقال : مكان ومكانة كمقام ومقامة.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ أي : تمكنكم من هواكم وشهواتكم التي أنتم عليها ، أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها من الكفر والهوى ، والمعنى : اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة ، إِنِّي عامِلٌ على ما أنا عليه من المصابرة والثبات على الدين الحق. والتهديد بصيغة الأمر مبالغة فى الوعيد ، كأن الذي يهدده يريد تعذيبه لا محالة ، فيحمله بالأمر على ما يفضى به إليه ، وتسجيل بأن المهدد لا يأتى منه إلا الشر ، كالمأمور به الذي لا يقدر أن ينقضى عنه. قاله البيضاوي.

ثم صرح بالتهديد فقال : فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ أي : أيّنا تكون له العاقبة الحسنى التي خلق اللّه لها هذه الدار ، أي : وهى الدار الآخرة ، أو : فسوف تعرفون الذي تكون له عاقبة سكنى الدار الآخرة والنعيم المقيم ، أو : من تكون له عاقبة هذه الدار بالنصر والظهور على الأديان – أنا أو أنتم ، وفيه إنصاف فى المقال حال الإنذار ، وحسن الأدب ، وتنبيه على وثوق المنذر لأنه محق. قال تعالى إِنَّهُ ، أي : الأمر والشأن ، لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ، والظلم أعم من الكفر ، ولذلك وضع موضعه لعمومه.

الإشارة : إذا انكب الناس على الدنيا ، وأخذتهم الغفلة ، وغلب عليهم الهوى ، ثم وقع الوعظ والتذكير من أهل الإنذار ، فقابلوهم بالإبعاد والإنكار ، يقول لهم المذكر والواعظ : يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ ... الآية.

ثم ذكر جهالة الجاهلية وحمقهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٦]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (١٣٦)

يقول الحق جل جلاله : وَجَعَلُوا أي : مشركو العرب ، لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ أي : خلق ، مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً ، وهم حى من خولان ، يقال لهم : الأديم ، كانوا يجعلون من زروعهم وثمارهم وأنعامهم نصيبا ، فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ أي : بدعواهم من غير دليل ، وأكثر ما يستعمل الزعم فى الكذب ، وَهذا لِشُرَكائِنا ، فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٧٥

روى أنهم كانوا يعينون شيئا من حرث أو نتاج إلى اللّه ، فيصرفونه إلى الضيفان والمساكين ، وشيئا منها

إلى آلهتهم ، فينفقونه على سدنتهم – أي : خدّامهم ، والقيام بأصنامهم ، ويذبحون عندها ، ثم إذا رأوا ما عينوا لله أزكى وأكثر ، بدلوه لآلهتهم وقالوا : اللّه غنى عنه ، وإذا رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حبا لآلهتهم ، وإذا هبت ريح فحملت شيئا من الذي لله إلى الذي للأصنام أقروه ، وإن حملت شيئا من الذي للأصنام إلى الذي لله ردوه ، وإذا أصابتهم سنة ، أكلوا نصيب اللّه وتحاموا نصيب شركائهم ، تعظيما لها.

وفى قوله : مِمَّا ذَرَأَ : تنبيه على فرط جهالتهم ، فإنهم أشركوا الخالق فى خلقه ، جمادا لا يقدر على شىء ، ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له ، وفى قوله : بِزَعْمِهِمْ : تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه ، ولم يأمرهم اللّه تعالى به. ساءَ أي : قبح ، ما يَحْكُمُونَ حكمهم هذا الذي اخترعوه من عند أنفسهم.

الإشارة : مما ينخرط فى سلك الآية ، وتجر ذيلها عليه ، ما يفعله بعض الناس من التساهل فى حقوق اللّه الواجبة ، والمسارعة إلى حقوق الناس التي ليست بواجبة عليه ، فترى بعض العوام يقدمون مد أبى العباس السبتي ، ويتساهل فى الزكاة ، وترى بعض الناس يسارع إلى إطعام الطعام وقرى الأضياف ، وهو لا يفى زكاته. وبعضهم يجعلون للصالحين شيئا من أموالهم لتصلح وتنمو ويعتنى بشأنها ، وقد لا يعتنى بزكاته ولا يخرجها ، وهذا كله شعبة من فعل أهل الشرك ، وعلامة اتباع الهوى. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نوعا آخر من كفرهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٧]

وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (١٣٧)

قلت : قرأ الجمهور : زَيَّنَ بالبناء للفاعل ونصب قتل ، على أنه مفعول به ، وخفض (أولادهم) بالإضافة ، ورفع (شركاؤهم) فاعل (زين) ، فالشركاء على هذه القراءة هم الذين زينوا القتل ، وقرأ ابن عامر : بضم الزاى على البناء للمفعول ، ورفع «قتل» على النيابة عن الفاعل ، ونصب «أولادهم» على أنه مفعول بقتل ، وخفض «شركائهم» بالإضافة إلى قتل ، إضافة المصدر إلى فاعله ، أي : زين لهم أن يقتل شركاؤهم أولادهم ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بأولادهم ، وهو معمول للمصدر ، وهو جائز فى العربية ، قال ابن مالك فى الألفية :

فصل مضاف شبه فعل ما نصب مفعولا أو ظرفا أجز ، ولم يعب

وهذا من فصل المفعول ، فهو جائز فى السعة خلافا للزمخشرى ومن تبعه ، وقد شنّع عليه الشاطبي فى حرز الأمانى.

يقول الحق جل جلاله : ومثل ذلك التزيين الذي وقع لهم فى الحرث والأنعام ، زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ زين لهم ذلك شركاؤهم من الجن ، أو من السدنة ، وحملوهم عليه ، خوفا من الجوع أو من العار ، وكانوا يقتلون البنات دون البنين ، زينوا لهم ذلك لِيُرْدُوهُمْ أي : ليهلكوهم بالإغواء ، وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ أي : ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل ، أو ما وجب عليهم أن يتدينوا ب ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ أي : ما فعل المشركون ما زين لهم ، أو ما فعل الشركاء التزيين ، أو الفريقان جميع ذلك ، فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ أي : اتركهم مع افترائهم ، أو : والذي يفترونه من الإفك ، وهذا قبل الأمر بالسيف ، ثم نسخ به.

الإشارة : مما ينخرط فى سلك الآية : إهانة البنات وتعظيم البنين ، وقد نهى الشارع – عليه الصلاة السلام – عن تخصيص الذكور بالوصية ، وقال للذى أراد أن يفعله : «لا تشهدنى على جور» ، وهنا إشارة أرق من هذا ، وهو أن يراد بالأولاد ما تنتجه الفكرة الصافية من العلوم والمواهب ، وقتلها : إهمال الفكرة عن استخراجها حتى ضاعت عليه ، والذي زين له ذلك هو شرك القلب ، واشتغاله برسوم الفرق ، حتى تعطلت الفكرة ، وماتت تلك العلوم من قلبه ، وقع ذلك التزيين بأهل الفرق ليسقطوهم عن درجة المقربين أهل العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، وليلبسوا عليهم دينهم بالخواطر والشكوك ، والأوهام ، ولو شاء اللّه لهدى الناس جميعا.

ثم ذكر أيضا نوعا آخر من جهالتهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٨]

وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨)

قلت : (حجر) : فعل ، بمعنى مفعول ، يستوى فيه الواحد والكثير ، والمذكر والمؤنث ، ومعناه : حرام ، و(افتراء) :

حال ، أو مفعول من أجله ، أو مصدر.

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أيضا : هذِهِ الأشياء التي جعلوها لأصنامهم ، وهى أَنْعامٌ وَحَرْثٌ ، هى حِجْرٌ أي : حرام محجر ، لا يَطْعَمُها لا يأكلها إِلَّا مَنْ نَشاءُ ، وهم خدام الأوثان وسدنتها ، والرجال دون النساء. قالوا ذلك بِزَعْمِهِمْ وافترائهم من غير حجة ، وَأَنْعامٌ

أخرى حُرِّمَتْ ظُهُورُها وهى البحائر والسوائب والحوامي ، وَأَنْعامٌ أخرى لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا فى الذبح ، وإنما يذكرون عليها اسم آلهتهم افْتِراءً على اللّه ، لأنهم قسموا أموالهم على هذه القسمة ، ونسبوا ذلك إلى اللّه افتراء وكذبا ، سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ أي : بسببه فيعذبهم عليه.

الإشارة : ما عاب اللّه على المشركين إلا الشرك والتحكم على اللّه ، فالواجب على من أراد السلامة أن يوحد ربه ، وينفرد بكلّيته إليه ، ويخلص أعماله لله ، ويصرف أمواله فى مرضاة اللّه ، ويقف فى أموره كلها عند ما حدد له اللّه ، وبيّنه رسول اللّه يكون من أولياء اللّه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر جهالة أخرى لهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٩]

وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)

قلت : خالِصَةٌ : خبر ل (ما) ، وأنثه حملا على المعنى ، لأن (ما) واقعة على الأجنة ، وذكّر (محرم) حملا على لفظ «ما» ، ويحتمل أن تكون التاء للمبالغة ، ومن قرأ : (تكن) بالتأنيث ، فالمراد : الأجنة ، ومن قرأ بالتذكير فراعى لفظ «ما».

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا ما استقر فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ ، يعنى : البحائر والسوائب ، من الأجنة ، خالِصَةٌ لِذُكُورِنا لا يشاركون فيه ، وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا أي : نسائنا ، يعنى : أن ما يولد للبحائر والسوائب ، قالوا هو حلال لذكورهم دون نسائهم ، هذا إن ولد حيا ، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً بأن ولد ميتا فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ فالذكور والإناث سواء ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ أي : سيجزيهم على ما وصفوا وافتروا على اللّه من الكذب فى التحليل والتحريم ، فهو كقوله : وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ «١» ، إِنَّهُ حَكِيمٌ فى صنعه ، عَلِيمٌ بخلقه فيجزى كلا على قدر جرمه.

الإشارة : اعلم أن جيفة الدنيا اشترك النساء مع الرجال فيها ، لقوله تعالى : وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ ، والزهد فى النساء قليل بالنسبة إلى الرجال ، واعلم أيضا أن الحق تعالى يجازى عبده جزاء موافقا لوصفه ، فإن كان وصفه التعظيم لكل شىء عظمه اللّه ، ومن كان وصفه التصغير صغره اللّه ، ومن كان وصفه الإحسان أحسن اللّه إليه ، ومن كان وصفه الإساءة أساء اللّه إليه ، ومن كان وصفه الفرق فرقه اللّه ، ومن كان وصفه الجمع جمعه اللّه ، وهكذا : كما تدين تدان ، كما تقابل الأشياء تقابلك ، قال تعالى : سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

ثم شنّع عليهم قتل الأولاد ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٤٠]

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)

قلت : (سفها) : حال أو مصدر ، وكذلك : (افتراء).

(١) من الآية ٦٢ من سورة النحل.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٧٨

يقول الحق جل جلاله : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ يعنى : العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم مخافة السبي أو الفقر ، بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا دليل لخفة عقلهم وجهلهم بأن اللّه رازق أولادهم كما يرزقهم ، وليسوا هم الرازقين لهم ، وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ من البحائر والسوائب ونحوهما افْتِراءً عَلَى اللَّهِ من عند أنفسهم ، قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ إلى الحق والصواب.

الإشارة : قد خسر الذين ضيعوا قلوبهم فلم تنتج لهم شيئا من أبكار الحقائق وأسرار العلوم ، بل اشتغلوا بالسفه من القول والفعل ، بغير علم ولا بصيرة نافذة ، وحرموا ما رزقهم اللّه من العلوم والأسرار ، لو طهروا قلوبهم ، وخربوا ظواهرهم وخرقوا عوائدهم ، لكنهم حكموا على فعل ذلك بالتحريم ، تجمدوا على علم الرسوم وحفظ المروءة ، والمروءة إنما هى التقوى والدين ، كما قال الإمام مالك رضى اللّه عنه ، قد ضلوا عن طريق الوصول ، وما كانوا مهتدين إلى طريق الخصوص ، ما داموا على ما هم عليه من زى اللصوص.

ثم بيّن أن الأشياء كلها لله ، ليس لأحد فيها شيء حتى يحلل منها أو يحرم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٤١]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)

قلت : (مختلفا) : حال مقدّرة لأنه لم يكن كذلك عند الإنشاء ، . والضمير فى أُكُلُهُ : يعود على النخل ، والزرع مقيس عليه ، أو للجميع على تقدير : كل واحد منهما.

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ أي : خلق جَنَّاتٍ بساتين مشتملة على كروم – أي : دوالى – مَعْرُوشاتٍ أي : مرفوعة بالعرشان والدعائم ، وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ أي : مبسوطة على وجه الأرض ، قيل : المعروشات : ما غرسه الناس فى العمران ، وغير المعروشات : ما أنبته فى الجبال والبراري.

وَأنشأ النَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ أي : ثمره الذي يؤكل منه ، واختلافه فى اللون والطعم والرائحة والحجم والهيئة والكيفية ، وذلك دليل على عظمة القادر المريد ، وَأنشأ الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ أي : تتشابه بعض أفرادهما فى اللون والطعم ، ولا يتشابه بعضها. كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ أي : من ثمر كل واحد منهما ، إِذا أَثْمَرَ وإن لم يطب ، قيل : فائدة الأمر بالأكل : رخصة المالك فى الأكل منه

قبل أداء حق اللّه منه قبل الطيب ، أي : قبل أن تجب زكاته ، وأما إذا طاب فلا بد من التخريص «١».

---

(١) خرص النخلة والكرمة يخرصها خرصا : إذا حزر ما عليها من الرّطب تمرا ، ومن العنب زبيبا ، فهو من الخرص أي : الظن لأن الحزر إنما هو تقدير بظن. انظر النهاية (مادة : خرص).

وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ يريد : ما كان يتصدق به يوم الحصاد ، لا الزكاة المقدرة لأنها فرضت بالمدينة ، وكان ذلك واجبا ثم نسخ بالعشر. وقيل : الزكاة حقيقة ، والآية مدنية ، وقيل : مكية ، ولم يعيّن قدرها إلا بالمدينة ، والأمر بإتيانها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ ، حتى لا يؤخر عن وقت الأداء ، خلاف ما يفعله العامة من خزنها مع ماله ، حتى يدفعها فى نوائب المخزن «١» ، وليعلم أن الوجوب بالإفراك والطيب ، لا بالتصفية ، ولذلك شرع التخريص ، وَلا تُسْرِفُوا بصرفها فى غير محلها ، ولا تتعدوا ما أمرتم به فتجعلوا ما أنشأ اللّه للأصنام ، أو : لا تسرفوا فى التصدق بالكل ، كقوله : وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ «٢» ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ أي : لا يرضى فعلهم.

الإشارة : وهو الذي أنشأ جنات المعارف لمن خرق عوائده ، معروشات بشهود أسرار الجبروت ، وغير معروشات بشهود أنوار الملكوت ، أو معروشات بشهود المعاني مع الأوانى ، وغير معروشات بشهود الأوانى فقط ، أو معروشات بشهود المؤثر والأثر ، وغير معروشات بشهود المؤثر فقط ، وكلها ترجع لمعنى واحد ، والمعروش أرفع من غيره وأكمل ، والأول : مقام البقاء والصحو ، والثاني : مقام الفناء والسكر ، والنخل والزرع : الحقيقة والشريعة على اختلاف علومهما ، والزيتون والرمان : الأعمال والأحوال ، متفقة وغير متفقة ، وثمره : حلاوة الشهود ، فليأكل منها المريد إذا طاب وقته ، ولا تسرفوا فى الأحوال ، إنه لا يحب المسرفين.

ثم ذكر إنشاء الأنعام ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤٢ الى ١٤٤]

وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى

عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)
قلت : (حمولة وفرشا) : عطف على جنات ، وثَمانِيَةَ أَزْواجٍ : بدل من حمولة ، و(من الضأن اثنين) : بدل من ثمانية.

---

(١) أي : جامع الضرائب.
(٢) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٨٠
يقول الحق جل جلاله : وَأنشأ أيضا مِنَ الْأَنْعامِ أنعاما حَمُولَةً ما يحمل الأثقال ، كالكبار منها ، وَفَرْشاً ما لا يحمل ، كالصغار لدنوها من الأرض. أو حمولة للإبل ، وفرشا للغنم ، لأنها تفرش للذبح ، ويفرش ما ينسج من صوفها ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ أي : كلوا ما أحل اللّه لكم منها ، وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ فى التحليل والتحريم من عند أنفسكم ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ظاهر العداوة.
ثم فصلها فقال : ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ذكر وأنثى من كل صنف ، والصنف : ما معه آخر من جنسه يزاوجه ، ثم بيّنها فقال : مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ذكر وأنثى كبش ونعجة ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ التيس وهو الذكر ، والعنز وهى الأنثى ، قُلْ لهم آلذَّكَرَيْنِ أي : ذكر الضأن والمعز ، حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ منهما؟ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ من الأجنة ، ذكرا كان أو أنثى؟ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ يدل على أن اللّه تعالى حرم شيئا من ذلك ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى دعوى التحريم عليه.
وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ ذكر وأنثى ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ كذلك. قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أم حرم ما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ من الجنين مطلقا؟ وهذا تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم على اللّه ، وتوبيخ لهم ، حيث حرموا بعض الذكور مرة وبعض الإناث مرة ، فألزمهم تحريم جميع الذكور ، إن كان علة التحريم وصف الذكورة ، أو تحريم جميع الإناث ، إن كانت العلة الأنوثة ، أو تحريم الجميع إن كان المحرم ما اشتملت عليه الأرحام ، ولا وجه للتخصيص ، فالاستفهام للإنكار ، وأكده بقوله : أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ حاضرين حين وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا التحريم ، ولا طريق لكم إلى معرفة هذا إلا المشاهدة والسماع ، وليس لكم شيء من ذلك ، وإنما أنتم مفترون على اللّه.
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فنسب إليه تحريم ما لم يحرم ، والمراد : كبراؤهم الأوائل كعمرو ابن لحى وأمثاله ، أي : لا أحد أظلم ممن كذب على اللّه ، لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ إلى مراشدهم ، أو إلى ما ينفعهم.

الإشارة : ومن الأحوال ما تحمل صاحبها إلى مقام الحرية ، بشهود الربوبية ، فيغلب عليه العز والاستظهار ، ومنها ما تحمله إلى مقام العبودية ، فيغلب عليه الذل والانكسار ، وإليه الإشارة بقوله : حَمُولَةً وَفَرْشاً ، فليتمتع المريد بما يظهر عليه منهما ، ولا يتبع خطوات الشيطان فيتعدى طوره ، ولا يعرف قدره.

وهذه الأحوال ثمانية أنواع : أربعة سفلية تناسب العبودية ، وأربعة علوية تناسب الربوبية. فالأربعة السفلية : الذل ، والفقر ، والعجز ، والضعف. والأربعة العلوية : العز ، والغنى ، والقدرة ، والقوة. فمن أراد التعلق بهذه الأوصاف فليناد من كوة الذل : يا عزيز من للذليل سواك؟ ، ومن كوة الفقر : يا غنى من للفقير سواك؟ ، ومن كوة العجز : يا قدير من للعاجز سواك؟ ومن كوة الضعف : يا قوى من للضعيف سواك؟ ، ير الإجابة طوع يديه ، ومن أراد التحقق بها ، فليتحقق بذله يمده بعزه ، وليتحقق بفقره يمده بغناه ، وليتحقق بعجزه يمده بقدرته ، وليتحقق بضعفه يمده بقوته ، «تحقق بوصفك يمدك بوصفه». وبالله التوفيق.

(١٨٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٨١

ثم بيّن ما حرم عليهم ليقفوا عنده ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٤٥]

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ فى القرآن أو مطلق الوحى ، مُحَرَّماً أي : طعاما محرما ، عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ ، أو يطعم منه غيره ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الطعام مَيْتَةً ، وفى قراءة بالتاء لتأنيث الخبر ، أَوْ يكون دَماً مَسْفُوحاً أي : مصبوبا كدم المنحر ، أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أي : خبيث ، قيل : إنه يورث عدم الغيرة بالخاصية أَوْ يكون فِسْقاً ، من صفته : أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ أي : ذبح لغير اللّه ، وذكر عليه اسم الصنم ، وإنما سمى فسقا لتوغله فى الفسق.

والآية تقتضى حصر المحرمات ، فيما ذكر ، وقد جاء فى السنة تحريم أشياء لم تذكر هنا ، كلحوم الحمر الإنسية والكلاب ، وغيرها ، فذهب قوم إلى أن السنة نسخت هذا الحصر. وذهب آخرون إلى أن الآية وردت على سبب ، فلا تقتضى الحصر ، وذهب آخرون إلى أن ما عدا ما ذكر : مكروه.

وقال البيضاوي : والآية محكمة لأنها تدل على أنه لم يجد فيما أوحى إليه إلى تلك الغاية محرما غير هذه ، ولا ينافى ورود التحريم فى شىء آخر ، فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد

، ولا على حل الأشياء غيرها ، إلا مع الاستصحاب «١». هـ.

ثم استثنى المضطر ، فقال : فَمَنِ اضْطُرَّ إلى تناول شيء من ذلك ، غَيْرَ باغٍ على مضطر مثله ، وَلا عادٍ أي : متجاوز قدر الضرورة ، فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لا يؤاخذه.

الإشارة : الأحوال كلها تتقوت منها الروح ، إلا ما كان غير مباح فى الشرع ، فلا سير فيه ، والمراد بالأحوال :

خرق عوائدها ، بكل ما يثقل عليها ، وأما ما كان محرما فى الشرع فلا بركة فى تناوله لأنه رجس ، وأجازه بعض الصوفية محتجا بقضية لص الحمام ، وفيه مقال ، فمن اضطر إلى تناوله ، لغلبة حال عليه ، غير قاصد لمخالفة الشرع ، فإن اللّه غفور رحيم ، وعليه حمل بعضهم قصة لص الحمّام «٢». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الاستصحاب – اصطلاحا : هو الحكم بثبوت أمر فى الزمن الثاني ، بناء على ثبوته فى الزمان الأول. (التعريفات/ ٤٤).

(٢) راجع قصة لص الحمّام فى التعليق على إشارة الآية ٢٦٧ من سورة البقرة. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٨٢

ثم ذكر ما حرّم على بنى إسرائيل ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٤٦]

وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (١٤٦)

قلت : الحوايا هى الأمعاء ، أي : المصارين التي فيها البعر ، وتسمى المباعر ، جمع حوية ، فعيلة ، فوزنها على هذا : فعائل ، فصنع بها ما صنع بهراوا ، وقيل : جمع حاوية ، فوزنها : فواعل ، كقوارب ، وهو عطف على ما فى قوله : إِلَّا ما حَمَلَتْ.

يقول الحق جل جلاله : وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ما له أصبع ، كالإبل والأوز والنعام ، وغيرها من الحيوان ، الذي هو غير منفرج الأصابع وله ظفر ، وقيل : كل ذى مخلب وحافر ، وسمى الحافر ظفرا مجازا وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما كالثروب وشحوم الكلى ، إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أي : إلا ما علق من الشحم بظهور البقر والغنم ، فهو حلال عليهم ، لكنهم اليوم لا يأكلونه ، حدثنى شيخى الفقيه الجنوى أنه سأل بعض أحبارهم : هل هو حرام فى كتابكم؟ فقال له : لا ، لكنهم

قاسوه سدا للذريعة. هـ. فلما شددوا شدد اللّه عليهم ، أَوِ الْحَوايا أي : ما احتوت عليه الأمعاء والحشوة مما يتحوى فى البطن من الشحوم ، فهو حلال عليهم أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ فى جميع الجسد ، فإنه حلال عليهم ، لكنهم شددوا فحرموا الجميع عقوبة من اللّه ذلِكَ التحريم جزاء جَزَيْناهُمْ به بسبب بغيهم ، أي : ظلمهم ، وَإِنَّا لَصادِقُونَ فيما أخبرنا به من التحريم ، وفى ذلك تعريض بكذب من حرّم غير ما حرم اللّه.

الإشارة : يؤخذ من الآية أن الذنوب والمعاصي تضيق على العبد لذائذ متعته ، وتقتر عليه طيب رزق بشريته ، وتضيق عليه أيضا حلاوة المعاملة فى قلبه ، ولذة الشهود فى روحه وسره ، لقوله تعالى : ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وقال تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ «١» ، وقال فى شأن القلب : إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً «٢» ، أي : نورا يفرق بين الحق والباطل ، وقال تعالى : وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ «٣» أي : علما لدنيا ، فالمعصية كلها تبعد العبد من الحضرة ، إن لم يتب ، والطاعة كلها تقرب من الحضرة. والتنعم إنما هو على قدر القرب ، ونقصانه على قدر البعد. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٩٦ من سورة الأعراف

(٢) الآية ٢٩ من سورة الأنفال.

(٣) من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

ولمّا كانت المعصية توجب تعجيل العقوبة أخبر تعالى عن سعة حلمه ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٤٧]

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)

يقول الحق جل جلاله : فَإِنْ كَذَّبُوكَ يا محمد ، فَقُلْ لهم : رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ يمهلكم على التكذيب ، فلا تغتروا بإمهاله فإنه يمهل ولا يهمل. ولذلك أعقبه بقوله : وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ حين ينزل بهم ، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين ، وذو بأس شديد على المجرمين ، فأقام مقامه :

وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ، لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم ، مع الدلالة على أنه لازب لا يمكن رده. قاله البيضاوي. وفى ابن عطية : ولكن لا تغتروا بسعة رحمته ، فإن له بأسا لا يرد عن القوم

المجرمين. هـ.

الإشارة : يؤخذ من تقديم الرحمة الواسعة على البأس الشديد أن جانب الرجاء أقوى من جانب الخوف لأن حسن الظن بالله مطلوب من العبد على كل حال ، لأن الرجاء وحسن الظن يستوجبان محبة العبد وإيحاشه إلى سيده بخلاف الخوف ، وهذا مذهب الصوفية : أن تغليب الرجاء هو الأفضل فى كل وقت ، ومذهب الفقهاء أن حال الصحة ينبغى تغليب الخوف لينزجر عن العصيان ، وحال المرض يغلب الرجاء إذ لا ينفع حينئذ ، فالصوفية يرون أن العبد معزول عن الفعل ، فليس له قدرة على فعل ولا ترك. وإنما ينظر ما تفعل به القدرة ، فهو كحال المستشرف على الموت. والفقهاء يرون أن العبد له كسب واختيار. واللّه تعالى أعلم.

ولا ينفع الاحتجاج بالقدر على كلا المذهبين ، كما قال تعالى :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤٨ الى ١٥٠]

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

قلت : (هلم) : اسم فعل ، وهو عند البصريين بسيط ، وعند الكوفيين مركب. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا فى الاحتجاج لأنفسهم : لَوْ شاءَ اللَّهُ عدم شركنا ما أَشْرَكْنا وَلا أشرك آباؤُنا ، وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ من البحائر وغيرها ، فلو لم نكن على حق مرضى عند اللّه ما أمهلنا ولا تركنا عليه فإمهاله لنا وتركه لنا على ما نحن فيه دليل على أنه أراده منا.

(١٨٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٨٤

والجواب عن شبهتهم : أنه خلاف ما أنزل اللّه على جميع رسله ، والحق تعالى لم يتركهم على ذلك ، بل بعث لهم الرسل يكلفهم بالخروج عنه ، والإرادة خلاف التكليف ، وأيضا : قولهم هذا لم يصدر منهم على وجه الاعتذار وإنما صدر منهم على وجه المخاصمة والاحتجاج. ولا يصح الاحتجاج بالقدر. والحاصل أنهم تمسكوا بالحقيقة ورفضوا الشريعة ، وهو كفر وزندقة ، إذ لا بد من الجمع بين الحقيقة فى الباطن ، والتمسك بما جاءت به الرسل من الشريعة فى الظاهر ، وإلّا فهو على باطل.

ولذلك ردّ اللّه تعالى عليهم بقوله : كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الرسل ، فتمسكوا بالحقيقة الظلمانية

، حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا أي : عذابنا الذي أنزلناه عليهم بتكذيبهم قُلْ لهم : هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ يدل على أن اللّه أمركم بالشرك ، وتحريم ما أحل ، وأنه رضى ذلك لكم ، فَتُخْرِجُوهُ أي : فتظهروه لَنا ، بل إِنْ تَتَّبِعُونَ فى ذلك إِلَّا الظَّنَّ ولا تحقيق عندكم ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ تكذبون على اللّه تعالى ، وفيه دليل على أن الظن لا يكفى فى العقائد.

قُلْ لهم : فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ على عباده ، الْبالِغَةُ ، حيث بعث الرسل مبشرين ومنذرين ، وأمروا بتوحيد اللّه وطاعته ، فكل من خالفهم قامت الحجة عليه ، هذا باعتبار التشريع الظاهر ، وأما باعتبار باطن الحقيقة ، فالأمور كلها بيد اللّه يضل من يشاء بعدله ، ويهدى من يشاء بفضله ، فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين ، لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ «١» فقول المشركين : فَلَوْ شاءَ الله ... إلخ ، حق فى نفسه ، لكنهم لم يعذروا لإهمالهم الشريعة.

قُلْ هَلُمَّ أي : أحضروا ، شُهَداءَكُمُ أي : كبراءكم وأئمتكم ، الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا ، استحضرهم ليلزمهم الحجة ، ويظهر بانقطاعهم ضلالهم ، وألّا متمسك لهم فى ذلك. ثم قال لنبيه – عليه الصلاة والسلام – : فَإِنْ شَهِدُوا بشىء من ذلك ، فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ أي : لا تصدقهم وبيّن لهم فساده وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا ، والأصل أن يقول : ولا تتبع أهواءهم ، فوضع الظاهر موضع المضمر ، للدلالة على أن مكذب الآية متبع للهوى لا غير ، وأن متبع الحق لا يكون إلا مصدقا لها. وَتتبع أيضا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ كعبدة الأوثان ، وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ يجعلون له عديلا ومثيلا.

الإشارة : اعلم أن الحق جل جلاله كلف عباده فى هذه الدار ، بالقيام بوظيفتين : الشريعة والحقيقة ، الشريعة محلها الظواهر ، والحقيقة محلها البواطن ، الشريعة تقتضى التكليف ، والحقيقة تقتضى التعريف ، الشريعة شهود الحكمة ، والحقيقة شهود القدرة. وجعل الشريعة رداء الحقيقة ولباسا لها ، ثم جعل سبحانه فى القلب عينين ، وتسمى

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٨٥

البصيرة ، إحداهما تنظر للحكمة فتقوم بالشرائع ، والأخرى تنظر للقدرة فتقوم بالحقائق. فقوم فتحوا عين الحقيقة وأعملوا عين الشريعة ، وهم أهل الكفر والزندقة ، ولذلك قالوا : لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا ، وقوم فتحوا عين الشريعة وأهملوا عين الحقيقة ، وهم عوام المسلمين من أهل اليمين ، فلذلك طال خصمهم للمقادير الأزلية مع إقرارهم بها ، فإن أنكروها فقد عميت بصيرتهم.

وقوم أحبهم اللّه ، ففتح لهم عين الحقيقة ، فأسندوا الأفعال كلها إلى اللّه ولم يروا معه سواه ، فتأدبوا فى الباطن مع الأشياء كلها ، وفتح لهم عين الشريعة فقاموا بوظائف العبودية على المنهاج الشرعي ، وهم الأولياء العارفون بالله ، فمن تمسك بالحقائق العلمية دون الشرائع كان زنديقا ، ومن تمسك بالشرائع دون الحقائق كان فاسقا ، ومن تمسك بهما كان صدّيقا ، فمن رام التمسك بالشرائع ، ولم تسعفه الأقدار ، فإن كان عن سكر وجذب فهو معذور ، وإن كان عن كسل فهو مخذول ، وإن كان عن إنكار لها فهو مطرود معدود من حزب الشيطان ، والعياذ بالله.

ثم بيّن لهم ما حرم عليهم ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٥١ الى ١٥٣]

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

قلت : (تعالوا) : أمر من التعالي ، وأصله : أن يقوله من كان فى علو لمن كان فى سفل ، فاتسع فيه بالتعميم فى كل أمر بالقدوم ، و(ألّا تشركوا) : فيه تأويلات أحدها : أن تكون مفسرة لا موضع لها ، و(لا) : ناهية جزمت الفعل ، أو تكون مصدرية فى موضع رفع ، أي : الأمر ألّا تشركوا ، و(لا) : نافية حينئذ ، أو بدل من «ما» و(لا) : زائدة ، أو على حذف الإغراء ، أي : عليكم ألا تشركوا.

قال ابن جزى : والأحسن أن يكون ضمّن حَرَّمَ معنى وصّى ، وتكون «أن» مصدرية ، و«لا» نافية ، ولا تفسد المعنى لأن الوصية فى المعنى تكون بتحريم وتحليل وبوجوب وندب ، ويدل على هذا قوله بعد ذلك :

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٨٦

ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ولا ينكر أن يريد بالتحريم – الوصية لأن العرب قد تذكر اللفظ الخاص ، وتريد به العموم ، كما تذكر اللفظ العام وتريد به الخصوص ، فتقدير الكلام على هذا : قل تعالوا أتل ما وصاكم به ربكم ، ثم أبدل منه ، على وجه التفسير والبيان ، فقال : ألّا تشركوا ، ووصاكم بالإحسان بالوالدين ، وهكذا .. فجمعت الوصية ترك الإشراك وفعل الإحسان بالوالدين ، وما بعد ذلك. انظر بقية كلامه.

وإنما قال الحق سبحانه : (من إملاق) ، وقدّم الكاف فى قوله (نرزقكم) ، وفى الإسراء قال : خَشْيَةَ إِمْلاقٍ «١» ، وأخر الكاف لأن ما هنا نزل فى فقراء العرب ، فكان الإملاق نازلا بهم وحاصلا لديهم ، فلذلك قال : مِنْ إِمْلاقٍ ، وقدم الخطاب لأنه أهم. وفى الإسراء نزلت فى أغنيائهم ، فكانوا يقتلون خوفا من لحوق الفقر ، لذلك قال : خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ، وقدم الغيبة فقال : نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ حين نخلقهم وإياكم.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : تَعالَوْا أي : هلموا ، أَتْلُ أي : أقرأ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، واجتمعت عليه الشرائع قبلكم ، ولم ينسخ قط فى ملة من الملل ، بل وصى به جميع الملل ، هو أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً بل توحدوه وتعبدوه وحده ، وَأن تحسنوا بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ، ولا تسيئوا إليهما لأن من أساء إليهما لم يحسن إليهما. وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ أي : من أجل الفقر الحاصل بكم ، وكانت العرب تقتل أولادها خوفا من الفقر فنزلت فيهم ، فلا يفهم منه إباحة قتلهم لغيره ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، فلا تهتموا بأمرهم حتى تقتلوهم.

وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ كبار الذنوب ما ظَهَرَ مِنْها للناس وَما بَطَنَ فى خلوة ، أو : ما ظهر منها على الجوارح ، وما بطن فى القلوب من العيوب ، وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ كالقود ، وقتل المرتد ، ورجم المحصن. قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : زنى بعد إحصان ، وكفر بعد إيمان ، وقتل نفس بغير نفس» «٢». ذلِكُمْ المتقدم ، وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، فتتدبرون فيما ينفعكم وما يضركم وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي

بالخصلة التي هِيَ أَحْسَنُ

كحفظه وتثميره. والنهى عن القرب : يعم وجوه التصرف ، وفيه سد الذريعة لأنه إذا نهى عن القرب كان الأكل أولى ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ

وهو البلوغ مع الرشد ، بحيث يعرف مصالح نفسه ويأمن عليه التبذير ، فيدفع له ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ

بالعدل والتوفية ، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها

إلا ما يسعها ولا يعسر عليها ، ولمّا أمر بالقسط فى الكيل والوزن ، وقد علم أن القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجرى فيه الحرج – أمر بالوسع فى ذلك وعفا عما سواه.

---

(١) الآية ٣١ من سورة الأسراء.

(٢) أخرجه البخاري فى (الديات ، باب قول اللّه تعالى : «أن النفس بالنفس») ومسلم فى (القسامة ، باب ما يباح به دم المسلم). عن ابن مسعود. رضى اللّه عنه.

وَإِذا قُلْتُمْ

فى حكومة ونحوها ، فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ

المقول له فى شهادة أو حكومة ذا قُرْبى

فيجب العدل فى ذلك ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا

أي : ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع ، أو ماعاهدتم مع عباده ، ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

تتعظون به.

وَأَنَّ هذا أي : ما تقدم فى السورة كلها ، صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ لأن السورة بأسرها إنما هى فى إثبات التوحيد ، والنبوة ، وبيان الشريعة ، وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ الأديان المختلفة والطرق التابعة للهوى ، فإن مقتضى الحجة واحد ، ومقتضى الهوى متعدد لاختلاف الطبائع والعادات ، ولذلك تفرقت. والمراد بالطرق :

اليهودية والنصرانية وغيرهما من الأديان الباطلة ، ويدخل فيه البدع والأهواء ، وفى الحديث أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم خط خطا ، ثم قال : «هذا سبيل اللّه» ، ثم خط خطوطا عن يمينه وشماله ، ثم قال : «هذه سبل ، وعلى كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليها» «١». ذلِكُمْ الاتباع وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الضلال والتفرق عن الحق. وباللّه التوفيق.

الإشارة : قد وصى الحق – جل جلاله – على التخلص من الشرك ، جليه وخفيه ، ولا يكون إلا بتحقيق الإخلاص والتوحيد الخاص. وهو مطلب الصوفية ، وبالإحسان بالوالدين الروحانيين والبشريين ، أي : والد الأرواح – وهو الشيخ المربى – ووالد الأشباح ، ولا بد للمريد من طاعتهما ، إلّا أنه يقدم طاعة الشيخ ، كما تقدم عن الجنيد فى (سورة النساء).

ووصى بعدم قتل الأولاد ، وهم المواهب والعلوم بإهمال القلب فى الغفلة ، وعدم قرب الفواحش : الظاهرة الحسية ، والباطنية القلبية كالحسد ، والكبر ، وحب الجاه والدنيا ، وسائر العيوب. وعدم قتل النفس بالانهماك فى الهوى والغفلة حتى تموت بالجهل عن المعرفة. وعدم قرب مال اليتيم ، وهو الذي ليس له شيخ ، فإن الغالب عليه عدم المسامحة ، وسيأتى عند قوله تعالى : قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ «٢» ، إشارة لها أرق من هذه ، وعلى التوفية فى الأمور كلها لأن الصوفي من أهل الصفاء والوفاء ، وعلى الصدق فى الأقوال والأفعال والأحوال. وعلى الوفاء بالعهد ، وأعظمها عهد الشيوخ المربين ، وعلى اتباع طريق السلوك الموصلة للحضرة وهى ما عينه الشيوخ للمريدين ، فلا يتعدى نظرهم ولو لحظة. وباللّه التوفيق.

ولما ذكر ما وصى به هذه الأمة ، ذكر ما وصى به بنى إسرائيل ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٥٤]

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤)

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند ١/ ٤٣٥.

(٢) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٨٨

قلت : (ثم) : هنا للترتيب الإخبارى ، وقال ابن جزى : هذه الوصية قديمة لكل أمة على لسان نبيها ، فصح الترتيب. وقال البيضاوي : (أو) : للتفاوت فى الرتبة ، كأنه قيل : ذلكم وصاكم به قديما وحديثا ، ثم أعظم من ذلك :

أنا آتينا موسى الكتاب ... إلخ. وهو عطف على (وصاكم) ، و(تماما ، وتفصيلا) : حالان ، أو علتان ، أو مصدران.

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ نخبرك أنا آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ التوراة ، تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ القيام به من بنى إسرائيل ، ويدل عليه قراءة : (أحسنوا) ، أي : تماما للنعمة على العاملين به ، أو تماما على موسى الذي أحسن القيام به ، أي : آتيناه الكتاب تفضلا وإتماما للنعمة جزاء على ما أحسن من طاعة ربه وتبليغ رسالته ، ففاعل أحسن : ضمير موسى. أو : تَماماً أي : إكمالا على ما أحسن اللّه به إلى عباده ، فالفاعل على هذا : ضمير اللّه تعالى ، وَتَفْصِيلًا أي : تبيينا لِكُلِّ شَيْءٍ يحتاجون إليه فى الدين. وَهُدىً أي : هداية للظواهر ، وَرَحْمَةً للقلوب ، لَعَلَّهُمْ أي : بنى إسرائيل ، بِلِقاءِ رَبِّهِمْ للجزاء ، يُؤْمِنُونَ إيمانا صحيحا ، وهو اللقاء بالأجسام والأرواح ، والنعيم أو العذاب للأشباح. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من أحسن عبادة ربه فى الظاهر ، وحقق عبوديته فى الباطن ، أتم اللّه عليه نعمته بشهود ذاته وأنوار صفاته ، ووهب له علوما لدنية تفصل له ما أشكل ، يكون له هداية لزيادة الترقي ، ورحمة يتهيأ بها قلبه لوحى الإلهام والتلقي. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر فضل كتابه العزيز ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٥٥ الى ١٥٧]

وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى

مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)

قلت : (أن تقولوا) : مفعول له ، أي : كراهة أن تقولوا.

يقول الحق جل جلاله : وَهذا القرآن كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ كثير النفع فَاتَّبِعُوهُ فى الأصول والفروع ، وَاتَّقُوا الشرك والمعاصي ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ببركة اتباعه فتحيا به قلوبكم ، وتنتعش به

(١٨٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٨٩

أرواحكم ، وإنما أنزلناه كراهة أَنْ تَقُولُوا يوم القيامة فى الحجة : إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا اليهود والنصارى ، وإنما خصهما بالذكر لشهرتهما دون الكتب السماوية ، وَإِنْ كُنَّا وإنه ، أي : الأمر والشأن ، كنا عَنْ دِراسَتِهِمْ أي : قراءتهم لَغافِلِينَ أي : كنا غافلين عن قراءة أهل الكتاب ، لا ندرى ما هى ولا نعرف مثلها ، أو لم ندرس مثل دراستهم ، ولم نعرف ما درسوا من الكتب ، فلا حجة علينا ، فقد قامت الحجة عليكم بنزول القرآن.

أَوْ كراهة أن تَقُولُوا أيضا : لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ كما أنزل إليهم ، لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا ، ولذلك تلقفنا فنونا من العلم ، كالقصص والأشعار والخطب والأنساب ، مع كوننا أميين ، قال تعالى لهم : فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وهو القرآن حجة واضحة تعرفونها وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لمن تدبره وعمل به ، فَمَنْ أَظْلَمُ أي : لا أحد أظلم مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ بعد أن عرف صحتها ، وَصَدَفَ أعرض عَنْها ، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ ألمه وقبحه ، بِما كانُوا يَصْدِفُونَ أي : يعرضون ويصدون عنها.

الإشارة : جعل اللّه رحمة القلوب وحياة الأرواح فى شيئين : فى التمسك بالقرآن العظيم وتدبر معانيه ، واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وفى التحصن بالتقوى جهد استطاعته ، فبقدر ما يتحقق بهذين الأمرين تقوى حياة قلبه وروحه وسره ، حتى يتصل بالحياة السرمدية ، وبقدر ما يخل بهما يحصل له موت قلبه وروحه ، والإنسان إنما فضل وشرف بحياة قلبه وروحه ، لا بحياة جسمه ، ولا حجة له أن يقول : كنت مريضا ولم أجد من يعالجنى ، ففى كل زمان رجال تقوم الحجة بهم على عباد اللّه ، فيقال لهم : قد جاءكم بينة من ربكم ، وهو الولي العارف ، وهدى ورحمة لأهل عصره ، لمن تمسك به وصحبه ، وأما من أعرض عنه بعد معرفته فلا أحد أظلم منه ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها ... الآية.

ثم هددّ أهل الإعراض ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٥٨]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)
يقول الحق جل جلاله : هَلْ يَنْظُرُونَ أي : ما ينتظر أهل مكة إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ لقبض أرواحهم ، أو بالعذاب ، لأجل كفرهم ، وهم لم يكونوا ينتظرون ذلك ، ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا بالمنتظرين ، أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أي : أمره بالعذاب ، أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يعنى : أشراط الساعة.

(١٨٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٩٠
وعن حذيفة والبراء بن عازب : كنا نتذاكر الساعة ، إذ أشرق علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : ما تذاكرون؟ قلنا :
نتذاكر الساعة ، فقال : «إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدجال ودابة الأرض ، وخسفا بالمشرق ، وخسفا بالمغرب ، وخسفا بجزيرة العرب ، والدخان ، وطلوع الشمس من مغربها ، ويأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى ، ونارا تخرج من عدن» «١».
يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ ، وهو طلوع الشمس من مغربها ، كما فى حديث الصحيحين «٢» ، قال الأقليشى : وذلك أن اللّه تعالى ، إذا أراد طلوعها من مغربها ، حبسها ليلة تحت العرش ، فكلما سجدت واستأذنت لم يجر لها جواب ، حتى يحبسها مقدار ثلاث ليال ، فيأتيها جبريل عليه السّلام فيقول : إن الرب تعالى يأمرك أن ترجعى إلى مغربك فتطلعى منه ، وأنه لا ضوء لك عندنا ولا نور ، فتبكى عند ذلك بكاء يسمعها أهل السبع سموات ، ومن دونها ، وأهل سرادقات العرش وحملته من فوقها ، فيبكون لبكائها مما يخالطهم من خوف الموت ، وخوف يوم القيامة ، قال : فيبيت الناس ينتظرون طلوعها من المشرق ، فتطلع الشمس والقمر خلف أقفيتهم من المغرب ، أسودين مكدّرين ، كالقارتين ، ولا ضوء للشمس ولا نور للقمر ، فيتصايح أهل الدنيا ، وتذهل الأمهات عن أولادها ، والأحبة عن ثمرة قلوبها ، فتشتغل كل نفس بنفسها ، ولا ينفع التوحيد حينئذ. هـ.
وهو معنى قوله تعالى : يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها كالمحتضر إذا صار الأمر عيانا ، وإنما ينفع الإيمان بالغيب ، وقد فات يومئذ ، فلا ينفع الإيمان نفسا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ، ولا تنفع التوبة من المعاصي وترك الواجبات حينئذ لقوله : أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً أي : لا ينفع نفسا مؤمنة لم تكن كسبت خيرا قبل ذلك اليوم ، حيث كانت فرطت فيه قبل ، وينفع اكتسابه بعد.
والحاصل : أن طلوع الشمس من مغربها يغلق بعده باب التوبة فلا يقبل الإيمان من كافر ، ولا التوبة من عاص ، وأما الإيمان المجرد عن العمل ، إذا كان حاصلا قبل ذلك اليوم ، فإنه ينفع على مذهب أهل

السنة ، وكذلك العاصي بالبعض ينفعه بعض الذي كان يعمله ، كالزانى مثلا ، إذا كان يصلى ، فتنفعه صلاته ويعاقب على العصيان ، وهكذا ، والمنفي قبوله : إنما هو الخير المتروك قبل ذلك اليوم ، فلا ينفع استدراكه بعد.

ثم قال تعالى : قُلِ انْتَظِرُوا إتيان أحد الثلاثة الملائكة بعذابكم ، أو أمر اللّه تعالى بإهلاككم ، أو بعض آياته ، إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ذلك ، لنا الفوز وعليكم الويل.

الإشارة : ما ينتظر الغافلون والمنهمكون فى اللذات والشهوات والإعراض عن اللّه إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم فجأة ، فيموتون على الغفلة ، فتنزل بهم الحسرة والندم ، وقد زلت القدم بهم ، أو يأتى أمر اللّه بطردهم والطبع على قلوبهم ، فلا ينفعهم وعظ ولا تذكير ، أو يأتى بعض آيات ربك مصيبة أو داهية تثقل قلوبهم عن

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم فى (الفتن ، باب فى الأمارات التي تكون قبل الساعة).

(٢) عن أبي هريرة رضى اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعين ...» الحديث بطوله أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الأنعام) ومسلم فى (الإيمان ، باب : إتيان الزمن الذي لا يقبل اللّه فيه الإيمان).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٩١

التوجه إلى الله ، وجوارحهم عن طاعة الله. فالغافل والعاصي بين هذه الثلاثة ، إن لم يقلع ويتب. والله تعالى أعلم.

ثم أمرهم بالإعراض عن أهل الإعراض ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٥٩]

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ فآمنوا بالبعض وكفروا بالبعض ، وهم اليهود والنصارى ، وقيل : أهل الأهواء والبدع ، فيكون إخبارا بغيب ، وفى الحديث أن رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة. قيل : يا رسول الله ، وما تلك الواحدة؟ قال : «من كان على ما أنا عليه وأصحابى».

وقرىء : «فارقوا ، أي : تركوا دينهم ، وَكانُوا شِيَعاً جمع شيعة ، أي : فرقّا متشيعة ، كل فرقة تتشيع لمذهبها وتتشيع إمامها ، أي : تنتسب إليه. لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ أي : أنت برىء منهم ، فلست فى شيء من السؤال عنهم وعن تصرفهم ، أو عن عقابهم ، وقيل : هو نهى عن التعرض لهم فيكون منسوخا بآية السيف ، إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ يتولى جزاءهم ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ من التفرق فيعاقبهم عليه.

الإشارة : الافتراق المذموم ، إنما هو فى الأصول كالتوحيد وسائر العقائد ، فقد افترقت المعتزلة وأهل السنة فى مسائل منه ، فخرج من المعتزلة اثنان وسبعون فرقة ، وأهل السنة هى الفرقة الناجية ، وأما الاختلاف فى الفروع فلا بأس به ، بل هو رحمة لقوله – عليه الصلاة والسلام – : «خلاف أمتى رحمة» ، كاختلاف القراء فى الروايات ، واختلاف الصوفية فى كيفية التربية ، فكل ذلك رحمة وتوسعه على الأمة المحمدية ، إذ كل من أخذ بمذهب منها فهو سالم ، مالم يتبع الرخص. وقال بعضهم : ما دامت الصوفية بخير ما افترقوا ، فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم. ومعنى ذلك : إنما هو فى التناصح والإرشاد والنهى بعضهم لبعض عما لا يليق فى طريق السير ، فإذا سكت بعضهم عن بعض مداهنة وحياء فلا خير فيهم ، وأما قلوبهم فلا بد أن تكون متفقة متوددة ، لا بغض فيها ولا تحاسد ، وإلا لم يكونوا صوفية. واللّه تعالى أعلم.

ثم رغّب فى الخير قبل فوات إبانه ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٦٠]

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٩٢

يقول الحق جل جلاله : مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ قولية أو فعلية أو قلبية ، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها من الحسنات ، فضلا من اللّه ، وهذا أقل ما وعد من الأضعاف ، وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة ، وبغير حساب ، ولذلك قيل :

المراد بالعشر : الكثرة دون العدد ، وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها قضية للعدل ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ بنفس الثواب وزيادة العقاب.

الإشارة : إنما تضاعف أعمال الجوارح وما كان من قبل النيات ، وأما أعمال القلوب فأجرها بغير حساب ، قال تعالى : إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ «١» ، وقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة». وقال الشاعر :

كلّ وقت من حبيبى قدره كألف حجّه

وقد تقدم هذا فى سورة البقرة «٢».

ثم إن تضعيف الحسنات إنما يكون لمن تمسك بالدين القيم ، وهو الذي أشار إليه بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٦١]

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١)

قلت : (دينا) : بدل من محل «صراط» لأن الأصل : هدانى صراطا مستقيما دينا قيما ، و(قيّما) : فيعل من القيام ، فهو أبلغ من مستقيم ، ومن قرأ بكسر القاف : فهو مصدر وصف به للمبالغة ، و(ملة إبراهيم) : عطف بيان لدين ، و(حنيفا) : حال من إبراهيم.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ بالوحى والإرشاد إلى ما نصب من الحجج والآيات ، دِيناً قِيَماً مستقيما يوصل من تمسك به إلى جوار الكريم ، فى حضرة النعيم ، وهو مِلَّةَ إِبْراهِيمَ أي : دينه ، حال كونه حَنِيفاً : مائلا عما سوى اللّه ، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وهو تعريض لقريش ، الذين يزعمون أنهم على دينه ، وقد أشركوا بالله عبادة الأوثان.

الإشارة : قد أخذ الصوفية من هذا الدين القيم ، الذي هدى اللّه إليه نبيه – عليه الصلاة والسلام – خلاصته ولبابه ، فأخذوا من عقائد التوحيد : الشهود والعيان على طريق الذوق والوجدان ولم يقنعوا بالدليل والبرهان ، وأخذوا من الصلاة : صلاة القلوب ، فهم على صلاتهم دائمون مع صلاة الجوارح ، على نعت قوله :

---

(١) الآية ١٠ من سورة الزمر.

(٢) راجع إشارة الآية ١٩٧ من سورة البقرة.

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ «١» وأخذوا من الزكاة : زكاة نفوسهم بالرياضة والتأديب وإضافة الكل إليه. (العبد وما كسب لسيده) ، مع أداء الزكاة الشرعية لمن وجبت عليه. وكان الشيخ أبو العباس السبتي رضى اللّه عنه يعطى تسعة أعشار زرعه ، ويمسك العشر لنفسه.

وأخذوا من الصيام : صيام الجوارح كلها ، مع صيام القلب عن شهود السّوى. وأخذوا من الحج : حج القلوب إلى حضرة علام الغيوب ، فالكعبة تشتاق إليهم وتطوف بهم ، كما تقدم فى آل عمران. ومن الجهاد : الجهاد الأكبر ، وهو جهاد النفوس ، وهكذا مراسم الشريعة كلها عندهم صافية خالصة من

الشوائب ، بخلاف غيرهم ، فلم يأخذ منها إلا قشرها الظاهر وعمل الأشباح ، فهى صور قائمة لا روح فيها لعدم الإخلاص والحضور فيها. واللّه تعالى أعلم.

ثم بيّن مقام الإخلاص ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٦٢ الى ١٦٤]

قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)

قلت : (ربّا) : حال من (غير).

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي أي : عبادتى كلها ، وقرباتى أو حجى ، وَمَحْيايَ وَمَماتِي أي : وعملى فى حياتى ، وعند موتى من الإيمان والطاعة ، أو الحياة والممات أنفسهما ، لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ أي : هى خالصة لله لا أشرك فيها غيره ، وَبِذلِكَ أي : بذلك القول والإخلاص ، أمرنى ربى ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ لأن إسلام كل نبى متقدم على إسلام أمته قُلْ لهم : أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا فأشرك مع اللّه ، وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ لأن كل شىء مربوب لا يصلح للربوبية. وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم. وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ من شرك أو غيره إِلَّا عَلَيْها وزره ، فلا ينفعنى ضمانكم وكفالتكم من عقاب ربى ، وهو رد على الكفار حيث قالوا له : اعبد آلهتنا ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها فى دنياك وأخراك ، ثم أوضح ذلك بقوله : وَلا تَزِرُ أي : تحمل نفس وازِرَةٌ أي : آثمة وِزْرَ نفس أُخْرى أي : لا يحمل أحد ذنوب أحد ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ بالبعث والحساب ، فَيُنَبِّئُكُمْ ، أي : يخبركم بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ من أمر الدين فيبين الرشد من الغى ، والمحق من المبطل.

الإشارة : الإخلاص سر من أسرار اللّه ، يودعه قلب من أحب من عباده ، وهو إخلاص العبودية لله وحده ، ولا يتحقق ذلك للعبد إلا بعد تحرره من رق الهوى وخروجه من سجن وجود نفسه ، وهذا شىء عزيز. ولذلك قيل

---

(١) الآية ٢ من سورة المؤمنون.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٩٤

وقال الشيخ أبو طالب المكي رضى اللّه عنه : الإخلاص عند المخلصين : إخراج الخلق من معاملة

الخالق ، وأول الخلق :

النفس ، والإخلاص عند المحبين : ألا يعمل عملا لأجل النفس ، وألّا يدخل عليه مطالعة العوض ، أو تشوف إلى حظ طبع ، والإخلاص عند الموحدين : خروج الخلق من النظر إليهم ، أي : لا يرون مع اللّه غيره فى الأفعال ، وترك السكون إليهم ، والاستراحة إليهم فى الأحوال. هـ.

وبالإخلاص تتفاوت الدرجات ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٦٥]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ أي : يخلف بعضكم بعضا ، أو خلفاء اللّه فى أرضه تتصرفون فيها بإذنه على أن الخطاب عام ، أو خلفاء الأمم السابقة ، على أن الخطاب للمسلمين ، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ فى الشرف والغناء والقوة والجاه ، وفى العلوم والأعمال والأحوال والإخلاص والمعارف ، وغير ذلك مما يقع به التفاضل بين العباد ، لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ أي : ليختبر شكركم على ما أعطاكم ، وأعمالكم فيما مكنكم فيه من الخلافة.

إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ لمن كفر نعمه ، إما فى الدنيا لمن عجل أخذه لأن كل آت قريب ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لمن شكر نعمه وآمن وعمل بطاعته ، جمع بين التخويف والترجية ليكون العبد بينهما. وباللّه التوفيق.

الإشارة : من شرف هذا الآدمي أن جعله خليفة عنه ، فى ملكه ، يتصرف فيه بنيابته عنه ، ثم إن هذا التصرف يتفاوت على قدر الهمم ، فبقدر ما ترتفع الهمة عن هذا العالم يقع للروح التصرف فى هذا الوجود ، فالعوام إنما يتصرفون فيما ملّكهم اللّه من الأملاك الحسية. والخواص يتصرفون بالهمة فى الوجود بأسره ، وخواص الخواص يتصرفون باللّه ، أمرهم بأمر اللّه ، إن قالوا لشيء : كن – يكون بإذن اللّه ، مع إرادة اللّه وسابق علمه وقدره ، وإلا فالهمم لا تخرق أسوار الأقدار ، والحاصل : أن من بقي مع الأكوان شهودا وافتقارا ، كان محبوسا معها ، ومن كان مع المكون كانت الأكوان معه ، يتصرف فيها بإذن اللّه ، خليفة عنه فيها ، وهم متفاوتون فى ذلك كما تقدم.

وقال تعالى : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ أي : خلفاء عنه تتصرفون فى الوجود بأسره بأرواحكم ، وأنتم فى الأرض بأشباحكم ، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ من أقطاب وأوتاد ونجباء ونقباء وغير ذلك ، مما هو مذكور فى محله. خرطنا اللّه فى سلكهم ومنحنا ما منحهم ، بمنّه وكرمه ، وبسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم حبيبه ونبيه. آمين – والحمد لله رب العالمين.

سورة الأعراف

هى مكية إلا ثمانى آيات ، من قوله تعالى : وَسْئَلْهُمْ إلى قوله تعالى : وَإِذْ نَتَقْنَا ، وقيل : إلى قوله : وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ. وآياتها : مائتان وخمس. قاله البيضاوي. ومضمنها : الحث على اتباع ما أنزله على نبيه من التوحيد والأحكام ، والتحذير من مخالفته ومتابعة الشيطان ، وذكر وبال من تبعه من القرون الماضية ، وما لحقهم من الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، تتميما لقوله : إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «١».

وافتتح السورة بالرموز التي بينه وبين حبيبه ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المص (١)

إما أن تكون مختصرة من المصطفى ، على عادة العشاق يرمزون إلى ذكر بعض حروف المحبوب ، اتقاء الرقباء ، أي : يا أيها المصطفى المختار لرسالتنا هذا كتاب أنزل إليك ، وإما أن تشير إلى العوالم الثلاثة : الجبروت والملكوت والملك. وزاد هنا الصاد ، إشارة إلى صدقه فيما يخبر به من علم الغيوب ، ولذلك ذكر هنا جملة من القصص والأخبار.

وقال الورتجبي : كان اللّه – تبارك وتعالى – إذا أراد أن يتكلم مع نبيه محمد صلّى اللّه عليه وسلّم بقصص الأنبياء ، وما جرى عليهم فى الدهور والأعصار ، وشأنه معهم فى الأسرار والحقائق والشرائع ، وأراد أن يخصه صلّى اللّه عليه وسلّم بشريعته ، وما يكون من طريقته الخاصة إلى حضرته ، ويخبره بما كان وما يكون ، أشار إلى هذه الأشياء بحروف التهجي ، وأعلمه سر ذلك بخفي الإشارة ولطيف الخطاب ، وعلم تعالى أنه عليه الصلاة والسلام يعرف بتلك الإشارة مراده من علم سابق ، ونبأ صادق ، وعلم تعالى أن عموم أمته لا تعرف تلك الإشارة ، فعبّر عنها بسورة طويلة من القرآن ليعرفوا مراده سبحانه من خطابه ، وخواص أمته ربما تطلع على سر بعضها ، كالصحابة والتابعين والمتقدمين من العلماء والأولياء ، كأنّ حروف المقطعات رموز ومعانى سور القرآن ، لا يعرف تلك الرموز إلا الربانيون والأحبار من الصديقين. هـ.

---

(١) من الآية ١٦٥ من سورة الأنعام. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٩٦

ثم ذكر حكمة إنزال الكتاب ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ٢]

كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)

قلت : (كتاب) : خبر ، أي : هذا كتاب ، و(أنزل) : صفته ، والحرج : الضيق ، و(لتنذر) : متعلق بأنزل ، أو بلا يكن ، لأنه إذا أيقن أنه من عند اللّه جسر على الإنذار ، وكذا إذا لم يخفهم ، و(ذكرى) : يحتمل النصب بإضمار فعل ، أي :

لتنذر ولتذكر ذكرى ، والجر عطف على (لتنذر) ، أي : للإنذار والتذكير ، والرفع عطف على (كتاب).

يقول الحق جل جلاله : هذا كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ من ربك ، فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ أي : ضيق وثقل من أجل تبليغه لمن يكذب به ، مخافة أن تكذّب فيه ، أو مخافة أن تقصر على القيام بتبليغه ، أو بحقوقه ، وتوجيه النهى إلى الحرج للمبالغة ، كقولك : لا أرينك هاهنا ، كأنه قال : فلا يحرج صدرك منه ، وإنما أنزلناه إليك لتنذر به من بلغه ، وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ أي : وتذكيرا وموعظة للمؤمنين لأنهم هم المنتفعون بمواعظه.

الإشارة : تذكير أهل الإنكار ووعظهم يحتاج إلى سياسة كبيرة وحلم كبير وصبر عظيم ، لا يطيقه إلا الأكابر من أهل العلم باللّه كالأنبياء والصديقين ، لسعة معرفتهم ، واتساع صدورهم لحمل الجفاء وتحمل الأذى ، ونهيه تعالى لنبيه – عليه الصلاة والسلام – عن ضيق صدره : تشريع لورثته من بعده الداعون إلى اللّه – عز وجل وإلّا فهو صلّى اللّه عليه وسلّم بحر واسع ، لا تكدره الدّلاء ، كما قال البوصيرى.

فهو البحر والأنام إضاء «١» واللّه تعالى أعلم.

ثم حضّ على الإتباع ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ٣]

اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (٣)

قلت : (قليلا) : صفة لمصدر ، أو زمان محذوف ، أي : تتذكرون تذكرا قليلا ، أو زمانا قليلا ، والعامل فيه :

تذكرون ، و(ما) : زائدة لتأكيد القلة.

---

(١) الإضاءة : جمع إضاءة ، وهى : الغدران – جمع غدير. قلت : وهذا شطر بيت ، أوله : لا تقس بالنبيّ فى الفضل خلقا.

يقول الحق جل جلاله : اتَّبِعُوا أيها الناس ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ من أحكام القرآن والسنة إذ كله وحي يوحى ، وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى «١» ، وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أي : اللّه ، أَوْلِياءَ من الجن والإنس يضلونكم عن دينه ، أو : ولا تتبعوا من دون ما أنزل إليكم أولياء ، تتبعونهم فيما يأمرونكم به وينهونكم ، وتتركون ما أنزل إليكم من ربكم ، قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ : تتعظون حيث تتركون دين اللّه وتتبعون غيره ، بعد كمال إنذاره ووضوح تذكاره ، وذلك لانطماس البصيرة وعمى القلوب ، والعياذ باللّه.

الإشارة : اتباع الحبيب فى أمره ونهيه يدل على صحة دعوى المحبة ، ومخالفته يدل على بطلانها.

تعصى الإله وأنت تظهر حبّه هذا محال فى القياس بديع

لو كان حبّك صادقا لأطعته إنّ المحب لمن يحبّ مطيع «٢»

وجمع المحبة فى محبوب واحد يدل على كمالها ، وتفرق المحبة يدل على ضعفها ، ولذلك قال الشاعر :

كانت لقلبى أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى

فلا تجتمع المحبة فى محبوب واحد إلا بعد كمال معرفة المحبوب ، وشهود أنوار جماله وكمال أسراره. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من لم يتبع ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤ الى ٧]

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (٤) فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (٥) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنَّا غائِبِينَ (٧)

قلت : (كم) : خبرية ، مفعول (أهلكنا) ، وهو على حذف الإرادة ، أي : فى الحال أردنا إهلاكها ، و(بياتا أو هم قائلون) : حالان ، أي : بائتين أو قائلين ، وأغنى الضمير فى (هم) عن واو الحال.

---

(١) الآية ٥ من سورة النجم.

(٢) البيتان لعبد اللّه بن المبارك.

يقول الحق جل جلاله : كثيرا من القرى أَهْلَكْناها لما عصت أمرنا ، وخالفت ما جاءت به رسلنا ، فَجاءَها بَأْسُنا أي : عذابنا بَياتاً أي : ليلا ، كقوم لوط قلبت مدينتهم ، عاليها سافلها ، وأرسلت عليهم الحجارة بالسّحر ، أَوْ هُمْ قائِلُونَ نصف النهار ، كقوم شعيب ، نزلت عليهم نار فأحرقتهم ، وهو عذاب يوم الظلة ، وإنما خص الوقتين لأنهما وقت دعة واستراحة ، فيكون مجيىء العذاب فيهما أفظع.

فَما كانَ دَعْواهُمْ أي : دعاؤهم واستغاثتهم حين جاءهم بأسنا ، إِلَّا أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ أي : إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه ، تحسرا ، أو : ما كان دعاؤهم إلا قولهم : .. يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ ، فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ «١» : ميتين ، فإذا أحييناهم وبعثناهم من قبورهم ، فو اللّه فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ عن قبول الرسالة وإجابة الرسل ، وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ عما أجيبوا به ، والمراد بهذا السؤال : توبيخ الكفرة وتقريعهم ، وأما قوله تعالى : وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ «٢» فالمنفى : سؤال استعلام لأن اللّه أحاط بهم علما ، أو الأول فى موقف الحساب ، وهذا عند حصول العقاب.

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ أي : على الرسل والأمم ، فنقص على الرسل ما قوبلوا به من تصديق أو تكذيب ، وعلى الأمم ما قابلوا به الرسل من تعظيم أو إنكار ، أو فلنقص على الرسل ما علمنا من قومهم حين يقولون : لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ «٣». نقص ذلك عليهم بِعِلْمٍ وتحقيق لاطلاعنا على أحوالهم ، وإحاطة علمنا بسرهم وعلانتيهم. وَما كُنَّا غائِبِينَ عنهم ، فيخفى علينا شيء من أحوالهم ، بل كنا حاضرين لديهم ، محيطين بسرهم وعلانيتهم.

الإشارة : ما أهلك اللّه قوما وعذبهم إلا بتضييع الشرائع أو إنكار الحقائق ، فمن قام بهما معا كان مصحوبا بالسلامة ، موصوفا بالكرامة فى الدارين ، ومن ضيعهما أو أحدهما لحقه الوبال فى الدارين ، فإذا لحقه إهلاك لم يسعه إلا الإقرار بالظلم والتقصير ، حيث فاته الحزم والتشمير ، فإذا ندم لم ينفعه الندم ، حيث زلت به القدم ، فالبدار البدار إلى التوبة والانكسار ، والتمسك بشريعة النبي المختار ، والتحقق بمعرفة الواحد القهار ، وصحبة الصالحين الأبرار ، والعارفين الكبار ، قبل أن تصير إلى قبرك فتجده إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار.

وكما أن الحق تعالى يسأل الرسل عما أجيبوا به ، يسأل خلفاءهم – وهم الأولياء والعارفون – عما إذا قوبلوا من تعظيم أو إنكار ، فيرفع من عظمهم فى أعلى عليين ، ويحط من أنكرهم فى محل أهل اليمين. وبالله التوفيق.

---

(١) الآيتان ١٤ – ١٥ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ٧٨ من سورة القصص.

(٣) من الآية ١٠٩ من سورة المائدة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٩٩

ثم ذكر مقادير الأعمال ووزنها ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨ الى ٩]

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (٩)

قلت : (الوزن) : مبتدأ ، و(يومئذ) : خبره ، و(الحق) : صفته ، أي : الوزن العدل حاصل يومئذ.

يقول الحق جل جلاله : وَالْوَزْنُ أي : وزن الأعمال ، على نعت الحق والعدل ، حاصل يوم القيامة ، حين يسأل الرسل والمرسل إليهم. والجمهور على أن صحائف الأعمال توزن بميزان له لسان وكفتان ، ينظر إليه الخلائق إظهارا للمعدلة وقطعا للمعذرة ، كما يسألهم عن أعمالهم ، فتعترف بها ألسنتهم ، وتشهد بها جوارحهم ، ويؤيده ما روى : «أن الرجل يؤتى به إلى الميزان ، فينشر عليه تسعة وتسعون سجلا ، كلّ سجلّ مد البصر ، فتخرج له بطاقة فيها كلمة الشهادة ، فتوضع السّجلّات فى كفة ، والبطاقة فى كفة ، فتثقل البطاقة ، وتطيش السّجلّات» «١».

وقيل : توزن الأشخاص لما روى عنه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «إنّه ليأتى العظيم السّمين يوم القيامة لا يزن عند اللّه تعالى جناح بعوضة» «٢». والتحقيق : أن المراد به الإهانة والتصغير ، وأنه لا يساوى عند اللّه شيئا لاتباعه الهوى.

ثم فصل فى الأعمال فقال : فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ أي : حسناته ، أو الميزان الذي يوزن به حسناته ، وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن ، فعلى الأول هو جمع موزون ، وعلى الثاني جمع ميزان ، فمن رجحت حسناته فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بالنجاة والثواب الدائم ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بتضييع الفطرة السليمة التي فطروا عليها ، واقتراف ما عرضها للهلاك ، بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ حيث بدلوا التصديق بها بالتكذيب ، والعمل فيها بالتفريط. نسأل اللّه تعالى الحفظ.

الإشارة : العمل الذي يثقل على النفس كله ثقيل فى الميزان لأنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا ، والعمل الذي يخف على النفس كله خفيف لأنه فيه نوع من الهوى إذ لا يخف عليها إلا ما لها فيه حظ وهوى. وفى الحكم :

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند ٢/ ٢١٣ والترمذي فى (الإيمان ، باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا اللّه) وابن ماجه فى (الزهد ، باب ما يرجى من رحمة اللّه يوم القيامة) وصححه

الحاكم ١/ ٦ ، من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص.

(٢) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الكهف ، باب : «أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ..») ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب صفة القيامة ..) من حديث أبى هريرة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٠

«إذا التبس عليك أمران ، فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا». وقال أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه : والله ما ثقل ميزان عبد إلا باتباعه الحق ، وما خف إلا باتباعه الهوى. قال تعالى : وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ.

هـ. بمعناه ، ذكره فى القوت. وهذا فى غير النفس المطمئنة ، وأما هى فلا يثقل عليها شىء ، وقد يثقل عليها الباطل ، ويخف عليها الحق ، لكمال رياضتها. واللّه تبارك وتعالى أعلم.

ثم ذكّرهم بالنعم ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٠]

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (١٠)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ تتصرفون فيها بالبناء والسكن ، وبالغرس والحرث والزرع ، وغير ذلك من أنواع التصرفات ، وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ : أسبابا تعيشون بها كالتجارة وسائر الحرف ، قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ على هذه النعم ، فتقابلون المنعم بالكفر والعصيان ، فأنتم جديرون بسلبها عنكم ، وإبدالها بالنقم ، لو لا فضله ورحمته.

الإشارة : نعمة التمكين فى الأرض متحققة فى أهل التجريد ، المنقطعين إلى اللّه تعالى ، فهم يذهبون فى الأرض حيث شاءوا ، ومائدتهم ممدودة يأكلون منها حيث شاءوا ، فهم متمكنون من أمر دينهم لقلة عوائدهم ، ومن أمر دنياهم لأنها قائمة بالله ، تجرى عليهم أرزاقهم من حيث لا يحتسبون ، تخدمهم ولا يخدمونها «يا دنياى اخدمي من خدمنى ، وأتعبى من خدمك». فمن قصّر منهم فى الشكر توجه إليه العتاب بقوله : وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ إلى قوله : قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ ، ومن تحقق شكره قيل له : وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ «١». واللّه تعالى أعلم.

ولما ذكر نعمة الإمداد أتبعه بنعمة الإيجاد ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١١ الى ١٨]

وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ

(١١) قالَ ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥)

قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (١٧) قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)

---

(١) الآيتان : ٥ – ٦ من سورة القصص.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠١

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ أي : خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ، ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ أي : صورنا خلقة أبيكم آدم. نزّل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره لأنه المادة الأصلية ، أي : ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا أباكم آدم ، ثم صورناه ، ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ تعظيما له ، حيث وجد فيه ما لم يوجد فيهم ، واختبارا لهم ليظهر من يخضع ممن لم يخضع ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ لآدم.

قالَ له الحق تبارك وتعالى : ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ أي : أن تسجد ، فلا : زائدة ، مؤكدة معنى الفعل الذي دخلت عليه ، ومنبهة على أن الموبّخ عليه ترك السجود ، وقيل : الممنوع من الشيء كالمضطر إلى خلافه ، فكأنه قال : ما اضطرك إلى ترك السجود إِذْ أَمَرْتُكَ.

وفيه دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور ، فأجاب بقوله : قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، أي : المانع لى من السجود هو كونى أنا خير منه ، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول ، فكيف يحسن أن يؤمر به ، فإبليس هو الذي سنّ التكبر ، وقال بالتحسين والتقبيح العقليين أولا ، وبهذا الاعتراض كفر إبليس إذ ليس كفره كفر جحود.

ثم بيّن وجه الأفضلية ، فقال : خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ، فاعتقد أن النار خير من الطين ، وقد غلط فى ذلك ، فإن الأفضلية إنما تظهر باعتبار النتائج والثمرات ، لا باعتبار العنصر والمادة فقط ، ولا شك أن الطين ينشأ منه ما لا يحصى من الخيرات كالثمار والحبوب وأنواع الفواكه.

قال البيضاوي : رأى الفضل كله باعتبار العنصر ، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل ، كما أشار إليه بقوله تعالى : ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ «١» أي : بغير واسطة ، وباعتبار الصورة ، كما نبه عليه

بقوله تعالى : وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي وباعتبار الغاية ، وهو ملاكه ، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له لما تبين لهم أنه أعلم منهم ، وأنه له خواصا ليست لغيره. هـ.

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة ص.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٢

ولما تبين عناده قال له تعالى : فَاهْبِطْ مِنْها أي : من السماء أو من الجنة ، فَما يَكُونُ لَكَ أي : فما يصح لك أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها وتعصى فإنها موطن الخاشع المطيع ، وفيه دليل على أن الكبر لا يليق بأهل الجنة ، فإنه تعالى إنما أنزله وأهبطه لتكبره لا لمجرد عصيانه ، فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ أي : ممن أهانه اللّه لتكبره. قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «من تواضع للّه رفعه اللّه ، ومن تكبّر وضعه اللّه» «١».

ولما تحقق إبليس أنه مطرود ، سأل الإمهال فقال : أَنْظِرْنِي أي : أخرنى ، إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فلا تمتنى ، ولا تعجل عقوبتى ، قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ يقتضى أنه أجابه إلى ما سأل ، لكنه محمول على ما فى الآية الأخرى : إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ «٢» وهو نفخ الصور النفخة الأولى ، قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي أي : بعد أن أمهلتنى لأجتهدن فى إغوائهم بأى طريق يمكننى ، بسبب إغوائك إياى ، واللّه لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، وهو الطريق الذي يوصلهم إليك ، فأقعد فيه ، وأردهم عنه ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ فآتيهم من الجهات الأربع ، وذلك عبارة عن تسلطه على بنى آدم كيفما أمكنه.

قال ابن عباس : مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ : الدنيا يزيّنها لهم ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ : الآخرة ينسيها لهم ، (و عن أيمانهم) :

الحسنات يثبطهم عنها ، وَعَنْ شَمائِلِهِمْ : السيئات يزينها فى أعينهم. هـ. ولم يجعل له سبيلا من فوقهم ، ولا من تحت أرجلهم لأن الرحمة تنزل من أعلى ، فلم يحل بينهم وبينها ، والإتيان من تحت موحش ، وأيضا : السفليات محل للتواضع والخشوع ، فتكثر فيه الأنوار فيحترق بها. وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : (لأنّ فوق : التوحيد ، وتحت : الإسلام ، ولا يمكن أن يأتى من توحيد ولا إسلام).

ثم قال تعالى : وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ مطيعين ، قال بعض الصوفية : (لو كان ثم مقام أعظم من الشكر لذكره إبليس) فالشكر أعظم المقامات ، وهو الطريق المستقيم الذي قعد عليه إبليس ، والشكر : هو ألا يعصى اللّه بنعمه ، أو : صرف الجوارح كلها فى طاعة اللّه ، أو رؤية المنعم فى النعمة. وإنما

قال إبليس ذلك ظنّا لقوله :

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ

«٣» ، وسيأتى فى الإشارة حقيقته.

قالَ تعالى لإبليس : اخْرُجْ مِنْها من السماء أو الجنة ، مَذْؤُماً أي : مذموما ، من ذامه ، أي : ذمه ، مَدْحُوراً أي : مطرودا. واللّه لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فى الكفر لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ أي : منك وممن تبعك.

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (الباب ٥٧) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب – رضى اللّه عنه – .

(٢) الآية ٣٨ من سورة الحجر.

(٣) من الآية ٢٠ من سورة سبأ.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٣

تنبيه : ذكر الفخر الرازي ، فى تفسيره ، عن الشهرستاني أن إبليس جرت بينه وبين الملائكة مناظرة بعد الأمر بالسجود لآدم ، فقال لهم : إنى أسلم أن اللّه خالقى وموجدى ، وهو موجد الخلق ، ولكن لى على حكمته أسئلة : الأول :

ما الحكمة فى إيجاد خلقه ، لا سيما وكان عالما بأن الكافر لا يستوجب عند خلقه الآلام؟ الثاني : ما الفائدة فى التكليف ، مع أنه لا يعود عليه نفع ولا ضرر ، وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟ الثالث : هب أنه كلفنى بطاعته ومعرفته ، فلما ذا كلفنى بالسجود لآدم؟ الرابع : لما عصيته فلم لعننى وأوجب عقابى ، مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه ، وفيه أعظم الضرر؟ الخامس : لما فعل ذلك فلم مكننى من الدخول إلى الجنة ووسوسة آدم؟ السادس : ثم لما فعل ذلك ، فلم سلطنى على أولاده ، ومكننى من إغوائهم وإضلالهم؟ السابع : ثم لما استمهلته بالمدة الطويلة فى ذلك فلم أمهلنى ، ومعلوم أن العالم لو كان خاليا من الشر لكان ذلك خيرا؟. هـ.

قال شارح الأناجيل : فأوحى اللّه إليه من سرادقات الكبرياء : إنك ما عرفتنى ، ولو عرفتنى لعلمت أنه لا اعتراض علىّ فى شىء من أفعالى ، فأنا اللّه لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل.

قال الشهرستاني : اعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون ، وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا عن هذه الشبهات تخلصا ، أما إذا أجبنا بما أجاب به الحق – سبحانه – زالت الشبهات واندفعت

الاعتراضات. هـ. قلت : من تشمرت فكرته بنور المعرفة ، وعرف أسرار الحكمة والقدرة ، لم يصعب عليه مثل هذه الشبهات ، وسأذكر الجواب عنها على سبيل الاختصار :

أما الحكمة فى إيجاد خلقه فخلقهم ليعرف بهم. وفى الحديث القدسي : «كنت كنزا لم أعرف ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت خلقا لأعرف بهم ، وليظهر بهم آثار قدرته وأسرار حكمته. وأما تعذيب الكافر بالآلام فليظهر فيه مقتضى اسمه المنتقم.

أما فائدة التكليف فلتقوم الحجة على العبيد ، وليتميز من يستحق الإحسان ممن يستحق العذاب ، فإذا عذبه لم يكن ظالما له وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً «١» ، ولتظهر صورة العدل فى الجملة. وأما تكليفه بالسجود لآدم فلأنه ادعى المحبة ، ومقتضاها الطاعة للحبيب فى كل ما يشير إليه ، ولا تصعب إلا فى الخضوع للجنس ، أو من دونه ، فأمره بالسجود لمن دونه فى زعمه ليظهر كذبه فى دعوى محبته ، وأما لعنه وطرده فهو جزاء من كذب

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف. [.....]

وعصى. وهذا الطرد كان فى علمه تعالى ، ولكن حكمته تعالى اقتضت ترتيب الأسباب وارتباطها بالمسببات ، فكان امتناعه واعتراضه سببا لإظهار ما سبق له فى علم اللّه ، كما كانت وسوسته لآدم سببا فى إظهار خروجه من الجنة السابق فى علم اللّه. وأما تمكينه من دخول الجنة فليتسبب عنه هبوط آدم الذي سبق فى علمه لأن الحكمة اقتضت أن لكل شىء سببا. أما تسلطه على أولاده ، فليكون منديلا تمسح به أو ساخ الأقدار إذ إن الكفر والإيمان والطاعة والعصيان إنما هو بمشيئة الواحد القهار ، ولا فعل لغيره ، لكن الحق تعالى علمنا الأدب ، فخلق الشيطان والنفس والهوى مناديل ، فما كان فيه كمال نسبه لله ، وما كان فيه نقص نسبه للشيطان والنفس أدبا مع الحضرة.

وأما إمهاله فليدوم هذا المنديل عندهم ، يمسحون فيه أوساخ المقادير التي تجرى عليهم إلى انقضاء وجودهم.

وقوله : (معلوم أن العالم لو كان خاليا من الشر لكان ذلك خيرا) ، مغالطة لأن حكمته تعالى اقتضت وجود الضدين : الخير والشر ، وبهما وقع التجلي والظهور ليظهر آثار أسمائه تعالى فإن اسمه المنتقم والقهار يقتضى وجود الشر ، فيما نفهم ، وليظهر انتقامه وبطشه للعيان ، ومعلوم أن الملك إذا وصف بوصف جلالى أو جمالى لا يظهر شرف ذلك الاسم إلا بظهور آثاره فى مملكته. وقوله : (إنك ما

عرفتنى ..) إلخ .. يقتضى أنه لو عرف اللّه حق معرفته لفهم أسرار هذه الأشياء التي اعترض بها على ما بيناها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الأكوان ظاهرها أغيار ، وباطنها أنوار وأسرار ، فمن وقف مع ظاهرها لزمه الاعتراض والإنكار ، ومن نفذ إلى شهود باطنها لزمه المعرفة والإقرار ، ولعل إبليس لم ير – فى حال الأمر بالسجود – من آدم إلا الأغيار ، ولو رأى باطنه لكان أول ساجد للّه الواحد القهار.

ثم ذكر دخول آدم الجنة وخروجه منها ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٩ الى ٢٥]

وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (٢٠) وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (٢٣)

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (٢٤) قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ (٢٥)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٥

يقول الحق جل جلاله : وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ حواء الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما من ثمارها ، وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ التين أو العنب أو الحنطة ، فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ لأنفسكما بمخالفتكما ، فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ أي : فعل الوسوسة لأجلهما ، وهو الصوت الخفي ، لِيُبْدِيَ أي : ليظهر لَهُما ما وُورِيَ أي : ما غطى عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما أي : عوراتهما ، واللام : للعاقبة ، أي : فعل الوسوسة لتكون عاقبتهما كشف عورتهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ، ولا أحدهما من الآخر. وفيه دليل على أن كشف العورة ، ولو عند الزوج من غير حاجة – قبيح مستهجن فى الطباع.

وَقالَ لهما : ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا كراهية أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ. واستدل به من قال بفضل الملائكة على الأنبياء ، وجوابه : أنه كان من المعلوم عندهما أن الحقائق لا تنقلب ، وإنما كانت رغبتهما فيما يحصل لهما من الغنى عن الطعام والشراب ، فيمكن لهما الخلود فى الجنة ، ولذلك قال : أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ الذين يخلدون فى الجنة.

ويؤخذ من قوله تعالى : ما نَهاكُما رَبُّكُما ، أن آدم عليه السّلام لم يكن ناسيا للنهى ، وإلا لما ذكره بقوله : ما نَهاكُما رَبُّكُما ، وقوله فى سورة طه : فَنَسِيَ ، أي : نسى أنه عدو له ، ولذلك ركن إلى نصيحته ، وقبل منه حتى تأول أن النهى عن عين الشجرة لا عن جنسها ، فأكل من جنسها رغبة فى الخلود ، ولكنه غره من حيث الأخذ بالظواهر وترك الاحتياط.

ولم يقصد إبليس إخراجهما من الجنة ، وإنما قصد إسقاطهما من مرتبتهما ، وإبعادهما كما بعد هو ، فلم يبلغ قصده ولا أدرك مراده ، بل ازداد سخينة عين ، وغيظ نفس ، وخيبة ظن. قال اللّه تعالى : ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى «١» ، فصار عليه السّلام خليفة لله فى أرضه ، بعد أن كان جارا له فى داره ، فكم بين الخليفة والجار؟

---

(١) الآية ١٢٢ من سورة طه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٦

وَقاسَمَهُما أي : حلف لهما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ فيما قلت لكما. وذكر قسم إبليس بصيغة المفاعلة التي تكون بين اثنين مبالغة لأنه اجتهد فيه ، أو لأنه أقسم لهما ، وأقسما له أن يقبلا نصيحته.

فَدَلَّاهُما ، أي : أنزلهما إلى الأكل من الشجرة ، بِغُرُورٍ أي : بما غرهما به من القسم ، لأنهما ظنا أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا ، فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ أي : وجدا طعمها ، آخذين فى الأكل منها ، بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما ، وتهافت عنهما ثيابهما ، فظهرت لهما عوراتهما أدبا لهما. وقيل : كان لباسهما نورا يحول بينهما وبين النظر ، فلما أكلا انكشف عنهما ، وظهرت عورتهما ، وَطَفِقا أي : جعلا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ أي : أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة ليستترا به ، قيل : كان ورق التين. فآدم أول من لبس المرقعة ، وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ هذا عتاب على المخالفة ، وتوبيخ على الاغترار بالعدو. وفيه دليل على أن مطلق النهى للتحريم.

ثم صرحا بالتوبة فقالا : رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا حين صدّرناها للمعصية ، وتعرضنا للإخراج من الجنة ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ وهذه هى الكلمات التي تلقاها من ربه فتاب عليه بها.

قال البيضاوي : فيه دليل على أن الصغائر يعاقب عليها إن لم تغفر ، وقالت المعتزلة : لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر ، ولذلك قالوا : إنما قالا ذلك على عادة المقربين فى تعظيم الصغير من السيئات ، واستحقار العظيم من الحسنات. هـ.

قالَ اهْبِطُوا الخطاب لآدم وحواء وذريتهما ، أو : لهما ولإبليس ، وكرر الأمر له تبعا ليعلم أنهم قرناء له

أبدا. حال كونكم بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ أي : متعادين ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ أي : استقرار ، وَمَتاعٌ أي : تمتع ، إِلى حِينٍ انقضاء آجالكم ، قالَ فِيها أي : فى الأرض تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ للجزاء ، بالنعيم ، أو بالعذاب الأليم ، على حسب سعيكم فى هذه الدار الفانية.

الإشارة : قال بعض العارفين : كل ما نهى اللّه تعالى عنه فهو شجرة آدم ، فمن دخل جنة المعارف ، ثم غلبه القدر فأكل من تلك الشجرة – وهى شجرة سوء الأدب – أخرج منها ، فإن كان ممن سبقت له العناية ألهم التوبة ، فتاب عليه وهداه ، وأهبطه إلى أرض العبودية ليكون خليفة اللّه فى أرضه ، فأنعم بها معصية أورثت الخلافة والزلفى. وفى الحكم : «ربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول». وقال أيضا : «معصية أورثت ذلا وافتقارا ، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا». وقال بعضهم : كل سوء أدب يثمر لك أدبا فهو أدب. واللّه تعالى أعلم.

(٢٠٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٧

ثم ذكّرهم بنعمة اللباس ، الذي عوضهم به فى الدنيا عن لباس الجنة ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ٢٦]

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)

قلت : من قرأ : (لباس) بالرفع فهو مبتدأ ، والجملة : خبر ، والرابط : الإشارة ، والريش : لباس الزينة ، مستعار من ريش الطير.

يقول الحق جل جلاله : يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً أي : خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة ، ونظيره : قوله تعالى : وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ «١» ، وقوله تعالى : وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ «٢». من صفة ذلك اللباس : يُوارِي أي : يستر سَوْآتِكُمْ التي قصد إبليس إبداءها ، ويغنيكم عن خصف الورق. روى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ، ويقولون : لا نطوف فى ثياب عصينا اللّه تعالى فيها ، فنزلت. ولعل ذكر قصة آدم تقدمة لذلك حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان ، وأنه أغواهم فى ذلك كما أغوى أبويهم. قاله البيضاوي.

وَرِيشاً أي : ولباسا فاخرا تتجملون به وَلِباسُ أي : وأنزلنا عليكم لباس التَّقْوى وهى خشية اللّه تعالى ، أو الإيمان ، أو السمت الحسن ، واستعار لها اللباس كقولهم : ألبسك اللّه لباس تقواه ، وقيل : لباس الحرب. ومن قرأ بالرفع فخبره : ذلِكَ خَيْرٌ أي : لباس التقوى خير من لباس الدنيا لبقائه فى دار البقاء دون لباس الدنيا فإنه فإن فى دار الفناء ، ذلِكَ أي : إنزال اللباس من حيث هو خير مِنْ آياتِ اللَّهِ

الدالة على فضله ورحمته ، لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فيعرفون نعمه ، فيشكرون عليها ، أو يتعظون فينزجرون عن القبائح.

الإشارة : اللباس الذي يوارى سوءات العبودية – أي : نقائصها – هى أوصاف الربوبية ونعوت الألوهية من عز وغنى ، وعظمة وإجلال ، وأنوار وأسرار ، التي أشار إليها فى الحكم بقوله : «لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك ، ومحو دعاويك ، لم تصل إليه أبدا ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ، ونعتك بنعته ، فوصلك بما منه إليك ، لا بما منك إليه». والريش هو بهجة أسرار المعاني التي تغيب ظلمة الأوانى ، أو بهجة الأنوار التي تفنى الأغيار ، ولباس التقوى هى حفظه ورعايته لأوليائه فى الظاهر والباطن مما يكدر صفاءهم أو يطمس أنوارهم.

واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٦ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الحديد.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٨

ثم حذّرهم من الشيطان ، وأعلمهم بسابق عداوته ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ٢٧]

يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)

يقول الحق جل جلاله : يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ بأن يشغلكم عما يقربكم إلى اللّه ، ويحملكم على ما يمنعكم من دخول جنته ، كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بسبب غروره ، والنهى ، فى اللفظ ، للشيطان ، والمراد : نهيهم عن اتباعه. حال كون أبويكم يَنْزِعُ الشيطان عَنْهُما لِباسَهُما بسبب غروره لهما ، وإسناد النزع إليه : مجاز للسببية لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ، وهو تعليل للنهى ، وتحذير من فتنته ، وقَبِيلُهُ : جنوده. ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم فى الجملة لا يقتضى امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا ، وقد جاءت فى رؤيتهم أحاديث صحيحة فتحمل الآية على الأكثر والغالب. قال تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بما أوجدنا بينهم من التناسب ، أو بإرسالهم عليهم ، وتمكينهم من خذلانهم ، وحملهم على ما سولوا لهم ، والآية هى مقصود القصة وفذلكة الحكاية. قاله البيضاوي.

الإشارة : الحكمة فى خلق الشيطان هى كونه منديلا تمسح فيه أوساخ الأقدار ، وكونه يحوش أولياء اللّه إلى اللّه ، كلما نخسهم بنزعه فزعوا إلى مولاهم ، فلا يزال بهم كذلك حتى يوصلهم إلى حضرته ، فحينئذ ينقاد إليهم ، ويخدمهم بأولاده. وفى الحكم : «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك ، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده».

قال محمد بن واسع : تمثل لى الشيطان فى طريق المسجد ، فقال لى : يا ابن واسع ، كلما أردتك وجدت بينى وبينك حجابا ، فما ذاك؟ قال : أقرأ ، كلما أصبحت : اللهم إنك سلطت علينا عدوا من أعدائنا ، بصيرا بعيوبنا ، مطلعا على عوراتنا ، يرانا هو وقبيله من حيث لانراهم ، اللهم آيسه منا كما آيسته من رحمتك ، وقنطه منا كما قنطته من عفوك ، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بين المشرق والمغرب – وفى رواية : كما باعدت بينه وبين جنتك – إنك على كل شىء قدير. هـ.

ثم ذكر مساوئ أولياء الشيطان ، فقال :

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠٩

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]

وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)

يقول الحق جل جلاله ، فى وصف المشركين : وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أي : فعلة متناهية فى القبح كعبادة الصنم ، وكشف العورة فى الطواف ، احتجوا بفعل آبائهم فقالوا : وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها فاعتذروا بعذرين باطلين : أحدهما : تقليد آبائهم ، والآخر : افتراؤهم على اللّه ، فأعرض عن الأول لظهور فساده ، ورد الثاني بقوله : قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ لأن اللّه تعالى جرت عادته على الأمر بمحاسن الأفعال ومكارم الخلال. ولا حجة فيه للمعتزلة. انظر البيضاوي.

والآية كأنها جواب سؤالين مترتبين كأنه قيل لهم : لم فعلتم هذه الفواحش؟ قالوا : وجدنا عليها آباءنا ، فقيل :

ومن أين أخذها آباؤكم؟ قالوا : اللّه أمرنا بها ، فكذبهم اللّه بقوله : إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ ، أي : أتتقولون على اللّه ما لا علم لكم به إنكار يتضمن النهى عن الافتراء على اللّه.

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ أي : العدل ، وهو الوسط من كل أمر ، المتجافى عن طرفى الإفراط والتفريط ، وأمر بأن قال : وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ أي : افعلوا الصلاة فى كل مكان يمكن فيه السجود إذا حضرتكم ، ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم. والمعنى : إباحة الصلاة فى كل موضع ، فهو كقوله صلّى اللّه عليه وسلّم :

«جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا». وقيل : المراد إحضار النية والإخلاص للّه فى كل صلاة بدليل قوله :

وَادْعُوهُ أي : اعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أي : الطاعة ، فلا تعبدوا معه غيره ، فإنكم راجعون إليه ، كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فيجازيكم على أعمالكم ، فاحتج على البعث الأخروى بالبدأة الأولى لاشتراكهما فى تعلق القدرة بهما ، بل العود أسهل باعتبار العادة ، وقيل : كما بدأكم من التراب ، تعودون إليه ، وقيل : كما بدأكم حفاة عراة غرلا ، تعودون ، وقيل : كما بدأكم مؤمنا وكافرا ، يعيدكم. قاله البيضاوي.

فَرِيقاً هَدى بأن وفقهم للإيمان ، وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ بمقتضى القضاء السابق ، أي : خذل فريقا حق عليهم الضلالة ، إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ يطيعونهم فيما يأمرونهم به ، مِنْ دُونِ اللَّهِ ،

(٢٠٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢١٠

وهذا تعليل لخذلانهم وتحقيق لضلالتهم ، وَيَحْسَبُونَ أي : يظنون أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ فهم على جهل مركب ، وفيه دليل على أن الكافر المخطئ والمعاند : سواء فى الذم واستحقاق العذاب إذ لا يعذر بالخطأ فى أمر التوحيد.

الإشارة : تقليد الآباء فى المساوىء من أقبح المساوىء ، واحتجاج العبد بتخليته مع هواه هو ممن اتخذ إلهه هواه ، إن اللّه لا يأمر بالفحشاء ، فإذا قال العبد – فى حال انهماكه : هكذا أحبنى ربى ، فهو خطأ فى الاحتجاج بل يجاهد نفسه فى الإقلاع ، ويتضرع إلى مولاه فى التوفيق فإن الحق تعالى إنما يأمر بالعدل والإحسان ، ودوام الطاعة والإذعان ، والخضوع للّه فى كل زمان ومكان ، والتحقق بالإخلاص فى كل أوان ، وإفراد المحبة والولاية للكريم المنان. وباللّه التوفيق.

ثم أمرهم بستر العورة فى الصلاة والطواف ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ٣١]

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)

يقول الحق جل جلاله : يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ أي : ثيابكم التي تستر عورتكم ، عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ لطواف أو صلاة ، واحتج به من أوجب ستر العورة فى الصلاة ، ومن السّنة أن يأخذ الرجل أحسن ثيابه

للصلاة ، وقيل : المراد بالزينة : زيادة على الستر ، كالتجمل للجمعة بأحسن الثياب وبالسواك والطيب ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا أمر إباحة لما روى أن بنى عامر ، فى أيام الحج ، كانوا لا يأكلون من الطعام إلا قوتا ، ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم ، وهمّ المسلمون بذلك ، فنزلت.

وَلا تُسْرِفُوا بتحريم الحلال ، أو بالتقدم إلى الحرام ، أو بإفراط الطعام والشره إليه ، وقد عدّ فى الإحياء من المهلكات : شره الطعام ، وشره الوقاع ، أي : الجماع. إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ لا يرتضى فعلهم.

وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : (كل ما شئت ، والبس ما شئت ، ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة) «١» أي : تكبر. وقال على بن الحسين بن واقد : جمع اللّه الطب فى نصف آية فقال : كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا.

الإشارة : إنما أمر الحق – جل جلاله – بالتزين للصلاة والطواف لأن فيهما الوقوف بين يدى ملك الملوك ، وقد جرت عادة الناس فى ملاقاة الملوك : التهيؤ لذلك بما يقدرون عليه من حسن الهيئة لأن ذلك زيادة تعظيم

---

(١) أخرجه ابن أبى شبية فى المصنف (الأدب واللباس) موقوفا على ابن عباس رضى اللّه عنه. وأخرجه مرفوعا النسائي فى (الزكاة ، باب الاختيال فى الصدقة) وابن ماجه فى (اللباس ، باب البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة) وأحمد فى المسند ٢/ ١٨١ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم يخالطه إسراف أو مخيلة».

للملك ، وتزيين البواطن بالمحبة والوداد أحسن من تزيين الظواهر وخراب البواطن «إنّ اللّه لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» «١». وملاقاة الملك بالذل والانكسار أحسن من ملاقاته بالتكبر والاستظهار. واللّه تعالى أعلم.

ولما تعاهدت قريش ، ومن دان دينها ، أنهم لا يأكلون أيام الحج دسما ولا سمنا ولا أقطا ولا طعاما جاء من الحل ، ردّ اللّه عليهم بقوله :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٣٢ الى ٣٤]

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

(٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)

قلت : من قرأ : (خالصة) بالرفع ، فخبر بعد خبر ، أو خبر عن مضمر ، ومن قرأ بالنصب ، فحال.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ وهى ما يتجمل به من الثياب وغيرها ، الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ من النبات كالقطن والكتان ، أو الحيوان كالحرير والصوف والوبر ، والمعادن كالدروع والحلي ، وَقل أيضا : من حرم الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ أي : المستلذات من المآكل والمشارب ، ويدخل فيها المناكح إذ هى من أعظم الطيبات. وفيه دليل على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات : الإباحة لأن الاستفهام للإنكار ، وبه رد مالك – رحمه اللّه – على من أنكر عليه من الصوفية ، وقال له : اتق اللّه يا مالك بلغني أنك تلبس الرقيق ، وتأكل الرقاق ، فكتب إليه بالآية.

قال تعالى : قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، ويشاركهم فيها الكفار ، ويوم القيامة تكون خالِصَةً لهم دون غيرهم. كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ أي : كتفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ فينزلونها فى محلها بخلاف الجهال.

---

(١) أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ وهى ما تزايد قبحها من المعاصي ، وقيل : ما يتعلق بالفروج ، ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ أي : جهرها وسرها ، أو ما يتعلق بالجوارح الظاهرة والعوالم الباطنية وهى القلوب ، وَالْإِثْمَ كقطع الرحم ، أو عام فى كل ذنب ، وَالْبَغْيَ وهو الظلم كقطع الطريق والغصب ، وغير ذلك من ظلم العباد ، أو التكبر على عباد اللّه وقوله : بِغَيْرِ الْحَقِّ : تأكيد له فى المعنى. وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً أي : حجة على استحقاق العبادة ، وهو تهكم بالمشركين ، وتنبيه على تحريم ما لم يدل عليه برهان.

وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ من الإلحاد فى صفاته ، والافتراء عليه كقولهم : اللَّهُ أَمَرَنا «١» ، ولَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا «٢».

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ أي : مدة ووقت لنزول العذاب بها إن لم يؤمنوا ، وهو تهديد لأهل مكة ، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ أي : انقرضت مدتهم ، أو دنى وقت هلاكهم ، لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً عنه وَلا يَسْتَقْدِمُونَ أي : لا يتأخرون ولا يتقدمون عنه أقصر وقت ، أو لا يطيقون التقدم والتأخر لشدة الهول ، وجعل بعضهم :

(و لا يستقدمون) استئنافا لأن الأجل إذا جاء لا يتصور التقدم ، وحينئذ يوقف على : ساعَةً ، ثم يقول : ولا هم يستقدمون عنه قبل وصوله.

الإشارة : قال شيخنا البوزيدى رضى اللّه عنه : زينة اللّه التي أظهر لعباده هى لباس المعرفة ، وهو نور التجلي ، والطيبات من الرزق هى حلاوة الشهود. هـ. وهى لمن كمل إيمانه وصدقه فى الحياة الدنيا ، وتصفو له إلى يوم القيامة ، فهى حلال على أهل التجريد يتمتعون بها فى الدارين ، وإنما حرّم عليهم ما يشغلهم عن ربهم من جهة الظاهر ، وما يقطعهم عن شهوده من جهة الباطن ، وسوء الأدب مع اللّه ، والتعرض لعباد اللّه ، والشرك باللّه بأن يشهدوا معه سواه ، وأن يقولوا على اللّه ما يوهم نقصا أو خللا فى أنوار جماله وسناه. واللّه تعالى أعلم.

ثم إن العباد والزهاد وأهل البداية من المريدين السائرين – ينبغى لهم أن يزهدوا فى زينة الدنيا وطيباتها لئلا تركن إليها نفوسهم ، فيثبط سيرهم ، وأما الواصلون فهم مع اللّه ، لا مع شىء سواه ، يأخذون من اللّه باللّه ، ويدفعون باللّه ، وقد اتسعت دائرة علمهم ، فليسوا مع لباس ولا أكل ولا شرب ولا جوع ولا شبع ، هم مع ما يبرز فى الوقت من المقدورات. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ١٤٨ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢١٣

ثم وصاهم على الإيمان بالرسل ، عند ظهورهم ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٣٥ الى ٣٦]

يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٣٦)

قلت : (إما) : شرط مؤكد بما ذكره بحرف الشك للتنبيه على أن إتيان الرسل جائز ، غير واجب ، كما ظنه المعتزلة ، وجوابه : (فمن اتقى ..) إلخ ، وإدخال الفاء فى الجواب الأول دون الثاني للمبالغة فى الوعد والمسامحة فى الوعيد. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : يا بَنِي آدَمَ مهما يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي الدالة على توحيدى ومعرفتى ، فَمَنِ اتَّقى الشرك والتكذيب ، وَأَصْلَحَ فيما بينى وبينه ، منكم ، بالعمل الصالح ، فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ ،

فمن كمال الإيمان : أن يقدر الإنسان نفسه أن لو كان فى زمان كل رسول ، لكان أول من تبعه ، ولكان من خواص أصحابه ، هكذا يسير بعقله مع كل رسول من زمان آدم عليه السّلام إلى مبعث رسولنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد جعل اللّه لكل نبى خلفاء يخلفونه فى تبليغ أحكامه الظاهرة والباطنة ، وهم العلماء الأتقياء ، والأولياء العارفون الأصفياء ، فمن أراد أن يكون ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فليتبع علماء أهل زمانه فى الشريعة ، وأولياء أهل عصره فى تربية الحقيقة. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر وعيد من استكبر ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ٣٧]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (٣٧)

يقول الحق جل جلاله : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بأن نسب إليه الولد والشريك ، أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ التي جاءت بها الرسل من عنده ، أي : لا أحد أظلم منه ، أو : تقوّل على اللّه ما لم يقله ، وكذّب بما

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢١٤

قاله ، أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ أي : يلحقهم نصيبهم مما كتب فى اللوح المحفوظ من الأرزاق والآجال ، حَتَّى إِذا انقضت أعمارهم وجاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ أي : يتوفون أرواحهم ، قالُوا لهم توبيخا : أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون اللّه لتدفع عنكم العذاب؟ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا غابوا عنا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ ، اعترفوا بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه ، وندموا حيث لم ينفع الندم ، وقد زلت بهم القدم.

الإشارة : كل من أعرض عن خصوص أهل زمانه ، واشتغل بمتابعة حظوظه وهواه ، ينال نصيبه من الدنيا الفانية وما قسم له فيها فإذا جاءت منيته ندم وتحسر ، وقيل له : أين ما تمتعت به وشغلك عن مولاك؟ فيقول : قد غاب ذلك وفنى وانقضى ، وكأنما كان برقا سرى ، أو طيف كرى ، والدهر كله هكذا لمن سدد نظرا ، وعند الصباح يحمد القوم السّرى ، وستعلم ، إذا انجلى الغبار ، أفرس تحتك أم حمار.

وقد قال صلّى اللّه عليه وسلّم فى بعض خطبه : «لا تخدعنّكم زخارف دنيا دنيّة ، عن مراتب جنّات

عالية فكان قد كشف القناع ، وارتفع الارتياب ، ولا قى كل امرئ مستقرّه ، وعرف مثواه ومنقلبه». وفى حديث آخر : «من بدأ بنصيبه من الدنيا فاته نصيبه من الآخرة ، ولم يدرك منها ما يريد ، ومن بدأ بنصيبه من الآخرة ، وصل إليه نصيبه من الدنيا ، وأدرك من الآخرة ما يريد».

ثم ذكر عذاب أهل التكذيب ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٣٨ الى ٣٩]

قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : قالَ اللّه تعالى أي : يوم القيامة للكفار ، بواسطة ملك ، أو بغيرها : ادْخُلُوا فِي جملة أُمَمٍ كانوا من قبلكم مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ متفقين معكم فى الكفر والضلال ، فادخلوا مصاحبين معهم فِي النَّارِ. قال تعالى ، مخبرا عن حالهم : كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ منهم فى النار لَعَنَتْ أُخْتَها التي ضلت

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢١٥

بالاقتداء بها ، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا أي : تداركوا وتلاحقوا ، فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ دخولا أو منزلة ، وهم الأتباع السفلة ، لِأُولاهُمْ وهم المتبوعون الرؤساء – أي : قالت لأجلهم لأن الخطاب مع اللّه لا معهم ، قالوا :

رَبَّنا هؤُلاءِ الرؤساء أَضَلُّونا حيث سنّوا لنا الضلال فاقتدينا بهم ، فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً أي : مضاعفا مِنَ النَّارِ لأنهم ضلوا وأضلوا. قالَ تعالى : لِكُلٍّ واحد منكم ضِعْفٌ أي : عذابا مضعفا ، أما القادة فلكفرهم وتضليلهم ، وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم ، وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ ما لكم ، أو ما لكل فريق منكم.

وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ أي : المتبوعون للأتباع : فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فى الإيمان والتقوى توجب أن يكون عذابنا أشد من عذابكم ، حتى يتضاعف علينا العذاب دونكم فإنا وإياكم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب ، فَذُوقُوا أي : باشروا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ هو من قول القادة ، أو من قول اللّه – تعالى – لجميعهم.

الإشارة : إذا قامت القيامة تحققت الحقائق ، وتميزت الطرائق ، للخاص والعام ، فيرتفع المقربون فى أعلى عليين ، ويبقى أهل اليمين فى أسفل منازل أهل الجنة مع عوام المسلمين ، فيتعلق عوامهم بخواصهم ، فيقولون لهم :

أنتم رددتمونا عن صحبة هؤلاء ، وأنتم خذلتمونا عنهم ، ثم يقولون : ربنا هؤلاء أضلونا عن صحبة هؤلاء المقربين ، فآتهم حجابا ضعفا مما لنا ، قال : لكل ضعف من الحجاب ، هم بتضليلهم لكم عن صحبتهم ، وأنتم بتقليدكم لهم ، ولكن لا تعلمون ما أعددت للمقربين حين صبروا على جفاكم ، وتحملوا مشاق طاعتى ومعرفتى لأن كل آية فى الكفار تجر ذيلها على أهل الغفلة من المؤمنين. واللّه تعالى أعلم.

ثم حرّم على الكفار دخول الجنة ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤٠ الى ٤١]

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)

قلت : (سمّ الخياط) : عين الإبرة ، وفى السين : الفتح والكسر والضم ، والخياط : ما يخاط به ، على وزن حزام ، والتنوين فى (غواش) : للعوض عن الياء ، عند سيبويه ، وللصرف عند غيره.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عن : الإيمان بها ، لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ لأدعيتهم وأعمالهم فلا تقبل ، أو : لا تفتح لأرواحهم إذا ماتوا ، بل تغلق دونها إذا وصلت بها

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢١٦

الملائكة إليها ، فيطرحونها فتسقط من السماء ، بخلاف أرواح المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء حتى يفضوا إلى سدرة المنتهى. وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ أي : يدخل ، الْجَمَلُ وهو البعير فِي سَمِّ الْخِياطِ أي :

فى ثقب الإبرة ، والمعنى : لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبدا ، فلا يدخلون الجنة أبدا ، وقرأ ابن عباس (الجمل) بضم الجيم وسكون الميم ، وهو حبل السفينة ، الذي جمع بعضه إلى بعض حتى صار أغلظ ما يكون.

ثم قال تعالى : وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ أي : مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى المجرمين ، لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ أي : فراش ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ أي : أغطية من النار. وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ عبّر عنهم بالمجرمين تارة ، وبالظالمين أخرى إشعارا بأنهم بتكذيبهم الآيات ، اتصفوا بالجرم والظلم ، وذكر مع الحرمان من الجنة : الجرم ، ومع التعذيب بالنار : الظلم تنبيها على أن الظلم أعظم الإجرام.

الإشارة : أهل التربية النبوية من الشيوخ العارفين : آية من آيات اللّه ، من كذّب بهم ، واستكبر عن

الخضوع لهم ، لا تفتح لفكرته أبواب السماء ، بل يبقى مسجونا بمحيطاته ، محصورا فى هيكل ذاته ، ولا يدخل جنة المعارف أبدا ، بل يحيط به الحجاب من فوقه ومن أسفله ، فتنحصر روحه فى الأكوان ، ولم تفض إلى فضاء الشهود والعيان.

وفى الحكم : «الكائن فى الكون ، ولم تفتح له ميادين الغيوب ، مسجون بمحيطاته ، محصور فى هيكل ذاته».

وقال أيضا : «وسعك الكون من حيث جثمانيتك ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك» ، فكل من لم تثبت له الروحانية : فهو محصور فى الكون ، وكل من ثبتت له الروحانية بأن استولى معناه على حسه ، لم يسعه الكون ، ولم يحصره عرش ولا فرش ، وكذلك الصوفي لا تظله السماء ولا تقله الأرض ، أي : لا يحصره الكون من حيث فكرته. واللّه تعالى أعلم.

ثم شفع بضدهم ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤٢ الى ٤٣]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢١٧

قلت : جملة (لا نكلف) : معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب فى اكتساب النعيم المقيم ، بما تسعه طاقتهم ، ويسهل عليهم ، و(ما كنا لنهتدى) : اللام لتأكيد النفي ، وجواب «لو لا» : محذوف ، أي : لو لا هدايته إيانا ما اهتدينا.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ آمَنُوا بالرسل ، وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ على قدر طاقتهم ، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أي : ما تسعه طاقتها ، فمن فعل ذلك ف أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ. وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ أي : نخرج من قلوبهم كل غل وعدواة ، ونطهرها منه ، حتى لا يكون بينهم إلا التودد ، فيصيرون أحبابا وإخوانا ، وإنما عبّر بالماضي لتحقق وقوعه ، كأنه وقع ومضى ، وكذلك ما يجيء بعدها ، ثم وصف الجنة فقال : تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ أي : من تحت قصورهم ، الْأَنْهارُ من عسل وخمر وماء ولبن زيادة فى لذتهم وسرورهم ، فالقصور مرتفعة فى الهواء ، والأنهار تجرى تحتها.

وَقالُوا حينئذ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا أي : لما جزاؤه هذا النعيم من الإيمان فى الدنيا والعمل الصالح ، وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ بأنفسنا لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ بتوفيقه وإرادته ، لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فاهتدينا بإرشادهم ، يقولون ذلك اغتباطا وتبجحا بأن ما عملوه فى الدنيا يقينا ، صار لهم عين اليقين فى الآخرة ، وَنُودُوا أي : نادتهم الملائكة ، أو الحق تعالى : أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أي : هذه الجنة أُورِثْتُمُوها أي :

أعطيتموها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي : بسبب أعمالكم ، وهذا باعتبار الشريعة ، وأما باعتبار الحقيقة فكل شىء منه وإليه. ولذلك قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «لن يدخل الجنّة أحدكم عمله ، قالوا : ولا أنت ، قال : ولا أنا ، إلّا أن يتغمّدنى اللّه برحمته» «١».

فالشريعة تنسب العمل للعبد ، والحقيقة تعزله عنه ، وقد آذنت بها الآية قبله بقوله : وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ ، فقد نطقوا بما تحققوا به يوم القيامة.

وقال القشيري : إنما قال : أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تسكينا لقلوبهم ، وتطييبا لهم ، وإلّا ، فإذا رأوا تلك الدرجات ، علموا أن أعمالهم المشوبة لم تبلغ تلك الدرجات. هـ. وعن ابن مسعود أنه قال : (يجوزون الصراط بعفو اللّه ، ويدخلون الجنة برحمة اللّه ، ويقتسمون المنازل بأعمالهم). هـ.

الإشارة : والذين آمنوا بطريق الخصوص ، وعملوا الأعمال التي تناسبها ، من خرق العوائد واكتساب الفوائد ، والتخلية من الرذائل والتحلية بأنواع الفضائل على حسب الطاقة أولئك أصحاب جنة المعارف ، هم فيها خالدون فى الدنيا والآخرة ، قد نزع اللّه من قلوبهم المساويء والأكدار ، وطهّرها من جملة الأغيار ، حتى صاروا إخوانا متحابين لا لغو بينهم ولا تأثيم ، تجرى من تحت أفكارهم أنهار العلوم ، وتفتح لهم مخازن الفهوم ، فإذا تمكنوا من

---

(١) أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل) من حديث السيدة عائشة – رضى اللّه عنها.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢١٨

هذه الحضرة (قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا اللّه) ، تحققوا أنهم محمولون بسابق العناية ، محفوفون بعين الرعاية ، فتحققوا بما جاءت به الرسل من عند اللّه ، وما نالوه على يد أولياء اللّه من الذوق والوجدان ، وكشف الغطاء عن عين العيان ، منحنا اللّه من ذلك حظا وافرا ، بمنّه وكرمه.

ثم ذكر تبجح أهل الجنة على أهل النار ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤٤ الى ٤٧]

وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)

قلت : (أن) : فى هذه المواضع : مخففة من الثقيلة ، أو : تفسيرية ، وحذف مفعول : (وعد) الثاني استغناء بمفعول وعد الأول ، أو لإطلاق الوعد ، فيتناول الثواب والعقاب.

يقول الحق جل جلاله : وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا من النعيم حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ أنتم ما وَعَدَ رَبُّكُمْ من البعث والحساب حَقًّا ، إنما قال أهل الجنة ذلك تبجحا بحالهم ، وشماتة بأصحاب النار ، وتحسيرا لهم ، فأجابهم أهل النار بقولهم : نَعَمْ ، قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ بين الفريقين : أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الكافرين ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وهى الإسلام ، وَيَبْغُونَها أي : يطلبون لها عِوَجاً زيغا وميلا عما هو عليه من الاستقامة ، أو يطلبونها أن تكون ذات عوج ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ أي : جاحدون.

وَبَيْنَهُما أي : بين الفريقين حِجابٌ ، أو بين الجنة والنار حجاب ، يمنع دخول أثر أحدهما للأخرى ، وَعَلَى الْأَعْرافِ وهو السور المضروب بين الجنة والنار ، رِجالٌ طائفة من الموحدين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، كما فى الحديث. وقال فى الإحياء : يشبه أن يكونوا من لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد ، فلم تكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية ، فلا وسيلة تقربهم ، ولا جناية تبعدهم ، ولهم السلامة فقط ، لا تقريب ولا تبعيد. هـ. قلت : لكن سيأتى أنهم يدخلون الجنة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢١٩

ثم وصفهم بقوله : يَعْرِفُونَ كُلًّا من أهل الجنة والنار ، بِسِيماهُمْ : بعلامتهم التي أعلمهم اللّه بها كبياض الوجوه فى أهل الجنة ، وسوادها فى أهل النار ، أو غير ذلك من العلامات. وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ ، إذا نظروا إليهم ، فقالوا لهم : أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، أي : نادوهم بالسلام عليهم ، لَمْ يَدْخُلُوها أي : الجنة ، وَهُمْ يَطْمَعُونَ فى دخولها.

وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ أي : التفتوا إليهم على وجه القلة ، تعوذوا من حالهم ، قالُوا

رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فى النار.

الإشارة : إذا وصل أهل الجد والتشمير إلى حضرة العلى الكبير نادوا أهل البطالة والتقصير ، فقالوا لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا من كشف الحجاب والدخول مع الأحباب ، حقّا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقّا كما وجدنا نحن؟ قالوا على وجه الدعوى والغلط : نعم ، فأذن مؤذن بينهم ، بلسان الحال : أن لعنة اللّه على الظالمين الذين بقوا مع حظوظ أنفسهم ، ولم يخرقوا شيئا من عوائدهم ، مع تراميهم على مراتب الرجال ، وادعائهم بلوغ غاية الكمال ، الذين يصدون عن طريق الخصوص ويبغونها عوجا ، وهم بالخصلة الآخرة – وهى إشراق نور الحقيقة على أهل التربية – هم كافرون ، وبينهما حجاب كبير ، وهو حجاب الغفلة ، فلا يعرفون أهل اليقظة ، وهم أهل مقام الإحسان ، بل بينهما مفاوز ومهامه «١» ، كما قال الشاعر :

تركنا البحور الزّخرات وراءنا فمن أين يدرى النّاس أين توجّهنا

وعلى الأعراف وهو البرزخ الذي بين الحقيقة والشريعة ، رجال من أهل الاستشراف ، يعرفون كلا من العوام والخواص بسيماهم ، ونادوا أصحاب الجنة أي : الواصلين إلى جنة المعارف : أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ، لأنهم فى حالة السير ، وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ، أي : نار الحجاب والتعب ، وهم العوام ، قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

ثم ذكر شماتة أهل الأعراف بأهل النار ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]

وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)

---

(١) المهامة : جمع مهمه : وهي المفازة البعيدة. انظر اللسان (مهه).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٢٠

قلت : (ما أغنى) : استفهامية أو نافية ، و(ما كنتم) : مصدرية ، و(ادخلوا) : محكى بقول محذوف ، أي : قيل لهم ادخلوا ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا من رؤساء الكفرة ، يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ بعلامة فيهم من سوء حالهم ، قالُوا لهم : ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ أي : كثرتكم ، أو جمعكم للمال ، شيئا أو أىّ شىء أغنى عنكم جمعكم ، وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ؟ أي : واستكباركم؟ أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ

اللَّهُ بِرَحْمَةٍ وهم ضعفاء المسلمين الذين كانت الكفرة تستحقرهم فى الدنيا ، ويحلفون أن اللّه لا يدخلهم الجنة ، قد قيل لهم : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. أو تقول الملائكة لأهل الأعراف : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ، بعد أن حبسوا على الأعراف حتى أبصروا الفريقين وعرفوهم ، وقالوا لهم ما قالوا ، تفضل اللّه عليهم ، فقيل لهم : ادخلوا الجنة.

وقيل : لما عيّر أصحاب الأعراف أهل النار ، أقسموا – أي : أهل النار – أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة ، فقال لهم اللّه تعالى : أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ، ادْخُلُوا يا أهل الأعراف الْجَنَّةَ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أصحاب الأعراف : قوم من الصالحين حصل لهم محبة القوم ، ليسوا من عوام أهل اليمين ولا من خواص المقربين ، فإذا نظروا إلى أهل الطعن على الفقراء المتوجهين ، والترفع عليهم ، قالوا لهم : ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم ، أهؤلاء الذين كنتم تطعنون عليهم ، وأقسمتم أنهم ليسوا على شى ء؟ قد قيل لهم : ادخلوا جنة المعارف لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ، وأنتم حصل لكم الخيبة ، والحرمان ، والأسر فى أيدى النفوس ، والحصر فى سجن الأكوان. عائذا بالله من ذلك.

ثم ذكر استغاثة أهل النار بأهل الجنة ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٥٠ الى ٥٣]

وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٥١) وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٢١

قلت : (هدى ورحمة) : حال من مفعول (فصّلناه) ، (فيشفعوا) : جواب الاستفهام ، (أو نرد) بالنصب : عطف عليه ، وبالرفع : استئناف ، فعلى الأول : المسئول أحد الأمرين إما الشفاعة أو الرد ، وعلى الثاني : المسئول الشفاعة فقط.

يقول الحق جل جلاله : وَنادى ، يوم القيامة ، أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا أي : صبوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ ، وفيه دليل على أن الجنة فوق النار ، أو : صبوا علينا مما رزقكم اللّه من سائر

الأشربة ، ليلائم قوله أَفِيضُوا ، أو : من الطعام على حذف الفعل ، أي : أو أعطونا مما رزقكم اللّه ، قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ ، أي : منعهما عنهم ، الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً كتحريم البحائر والسوائب ، والتصدية حول البيت ، والطواف به عريانا ، وغير ذلك مما أحدثوه ، واللهو : صرف القلب إلى ما لا يحصل به نفع أخروى. واللعب : طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به لخلوه عن منفعة دينية ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا بأن أنستهم القيامة ، فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا ، والكاف : للتعليل ، أي : ننساهم لأجل نسيانهم لقاء يومهم هذا ، فلم يخطروه ببالهم ، ولم يستعدوا له ، وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ أي : نهملهم لأجل إهمالهم الاستعداد للقاء ، وإهمالهم آياتنا حتى جحدوا أنها من عند اللّه.

وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ أي : بيّنا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ ، مفصلة عَلى عِلْمٍ ، أي : عالمين بوجه تفصيله حتى جاء فى غاية الإتقان ، هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فإنهم المنتفعون بهدايته ورحمته دون غيرهم.

هَلْ يَنْظُرُونَ أي : ما ينتظر الكفار به إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، أي : ما يئول إليه أمره من تبين صدقه ، بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد ، بقيام الساعة وما بعدها ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ بظهور ما نطق به ، يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ ، ولم يؤمنوا به : قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ أي : قد تبين أنهم جاءوا بالحق ، وحصل لهم اليقين حيث لم ينفع ، ثم طلبوا من يشفع فيهم فقالوا : فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا اليوم ، أَوْ نُرَدُّ أي :

وهل نرد إلى الدنيا فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ فنستبدل الكفر بالإيمان ، والعصيان بالطاعة والإذعان ، أو :

فيشفعوا لنا فى أحد الأمرين : إما السلامة من العذاب ، أو الرد إلى الدنيا فنستبدل الكفر بالإيمان.

قال تعالى :

قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ أي : بخسوها بسوء أعمالهم وكفرهم ، وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أي : غاب عنهم افتراؤهم فلم ينفعهم.

(٢٢١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٢٢

الإشارة : إذا وصل أهل الجد والتشمير إلى حضرة العلى الكبير ، وأفاض عليهم من ماء غيبه ، حتى امتلأت قلوبهم وأسرارهم ، فأثمر لهم العلوم اللدنية والأسرار الربانية ناداهم أهل البطالة والتقصير : أفيضوا علينا من الماء الذي سقاكم اللّه منه ، أو مما رزقكم من العلوم والمعارف. قالوا : إن اللّه

حرمهما على البطالين الذين اتخذوا طريق القوم لهوا ولعبا ، وغرتهم الحياة الدنيا فقبضتهم فى شبكتها ، فيقول تعالى : فاليوم ننساهم من لذيذ مشاهدتى ، وحلاوة معرفتى ، كما نسوا لقائى بشهود ذاتى ، وأنكروا على أوليائى وأهل معرفتى ، وجحدوا وجود التربية وحجروا على قدرتى ، ولقد جئناهم بكتاب فصّلنا فيه كل شىء فقلنا فيه : ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها «١» إلى يوم القيامة ، هل ينظرون إلا تأويله؟ يوم يأتى تأويله بظهور درجات المقربين ، فى أعلى عليين ، حينئذ يحصل لهم اليقين بوجود المقربين ، أو بالتربية النبوية فى كل زمان وحين ، فيطلب الشفاعة فى اللحوق بهم ، أو يرد إلى العمل بعملهم .. هيهات! قد بعثر ما فى القبور ، وحصّل ما فى الصدور ، فخسر المبطلون ، وفاز المجتهدون السابقون. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه.

ثم عرّف الحق – جل جلاله – بنفسه ليعرفه من أراد معرفته فى الدنيا ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٥٤ الى ٥٦]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)

قلت : (حثيثا) أي : سريعا صفة لمصدر محذوف ، أي : طلبّا حثيثا ، أو حال من الفاعل ، أي : حاثا ، و(مسخرات) حال فيمن نصب ، وخبر فيمن رفع ، و(تضرعا وخفية) : مصدران ، حالان من الواو ، وكذلك (خوفا وطمعا).

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ رَبَّكُمُ الذي يستحق أن تعبدوه ، هو اللَّهُ وحده الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أي : أظهرهما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ أي : مقدار ستة أيام من أيام الدنيا إذ لم يكن ثمّ شمس ، ولو شاء خلقهن فى لمحة ، والعدول إليه لتعليم خلقه التأنى والتثبت.

---

(١) من الآية ١٠٦ من سورة البقرة.

ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ استواء يليق به ، والعرش : جسم عظيم محيط بالأكوان. سمى به لارتفاعه ، وللتشبيه بسرير الملك ، فالأكوان فى جوفه ممحوقة فقد استولى عليها ومحقها ، كذلك أسرار معانى الربوبية الأزلية قد استولت عليه ومحقته ، فيمكن أن يكون الحق تعالى عبّر بالاستواء عن هذا الاستيلاء

، وسيأتى فى الإشارة تمامه إن شاء اللّه.

وقال القشيري : ثم استوى على العرش ، أي : توحّد بجلال الكبرياء بوصف الملكوت ، وملوكنا إذا أرادوا التجلّى والظهور للحشم والرعية برزوا لهم على سرير ملكهم فى إيوان مشاهدتهم. فأخبر الحقّ – سبحانه وتعالى – بما يقرب من فهم الخلق ، بما ألقى إليهم من هذه الكلمات ، بأنه استوى على العرش ، ومعناه : اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية ، وانفراده بنعت الجبروت وجلاء الربوبية ، وتقدّس الجبّار عن الأقطار ، والمعبود عن الحدود. هـ.

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ أي : يغطى نور النهار بظلمة الليل ، يَطْلُبُهُ حَثِيثاً أي : يعقبه سريعا كالطالب له ، لا يفصل بينهما شيء ، وَخلق الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أي : بقضائه وتصريفه ، ومن عجائب تسخيرها أن جعلها مقرونة بأمور غيبية ، دالة على ظهور شيء منها.

والنهى عن النظر فى النجوم أو تصديق المنجمين إنما هو لمن اعتقد التأثير لها مستقلة بنفسها ، أو تصديقهم فى تفصيل ما يخبرون به لأنهم إنما يقولون ذلك عن ظن وتخمين وجهل ، فإنّ علم النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء ، ثم اندرس ذلك العلم ، فلم يبق إلا ما هو مختلط ، لا يتميز فيه الصواب من الخطأ ، فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار يخلق اللّه – تعالى – بها فى الأرض ، وفى النبات والحيوان شيئا ، يعنى فى الجملة ليس قادحا فى الدين ، بل هو الحق ، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل : قادح فى الدين ، فالكواكب ما خلقت عبثا ، ولهذا نظر عليه الصلاة والسلام إلى السماء ، وقرأ قوله تعالى : رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا ... الآية «١».

انظر : الإحياء للغزالى.

ثم قال تعالى : أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ أي : الإيجاد والتصرف بالأمر والنهى ، تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ أي : تعاظم فى ألوهيته ، وتعالى فى ربوبيته ، وتفرد فى وحدانيته.

قال البيضاوي : (و تحقيق الآية – واللّه أعلم – أن الكفرة كانوا متخذين أربابا ، فبيّن لهم أن المستحق للربوبية واحد – وهو اللّه تعالى لأنه الذي له الخلق والأمر ، فإنه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم ، وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك العلوية ، والأجرام السفلية ، ثم بعد تمام خلق عالم الملك أخذ فى تدبيره كالملك الجالس على عرشه

---

(١) الآية ١٩١ من سورة آل عمران.

وسريره لتدبير مملكته ، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب ، وتكوير الليالى والأيام ، فله الخلق والأمر. وكذلك قال فى آية السجدة بعد ذكر الخلق : ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ «١» ، فربّ الخلائق : من هذا صفته ، لا غيره. انتهى بالمعنى.

ثم أمرهم بأن يدعوه ، متذللين مخلصين ، فقال : ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً أي : ذوى تضرع وخفاء فإن الإخفاء دليل الإخلاص ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ المتجاوزين ما أمروا به فى الدعاء وغيره ، ونبه على أن الداعي ينبغى ألّا يطلب ما لا يليق به كرتبة الأنبياء ، وقيل : الاعتداء فى الدعاء ، هو الصياح به ، والتشدق ، أو اختراع دعوة لا أصل لها فى الشرع ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «سيكون قوم يعتدون فى الدّعاء ، وحسب المرء أن يقول :

اللّهم إنّى أسألك الجنّة وما يقرب إليها من قول وعمل. ثم قرأ : إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» «٢».

وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بالكفر والمعاصي ، بَعْدَ إِصْلاحِها ببعث الأنبياء ، وشرع الأحكام ، أو : ولا تفسدوا فى الأرض بالمعاصي الموجبة لفساد العالم بالقحط والفتن ، بعد إصلاحها بالخصب والأمان ، وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً أي : خوفا من الرد لقصور الأعمال ، وطمعا فى القبول بالفضل والكرم إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ المخلصين.

قال البيضاوي : هو ترجيح للطمع ، وتنبيه على ما يتوصل به إلى الإجابة ، وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الترحم ، أو لأنه صفة محذوف أي : أمر قريب ، أو على تشبيه فعيل الذي هو بمعنى مفعول ، أو للفرق بين القريب من النسب ، والقريب من غيره. هـ. قلت : والأحسن أنه إنما ذكره لأن المراد بالرحمة هنا : سر الخصوصية ، وهو مذكر ، فراعى معنى اللفظ ، كأنه قال : إن سر الولاية – وهى الخصوصية – قريب من المحسنين.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى : (فى ستة أيام) : قال الورتجبي : فى كل يوم من هذه الأيام : ظهور صفة من صفاته ا لست : أولها : العلم ، والثاني : القدرة ، والثالث : السمع ، والرابع : البصر ، والخامس : الكلام ، والسادس : الإرادة ، كملت الأشياء بظهور أنوار الصفات الستة ، ولما أتمها صارت الحدثان كجسد آدم بلا روح ، فتجلى من صفته السابعة –

---

(١) الآية ٤ من سورة السجدة.

(٢) أخرجه أبو يعلى فى مسنده «٢/ ٧١» من حديث سعد بن أبى وقاص. وصدر الحديث إلى قوله (فى الدعاء) أخرجه أبو داود فى (الطهارة ، باب الإسراف فى الماء) وابن ماجه فى (الدعاء ، باب كراهية الاعتداء فى الدعاء) والحاكم فى المستدرك «١/ ٥٤٠» وصححه ووافقه الذهبي ، من حديث عبد اللّه بن مغفل.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٢٥

وهى حياته القديمة الأزلية الباقية ، المنزهة عن همهمة الأنفاس والمشابهة والقياس – فقامت الأشياء بصفاته القائمة بذاته ، ويكون إلى الأبد لحياتها بروح حياته ، المقدسة عن الاتصال والانفصال. قلت : وهى المعبّر عنها بالمعاني القائمة بالأوانى. ثم قال : وفى أدق الإشارة : السموات : الأرواح ، والأرض : الأشباح ، والعرش : القلوب ، بدأ بكشف الصفات للأرواح ، وبدأ بكشف الأفعال للأشباح ، ثم بدأ بكشف الذات للقلوب لأن مناظر القلوب للغيوب ، والغيوب من القلوب محل تجلى استواء القدم ، استوى قهر القدم ، بنعت الظهور للعدم ، أي : فتلاشى العدم ، ثم استوى تجلى الصفات على الأفعال ، واستوى تجلى الذات على الصفات ، فاستوى بنفسه لنفسه ، المنزه عن المباشرة بالحدثان والاتصال والانفصال عن الأكوان. قلت : أي : إذ لا حدثان ولا أكوان لأنها لما قرنت بالقدم تلاشت ، وما بقي إلا نعت القدم.

ثم قال : خصّ السموات والأرض بتجلى الصفات ، وخص العرش بتجلى الذات. قلت : لأن المعاني المستولية على العرش باقية على أصلها ، وهى أسرار الذات لم تتردّ برداء الكبرياء ، وهو حجاب الحس الظاهر ، بخلاف المعاني القائمة بالأوانى ، وهى أنوار الصفات ، تجلت مرتدية بحجاب القهرية ، فقيل لها : تجلى الصفات.

ثم قال : السموات والأرض جسد العالم ، والعرش قلب العالم ، والكرسي دماغ العالم ، خص الجميع بالأفعال والصفات ، وخص العرش بظهور الذات لأنه قلب الكل ، وهو غيب الرحمن وعلمه وحكمته ، رأيته فى المكاشفة أنوارا شعشعانيا ، بلا جسم ولا مكان ولا صورة ، يتلألأ ، فسألت عن ذلك ، فقيل لى : هذا عالم يسمى عرشا. انتهى.

قلت : وأقرب من هذا كله : أن العرش قد استولى على ما فى جوفه من العوالم ، حتى صارت فى وسطه كلا شيء ، ومعانى أسرار الربوبية ، وهى العظمة الأصلية – قد استولت عليه ، وأحاطت به ، ومحت وجوده ، فعبّر الحق – جل جلاله – عن استيلاء هذه العظمة – التي هى أسرار الربوبية – على العرش بالاستواء. وإلى هذا أشار فى الحكم العطائية بقوله : «يا من استوى برحمانيته على عرشه ، فصار العرش غيبا فى رحمانيته ، كما صارت العوالم غيبا فى عرشه ، محققت الآثار بالآثار ، ومحوت الآثار – وهى العرش وما احتوى عليه – بمحيطات أفلاك الأنوار» وهى أسرار الذات المحيطات بالآثار ، من العرش إلى الفرش ، فعبّر عن المعاني المستولية على العرش بالرحمانية لأن الرحمانية صفة الذات ، والصفة لا تفارق الموصوف ، فافهم.

قلت : ومن كحل عينه بإثمد توحيد الذات لا يستبعد أن يكون الحق – جل جلاله – يتجلى بتجل

خاص من أسرار ذاته وأنوار صفاته ، يستوى بتلك العظمة على العرش ، كما يتجلى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده ، إذ تجلياته لا تنحصر ، بل كل ما ظهر فى عالم الشهادة فإنما هو نور من تجلى ذاته وصفاته. وهذا القدر كاف لمن شم شيئا

(٢/٢٢٥)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٢٦

من أسرار التوحيد ، وقد تكلم ابن جزى هنا على الخوف والرجاء ، وأطال فيهما ، ولكنه يجنح لتصوف أهل الظاهر ، وقد تقرر فى محله.

وقوله تعالى : إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ : هو تقييد لقوله : يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ فالمختص بالرحمة هم المحسنون. انظر لفظ الحكم. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق – جل جلاله – تصاريف قدرته المفهوم من قوله : (ألا له الخلق والأمر) ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٥٧ الى ٥٨]

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)

قلت : (نشرا) : حال من الرياح ، وهو جمع نشور ، بمعنى ناشر ، ومن قرأ بسكون الشين ، فهو تخفيف منه ، ومن قرأ بفتح النون ، فمصدر فى موضع الحال ، بمعنى : ناشرات ، أو مفعول مطلق فإن الإرسال والنشر متقاربان ، ومن قرأه بالباء وسكون الشين فهو جمع بشير ، مخفف ، و(أقلّت) : مشتق من القلة لأن الحامل للشيء يستقله ، و(ثقالا) :

جمع لأن السحاب جمع بمعنى السحائب.

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ أو الرياح نَشْراً أي : تنشر السحاب ، وتفرقه إلى الأرض التي أراد اللّه أن تمطر ، أو بشارة بالمطر «١» ، بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أي : قبل نزول المطر ، فهى قدامه فإن الصبا تثير السحاب ، والشمال تجمعه ، والجنوب تذره ، والدبور تفرقه. قاله البيضاوي.

حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ أي : حملت سَحاباً ثِقالًا بالماء لأنها تحمل الماء فتثقل به ، سُقْناهُ أي : السحاب بما اشتمل عليه من الماء ، لِبَلَدٍ مَيِّتٍ أي : لإحيائه أو لسقيه بعد يبسه ، كأنه ميت ، فَأَنْزَلْنا بِهِ أي : بالبلد ، أو بالسحاب ، أو بالسوق ، أو بالريح ، الْماءَ الذي فى السحاب ، فَأَخْرَجْنا بِهِ أي : بالماء ، مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ من كل أنواعها وأصنافها ، كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى من القبور ، أي : كما نحيى البلد بإحداث القوة

(١) هذا المعنى على قراءة «بشرا» ، جمع بشير ، وهى قراءة عاصم. وقرأ الباقون «نشرا» بالنون. راجع الإتحاف (٢/ ٥٢). [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٢٧

النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى الحسية. قاله البيضاوي.

وقال ابن جزى : هو تمثيل لإخراج الموتى من القبور بإخراج الزرع من الأرض ، وقد وقع ذلك فى القرآن فى مواضع منها : كَذلِكَ النُّشُورُ «١» وكَذلِكَ الْخُرُوجُ «٢». هـ. لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على إحياء الموتى ، إذ لا فرق.

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ أي : الأرض الكريمة والتراب الجيد يَخْرُجُ نَباتُهُ بسهولة ، حسنا قويا نضرا ، بِإِذْنِ رَبِّهِ أي : بمشيئته وقدرته ، وَالَّذِي خَبُثَ من الأرض كالحرة والسبخة ، لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً قليلا عديم النفع ، أو عسيرا بمشقة ، كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ نكررها ونرددها لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ نعمة اللّه ، فيتفكرون فيها ، ويعتبرون بها.

قال البيضاوي : والآية مثل لمن تدبر الآيات وانتفع بها ، ولمن لم يرفع إليها رأسا ولم يتأثر بها ، ومثله فى البخاري فى حديث طويل «٣». وقال ابن عباس وغيره : هو ضرب مثل للمؤمن والكافر. وقال ابن جزى :

يحتمل أن يكون المراد ما يقتضيه ظاهر اللفظ ، فتكون متممة للمعنى الذي قبلها فى المطر ، وأن تكون تمثيلا للقلوب فالطيب : قلب المؤمن ، والخبيث : قلب الكافر ، وقيل : هما للفهم والبليد. هـ.

الإشارة : وهو الذي يرسل رياح الهداية ، تنشر سحاب الواردات الإلهية والنفحات الربانية ، بين يدى معرفته ، أو تبشر بها قبل وصولها ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا بالعلوم اللدنية ، سقناه لقلب ميت بالجهل والهوى ، فأنزلنا مما فيه من ماء ذلك الأمطار ، فأخرجنا به من ثمرات العلوم وأزهار الحكم ونوار اليقين. وفى الحكم : «لا تزكين واردا لم تعلم ثمرته ، فليس المقصود من السحابة الأمطار ، وإنما المقصود وجود الأثمار». (كذلك نخرج الموتى) أي :

نحى القلوب الموتى بالجهل ، (لعلكم تذكرون). والبلد الطيب ، وهو القلب الطيب ، إذا هبت عليه هذه الواردات ، ونزلت فيه أمطار النفحات ، يخرج نباته من العلوم والمعارف بإذن ربه ، والذي خبث من القلوب لا يخرج ما فيه إلا نكدا – أي : ضعيفا لعدم تأثره بالواردات والمواعظ.

وقال الورتجبي : ذكر – سبحانه – القلب الذي هو بلد اللّه الذي مطر عليه من بحر امتنانه ، ويخرج نبات ألوان الحالات والمقامات. ثم قال : وكل قلب بذره الهوى فنباته الشهوات. هـ.

---

(١) من الآية ١١ من سورة ق.

(٢) من الآية ٩ من سورة فاطر.

(٣) وذلك قول الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم : «مثل ما بعثني اللّه به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير ...» الحديث أخرجه البخاري فى (العلم – باب فضل من علم وعلّم) ومسلم فى (الفضائل – باب بيان ما بعث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من الهدى والعلم) عن أبى موسى رضى اللّه عنه.

(٢٢٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٢٨

ثم شرع فى ذكر قصص الأنبياء مع أممهم ، تفصيلا لقوله : (و كم من قرية أهلكناها ..) ... الآية ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٥٩ الى ٦٤]

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٦٠) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (٦٤)

قلت : (أو عجبتم) : الهمزة للإنكار ، والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف ، أي : أكذبتم وعجبتم ، و(فى الفلك) : يتعلق بأنجينا ، أو بمن معه ، أو حال من الموصول.

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ ، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن إدريس ، نبىء بعده «١» ، بعث وهو ابن خمسين سنة أو أربعين ، وعاش ألفا وثلاثمائة سنة ، فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ يستحق أن يعبد ، إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ ، إن لم تؤمنوا وتوحدوا اللّه عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ وهو يوم القيامة ، أو يوم نزول الطوفان.

قالَ الْمَلَأُ أي : الأشراف مِنْ قَوْمِهِ لأنهم يملأون العيون عند رؤيتهم ، قالوا له : إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : فى خطأ بيّن عن الحق ، قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ أي : ليس بي شىء من الضلال ، بالغ لهم فى النفي كما بالغوا له فى الإثبات ، وعرض لهم به ، وتلطف لهم فى القول ، وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ

الْعالَمِينَ أي : لست فى ضلال كما اعتقدتم ، ولكنى فى غاية من الهدى لأنى رسول من رب العالمين ، أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي كما أمرنى ، وَأَنْصَحُ لَكُمْ جهدى ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ من صفاته الجلالية والجمالية ومن رحمته وعذابه ، أو من قدرته وشدة بطشه ، أو أعلم من جهة وحيه أشياء لا علم لكم بها ، وجمع الرسالات لاختلاف أوقاتها ، أو لتنوع معانيها ، كعلم العقائد والمواعظ والأحكام.

---

(١) أي : بعد إدريس – عليه السلام.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٢٩

ثم قال لهم : أَوَعَجِبْتُمْ أي : أكذبتم وعجبتم من أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ أي : تذكير ووعظ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى لسان رَجُلٍ مِنْكُمْ أي : من جملتكم ، أو من جنسكم كانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون : وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ «١» ، قال القشيري : عجبوا من كون شخص رسولا ، ولم يعجبوا من كون الصنم شريكا لله ، هذا فرط الجهالة وغاية الغواية. هـ. وحكمة إرساله كونه جاءكم لِيُنْذِرَكُمْ عاقبة الكفر والمعاصي ، وَلِتَتَّقُوا اللّه بسبب ذلك الإنذار ، وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ بتلك التقوى ، وفائدة حرف الترجي التنبه على أن التقوى غير موجب للترحم بذاته ، وإنما هو – أي : الترحم – فضل من اللّه ، وأن المتقى ينبغى ألا يعتمد على تقواه ، ولا يأمن من عذاب اللّه.

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ هو ومن آمن به ، وكانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة ، وقيل : عشرة ، وقيل : ثمانية ، حملناهم فِي الْفُلْكِ أي : السفينة ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا بالطوفان إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ أي : عمى القلوب ، غير مستبصرين ، وأصله : عميين ، مخفف. قاله البيضاوي.

الإشارة : الشريعة المحمدية : سفينة نوح عليه السّلام ، فمن ركب بحر الحقائق وحاد عنها حال بينه وبينها الموج فكان من المغرقين فى بحر الزندقة والكفر ، ومن تمسك بها فى ذلك كان من الناجحين الفائزين.

ثم ذكر قصة هود عليه السّلام فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٦٥ الى ٧٢]

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٦٦) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً

فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)
قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)

---

(١) كما جاء فى الآية ٢٤ من سورة (المؤمنون).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣٠
قلت : (أخاهم) : عطف على نوح ، و(هودا) : عطف بيان أو بدل ، وكذلك (أخاهم صالحا) وما بعده حيث وقع.
يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى قبيلة عادٍ أَخاهُمْ أي : واحد من قبيلتهم ، كقولهم :
يا أخا العرب ، فإنه هود بن عبد اللّه بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وقيل : هو هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، فهو ابن عم أبى عاد ، وإنما أرسل إليهم منهم لأنهم أفهم لقوله ، وأعرف بحاله ، وأرغب فى اتباعه ، ثم وعظهم فقال : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ عذاب اللّه ، قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
، كان قومه أحسن من قوم نوح ، إذ كان من أشرافهم من آمن به كمرثد بن سعد ، ولذلك قيد الملأ بمن كفر ، بخلاف قوم نوح لم يكن أحد منهم آمن به ، فأطلق الملأ ، قالوا لهود عليه السّلام : إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ أي : متمكنا فى خفة العقل ، راسخا فيها ، حيث فارقت دين قومك ، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ فى ادعاء الرسالة.
قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ ، وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي ، وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ ، يحتمل أن يريد أمانته على الوحى ، أو أنهم كانوا قد عرفوه بالأمانة والصدق قبل الرسالة. ثم قال : أَوَعَجِبْتُمْ من أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ، تقدم تفسيرها.
قال البيضاوي : وفى ذكر إجابة الأنبياء الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا به والإعراض عن مقالتهم :
كمال النصح والشفقة ، وهضم النفس ، وحسن المجادلة ، وهكذا ينبغى لكل ناصح ، وفى قوله : وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ : تنبيه على أنهم عرفوه بالأمرين. هـ.

ثم قال لهم : وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ فى مساكنهم ، أو خلفاء فى الأرض من بعدهم بأن جعلكم ملوكا ، فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض ، من رمل عالج إلى بحر عمان ، خوفهم أولا من

(٢/٢٣٠)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣١

عقاب اللّه ، ثم ذكرهم بإنعامه وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً أي : قامة وقوة ، فكانوا عظام الأجساد ، فكان أصغرهم : ستين ذراعا ، وأطولهم : مائة ذراع. فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ أي : نعمه ، تعميم بعد تخصيص ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أي : لكى يفضى بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدى إلى الفلاح ، ومن شكرها : الإيمان برسولهم.

قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا من الأصنام ، استبعدوا اختصاص اللّه بالعبادة والإعراض عما وجدوا عليه آباءهم انهماكا فى التقليد ، وحبا لما ألفوه مع اعترافهم بالربوبية ، ولذلك قال لهم هود عليه السّلام : قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، بعد أن قالوا : فَأْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فيه.

قالَ قَدْ وَقَعَ أي : وجب عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ عذاب وَغَضَبٌ إرادة الانتقام ، أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ أي : أتجادلونني فى عبادة مسميات أسماء ، ففى الكلام حذف. وأراد بقوله : سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ أي : جعلتم لها أسماء ، فدل ذلك على أنها محدثة ، فلا يصح أن تكون آلهة ، أو سميتموها آلهة من غير دليل ، وهو معنى قوله : ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ أي : حجة تدل على استحقاقها للعبادة ، فالمجادلة يحتمل أن تكون فى عبادتها ، أو فى تسميتها آلهة ، والمراد بالاسم – على الأول – المسمى ، وعلى الثاني : التسمية .. قاله ابن جزى. فَانْتَظِرُوا نزول العذاب ، الذي طلبتم حين أصررتم على العناد ، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ نزوله.

قال تعالى : فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا عليهم. قال القشيري : لا رتبة فوق رتبة النبوة ، ولا درجة أعلى من درجة الرسالة ، وقد أخبر سبحانه : أنه نجىّ هودا برحمته ، وكذا نجىّ الذين آمنوا معه برحمته ، ليعلم أن النجاة لا تكون باستحقاق العمل ، وإنما تكون ابتداء فضل من اللّه ورحمة ، فما نجا من نجا إلا بفضل اللّه سبحانه وتعالى. هـ.

وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أي : استأصلناهم ، وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ ، تعريض بمن آمن منهم ، وتنبيه على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك : هو الإيمان.

روى أنهم كانوا يعبدون الأصنام ، فبعث اللّه إليهم هودا فكذبوه ، وزادوا عتوا ، فأمسك اللّه عنهم

المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ، وكان الناس حينئذ ، مسلمهم ومشركهم ، إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من اللّه الفرج ، فجهزوا إليه «قيل بن عنز» ، ومرثد بن سعد ، فى سبعين من أعيانهم ، وكان إذ ذاك بمكة العمالقة أولاد عمليق بن لاود بن سام ، وسيدهم : معاوية بن بكر ، فلما قدموا عليه ، وهو بظاهر مكة ، أنزلهم وأكرمهم ، وكانوا أخواله وأصهاره ، فلبثوا عنده شهرا يشربون الخمر ، وتغنى عليهم الجرادتان – قينتان له – فلما رأى ذهولهم عما

(٢/٢٣١)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣٢

بعثوا له أهمه ذلك ، واستحيا أن يكلمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم ، فعلم المغنيتين بيتين من الشعر ، وأمرهما أن تغنيا به وهما :

ألا يا قيل ويحك ، قم ، فهينم لعلّ اللّه يسقينا الغماما

فيسقى أرض عاد ، إنّ عادا قد امسوا لا يبينون الكلاما

فلما غنيتا به أزعجهم ذلك ، فقال مرثد : واللّه لا يسقون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم ، وتبتم إلى اللّه ، سقيتم ، فقالوا لمعاوية : احبسه عنّا ، لا يقدمنّ معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود ، وترك ديننا ، ثم دخلوا مكة ، فقال قيل : اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم ، فأنشأ اللّه سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء : يا قيل اختر لنفسك ولقومك. فقال : اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء ، فخرجت إلى عاد من وادي المغيث ، فاستبشروا بها ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا ، فجاءتهم ، فيها ريح عقيم ، فأهلكتهم ، روى أنها لما قربت من ديارهم حملت أنعامهم فى الهواء ، كأنها جراد ، فاستمرت عليهم سبع ليال وثمانية أيام ، شدخت رؤوسهم إلى الحجارة حتى هلكوا جميعا ، ونجا هود والمؤمنون معه ، فأتوا مكة وعبدوا اللّه حتى هلكوا. قاله البيضاوي وغيره.

وهاهنا بحث وهو أن البيت إنما بناه إبراهيم عليه السّلام حسبما فى الصحيح ، ولم تعمر مكة إلا بعد إنزال إسماعيل فيها ، وهود كان قبل إبراهيم ، والبيت حينئذ خرب ، كان خربه الطوفان ، فكيف يتوجهون إليه وهو لم يكن؟.

ويمكن الجواب : بأنهم كانوا يلتجئون إلى رسومه وخربته التي بقيت بعد الطوفان لأن أول من بناه آدم عليه السّلام فلما خربه الطوفان بقي أثره ، فكانوا يتبركون به ، وفى بعض التواريخ : أن العماليق بنوه قبل إبراهيم ، فكانوا يطوفون به ويتبركون ، ثم هدم ، وبناه بعدهم خليل اللّه إبراهيم. وبهذا – إن صح – يزول الإشكال. واللّه تعالى أعلم.

وأما من قال : إن هودا تعدد ، فغير سديد.

الإشارة : قد تضمنت موعظة هود عليه السّلام لقومه خصلتين ، بهما النجاة من كل هول وشر ، والفوز بكل خير ، وهما : التوحيد والتقوى ، وهى الطاعة لله ولرسوله فيما جاء به من أمر ونهى. فالتوحيد تطهير الباطن من الشرك الجلى والخفي ، والتقوى : حفظ الجوارح من المخالفة فى السر والعلانية ، وهاتان الخصلتان هما أساس الطريق ونهايته. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة صالح عليه السّلام ، فقال :

(٢٣٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣٣

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٧٣ الى ٧٩]

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

قلت : آيَةً : حال ، والعامل فيها : الإشارة ، وبُيُوتاً : حال من الجبال.

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى ثَمُودَ قبيلة أخرى من العرب ، سموا باسم أبيهم الأكبر : ثمود بن غابر بن إرم بن سام ، وقيل : سموا به لقلة ما بهم من التثميد ، وهو الماء القليل ، وكانت مساكنهم الحجر ، بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وقد دخلها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه ، فقال لهم صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلّا أن تكونوا باكين مخافة أن يصيبكم مثل ما أصابهم» «١».

أرسلنا إليهم أَخاهُمْ صالِحاً ، وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. وقال وهب بن منبه : بعث اللّه صالحا حين راهق الحلم. وقال الكواشي : إنه مات ابن ثمان وخمسين سنة ، وأقام فى قومه ينذرهم عشرين. هـ.

---

(١) أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء – باب قول اللّه تعالى : وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً) ومسلم فى (الزهد – باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن أن تكونوا باكين) من حديث سيدنا عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنه.

(٢٣٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣٤

قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتى ، وهى : هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً لأنها جاءت من عند اللّه بلا وسائط وأسباب ، على ما سيأتى ، فَذَرُوها أي : اتركوها ، تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ العشب ، وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ ، نهى عن المس ، الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى مبالغة فى الأمر وإزاحة للعذر. قاله البيضاوي. فَيَأْخُذَكُمْ إن مستموها بسوء عَذابٌ أَلِيمٌ ، وهو الهلاك بالصيحة.

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ أي : هيأ لكم القرار فِي الْأَرْضِ أي : أرض الحجاز ، تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً أي : تبنون مما انبسط منها قصورا ، فالسهل ضد الجبل ، وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً أي : تنجرون بيوتا من الجبال ، وكانوا يسكنون القصور فى الصيف والجبال فى الشتاء. فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بالمعاصي والكفر.

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ عن الإيمان ، لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أي : للذين استضعفوهم واستذلوهم – أعنى لمن آمن منهم – : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟ ، قالوه على وجه الاستهزاء ، قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ، لم يقولوا فى الجواب : نعم تنبيها على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل أو يخفى على ذى رأى ، وإنما الكلام فيمن آمن ومن كفر فلذلك قال : قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ على المقابلة ، ووضعوا آمَنْتُمْ بِهِ موضع أُرْسِلَ بِهِ ردا لما جعلوه معلوما مسلما.

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ نحروها ، أسند إلى جميعهم فعل بعضهم كما يأتى لأنه كان برضاهم ، وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ أي : استكبروا عن امتثال أمره ، وهو ما بلغهم صالح بقوله : فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ ، وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أي : صيحة جبريل ، فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ باركين على ركبهم ، ميتين.

روى : أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم ، وكثروا ، وعمروا أعمارا طوالا لا تفى بها الأبنية ، فنحتوا البيوت من الجبال ، وكانوا فى خصب وسعة ، فعتوا وأفسدوا فى الأرض ، وعبدوا الأصنام ، فبعث اللّه إليهم صالحا من أشرافهم ، فأنذرهم ، فسألوه آية ، فقال لهم : أىّ آية تريدون؟ فقالوا : اخرج معنا إلى عيدنا فتدعو إلهك وندعو آلهتنا ، فمن استجيب له اتبع ، فخرج معهم ، فدعوا أصنامهم فلم تجبهم ،

ثم أشار سيدهم «جندع بن عمرو» إلى صخرة منفردة يقال لها : «الكاثبة» ، قال له : أخرج من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء ، فإن فعلت صدقناك ، فأخذ

(٢/٢٣٤)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣٥

عليهم صالح مواثيقهم : لئن فعلت ذلك لتؤمنن؟ قالوا : نعم ، فصلى ، ودعا ربه ، فتمخضت الصخرة تمخّض النتوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عشراء ، جوفاء وبراء كما وصفوا ، وهم ينظرون ، ثم أنتجت ولدا مثلها فى العظم ، فآمن به جندع فى جماعة ، ومنع الناس من الإيمان : ذؤاب بن عمرو ، والحباب صاحب أصنامهم ، ورباب كاهنهم.

فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر ، وترد الماء غبّا ، فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها ، ثم تنفحج «١» ، فيحلبون ما شاءوا حتى تمتلىء أوانيهم ، فيشربون ويدخرون ، وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه ، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق ذلك عليهم ، فزينت عقرها لهم «عنيزة أم غنم» وصدقة بنت المختار ، فعقروها واقتسموا لحمها ، وعاقرها : الأحمر ، واسمه قدار ، استعان برجل آخر ، فلما شربت اختبأ لها فى جانب تل ، فضربها صاحبه بالسهم ، وعقرها قدار بسيفه ، واقتسموا لحمها ، فرقى ولدها جبلا اسمه : قارة ، فرغى ثلاثا ، ودخل صخرة أمه ، فقال لهم صالح عليه السّلام : أدركوا الفصيل ، عسى أن يرفع عنكم العذاب ، فلم يقدروا عليه حيث دخل الصخرة بعد رغائه ، فقال لهم صالح عليه السّلام : تصبح وجوهكم غدا مصفرة ، وبعد غد محمرة ، واليوم الثالث مسودة ، ويصبحكم العذاب ، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه ، فأنجاه اللّه إلى أرض فلسطين. ولما كان ضحوة اليوم الرابع : تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع ، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ، ظاهره : أن توليته عنهم بعد أن أبصرهم جاثمين ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم ، كما خاطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أهل قليب بدر ، وقال لهم : «قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّا ، فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقا؟» «٢» أو ذكر ذلك على سبيل التحسر عليهم. قاله البيضاوي.

الإشارة : كل ما قص علينا الحق – جل جلاله – من قصص الأمم الماضية ، فالمراد به : تخويف هذه الأمة المحمدية وزيادة فى يقينهم ، فالواجب على من أراد السلامة فى الدارين أن يتمسك بما جاء به الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم من غير زيادة ولا نقصان ، ويتحرى فى ذلك جهده يقصد بذلك رضا اللّه ورسوله. وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ «٣» ، ومن سلك الطريق المستقيم وصل إلى

النعيم المقيم. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الفحج : تباعد ما بين الفخذين. انظر النهاية (فحج).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري فى (المغازي – باب قتل أبى جهل) عن ابن عمر رضى اللّه عنه.

(٣) من الآية ١٠١ من سورة آل عمران.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣٦

ثم ذكر قصة لوط عليه السّلام ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨٠ الى ٨٤]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)

قلت : (شهوة) : مفعول له ، أو مصدر فى موضع الحال.

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ واعظا لهم : أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أي : اللواط توبيخا وتقريعا على تلك الفعلة المتناهية فى القبح ، ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ أي : ما فعلها أحد قبلكم ، وبخهم على أمرين : إتيان الفاحشة ، واختراعها أولا ، ثم قال لهم : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ ، وصفهم بالشهوة البهيمية ، وفيه تنبيه على أن العاقل ينبغى أن يكون الداعي له إلى المباشرة :

طلب الولد وإبقاء النوع لا قضاء الوطر ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ أي : عادتكم السرف فى كل شىء ، حتى تجاوزتم ما أحل الله لكم من النساء إلى ما حرم عليكم من إتيان الذكور ، وهو إضراب عن الإنكار إلى الإخبار بحالهم التي أدت بهم إلى ارتكاب أمثالها وهى اعتياد الإسراف فى كل شىء ، أو عن الإنكار عليها إلى الذم لهم على جميع معايبهم ، أو عن محذوف ، مثل : لا عذر لكم فيه ، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف. قاله البيضاوي.

وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ له حين وعظهم ، إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ أي : لوط ومن آمن به ، مِنْ قَرْيَتِكُمْ أي : ما أجابوه بشىء يصلح للجواب ، لكن قابلوا نصحه بالأمر بإخراجه من قريتهم ، والاستهزاء بهم ، حيث قالوا : إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ من الفواحش.

قال تعالى : فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ أي : من آمن معه ، إِلَّا امْرَأَتَهُ فإنها كانت تسر الكفر كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ أي : الباقين فى ديارهم فهلكوا وهلكت معهم.

وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً أي : نوعا عجيبا من المطر ، بيّنه بقوله : وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ «١» ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ.

---

(١) الآية ٧٤ من سورة الحجر.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣٧

روى أن لوط بن هاران بن تارح لما هاجر عمه إبراهيم إلى الشام ، ونزل بالأردن ، وكان هاجر هو معه ، أرسله الله تعالى إلى أهل سدوم ، ليدعوهم إلى الله ، وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة ، فلم ينتهوا عنها ، فقلع جبريل مدينتهم ، وجعل عاليها سافلها ، وأمطر الحجارة على ما قربهم من القرى ، وسيأتى فى سورة هود بقية قصتهم ، إن شاء الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة : إنما أهلك اللّه قوم لوط حيث آثروا شهوة نفوسهم على عبودية ربهم ، وغلبهم الطبع البهيمى على مقتضى العقل الصافي ، وقد تقدم قول الغزالي : إن الشّره إلى الوقاع من جملة المهلكات. فعلى المريد أن يصفى قصده ، ولا ينزل إلى أرض الحظوظ إلا بالإذن والتمكين والرسوخ فى اليقين ، ولا ينزل بالشهوة والمتعة. وقد قال عليه السّلام :

«المؤمن يأكل بشهوة أهله» «١» فلا يأتى ما أحلّ اللّه له من متعة النّساء إلا قياما بحقّ الغير وطلبا للنسل. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة شعيب عليه السّلام فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨٥ الى ٩٣]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَها عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (٨٧) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ

نَعُودَ فِيها إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (٨٩)

وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (٩٣)

---

(١) أخرجه الديلمي فى الفردوس (ح ٦٥٤٧) من حديث أبى أمامة الباهلي ، بلفظ «المؤمن يأكل بشهوة عياله ، والمنافق يأكل أهله بشهوته».

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٣٨

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً ، ومدين : قبيلة من أولاد مدين بن إبراهيم ، شعيب بن ميكائل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل ، على ما قيل. وقد تقدم فى البقرة أن مدين ومدان من ولد ابراهيم عليه السّلام ، وشعيب هذا يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه.

قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ يريد المعجزة التي كانت له ، وليس فى القرآن بيان ما هى معجزته. وحمل الواحدي البينة على الموعظة. وقال فى الكشاف : ومن معجزات شعيب : ما روى من محاربة عصا موسى التنين ، حين دفع إليه غنمه ، وولادة الغنم الدرع خاصة ، حين وعده أن يكون له الدرع من أولادها ، ووقوع عصا آدم فى يده فى المرات السبع ، وغير ذلك من الآيات. هـ. وفيه نظر لأن هذ وقعت بعد مقالته لقومه ، وإنما كانت إرهاصات لموسى عليه السّلام ، وفى حديث البخاري : «ما بعث اللّه نبيّا إلّا وآتاه ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا ، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» «١». وهو صريح فى أنه لا بد من الآية لكل رسول ، ولعل اللّه تعالى لم يذكر معجزة شعيب وهود فى القرآن مع وجودها لظاهر الحديث.

ثم قال لهم : فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ ، وكانوا مطففين ، أي : فأوفوا المكيال الذي هو آلة الكيل ، أي : كبروها بدليل قوله : وَالْمِيزانَ الذي هو الآلة ، ويحتمل أن يريد بهما المصدر ، أي : الكيل والوزن.

وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ أي : لا تنقصوهم حقوقهم ، وإنما قال : أَشْياءَهُمْ ، للتعميم تنبيها على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير ، والقليل والكثير ، وقيل : كانوا مكّاسين لا يدعون شيئا إلا مكسوه.

وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بالكفر والظلم ، بَعْدَ إِصْلاحِها بإقامة الشرائع وظهور العدل ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أي : ذلك الذي أمرتكم به ونهيتكم عنه هو خير لكم من إبقائكم على ما أنتم عليه ، ومعنى الخيرية : الزيادة مطلقا إذ لا خير فيما هم فيه ، أو : فى الإنسانية وحسن الأحدوثة وجمع المال. قاله البيضاوي.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري فى (فضائل القرآن ، باب كيف نزل الوحى) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ أي : طريق تُوعِدُونَ من أراد الإيمان بالعقوبة ، وكانوا يجلسون على الطرقات والمراصد ، يقولون لمن يريد شعيبا : إنه كذاب فلا يفتنك عن دينك ويوعدون من آمن ، وقيل : كانوا يقطعون الطريق.

وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : تصدون الناس عن طريق اللّه ، وهو الإيمان به وبرسوله ، وهو الذي قعدوا لأجله فى كل طريق ، وقوله : مَنْ آمَنَ بِهِ من أراد الإيمان به ، أو من آمن حقيقة كانوا يصدونه عن العمل ، وَتَبْغُونَها عِوَجاً أي : وتطلبون لطريق اللّه عوجا بإلقاء الشّبه فيها ، أو بوصفها للناس بأنها معوجّة.

وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا عددكم وعددكم فَكَثَّرَكُمْ بالبركة فى النسل والمال ، وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ من الأمم قبلكم ، فاعتبروا بهم.

وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا أي : تربصوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا أي : بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين ، فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين ، وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ إذ لا معقب لحكمه ، ولا حيف فيه.

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ فى جوابه عن وعظه : لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا أي : ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم من القرية أو عودكم فى الكفر ، وشعيب عليه السّلام لم يكن فى ملتهم قط لأن الأنبياء – عليهم السّلام – لا يجوز عليهم الكفر مطلقا ، لكنهم غلّبوا الجماعة على الواحد فخوطب هو وقومه بخطابهم ، وعلى ذلك أجرى الجواب فى قوله : قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ. قاله البيضاوي. وقال ابن عطية : وعاد : قد يكون بمعنى صار ، فلا يقتضى تقدم ذلك المحال ، قلت : ويؤيده ما فى حديث الجهنميين : «قد عادوا حمما» «١» أي :

صاروا.

ثم قال شعيب عليه السّلام : قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها أي : إن رجعنا إلى ملتكم بعد الخلاص منها ، فقد اختلقنا على اللّه الكذب ، وهذا كله فى حق قومه كما تقدم. وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا خذلاننا وارتدادنا ، وفيه تسليم للإرادة المغيبة ، والعلم المحيط ، فإن القلوب بيد اللّه يقلبها كيف يشاء. فإن قلت : هو معصوم فلا يصح فيه العود؟. قلت : قاله أدبا مع الربوبية ، واستسلاما لقهر

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري فى (الرقاق – باب صفة الجنة والنار) ومسلم فى (الإيمان – باب معرفة طريق الرؤية) من حديث أبى سعيد الخدري رضى اللّه عنه.

الألوهية ، كقول نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم : «يا مقلّب القلوب ثبت قلبى على دينك» «١». وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أي : أحاط علمه بكل شىء مما كان وما يكون منا ومنكم ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا فى أن يثبتنا على الإيمان ، ويخلصنا من الإشراك. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا أي : احكم بيننا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ بالعدل ، بتمييز المحق من المبطل ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ أي : الفاصلين.

وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً وتركتم دينكم إِنَّكُمْ إِذاً أي : إذا اتبعتموه لَخاسِرُونَ لاستبدالكم ضلالته بهداكم ، أو لفوات ما يحصل لكم من البخس والتطفيف. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أي : الزلزلة. وفى سورة الحجر. الصَّيْحَةُ ، ولعلها كانت من مبادئها ، فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ أي : فى مدينتهم جاثِمِينَ : باركين ميتين.

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أي : استؤصلوا كأنهم لم يقيموا فيها ساعة. الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ دينا ودنيا ، بخلاف الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا فإنهم الرابحون ، ولأجل التنبيه على هذا والمبالغة فيه كرر الموصول ، واستأنف الجملتين وأتى بهما اسميتين.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، قاله بعد هلاكهم ، تأسفا عليهم ، ثم أنكر على نفسه فقال : فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ ليسوا أهلا للحزن عليهم ، لاستحقاقهم ما نزل بهم.

الإشارة : يؤخذ من قوله : وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها أن إقامة الشرائع ، وظهور الدين من علامة إصلاح الأرض وبهجتها ، وخصبها وعافيتها ، وترك الشرائع وظهور المعاصي من علامة فساد

الأرض وخرابها.

ويؤخذ من قوله : وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ ... الآية ، أن حض الناس على الإيمان ودلالتهم على اللّه من أفضل القربات عند اللّه ، وأعظم الوسائل إلى اللّه.

ويؤخذ من قوله : وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أن الإنسان لا يقف مع ظاهر الوعد والوعيد ، ولعل اللّه تعالى علّق ذلك الوعد أو الوعيد بشروط وأسباب أخفاها ، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير اللّه قراره. وفى بعض الآثار القدسية : «يا عبدى لا تأمن مكرى وإن أمّنتك ، فعلمى لا يحيط به محيط». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه مطولا أحمد فى المسند (٦/ ٩١) عن السيدة عائشة رضى اللّه عنها والترمذي فى (القدر – باب ما جاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن) من حديث أنس رضى اللّه عنه. وفى (الدعوات ، باب ٩٠) من حديث أم سلمة رضى اللّه عنها. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٤١

ولما سرد قصص الأمم السالفة ذكر حاله معهم ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٩٤ الى ٩٩]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (٩٩)

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ أي : رسول إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ أي : بالبؤس والضر ، كالقحط والأمراض ، لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ أي : يتضرعون ويتذللون ، ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ الحالة السَّيِّئَةِ الحالة الْحَسَنَةَ أي : أعطيناهم ، بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة ، السلامة والسعة ، حَتَّى عَفَوْا : كثروا عددا وعددا ، يقال : عفا النبات : إذا كثر ، ومنه : «اعفوا اللّحى» «١». وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ كفرا لنعمة اللّه عليهم ، ونسيانا لذكره ، واعتقادا بأنه من عادة الدهر يتعاقب فى الناس بين السراء والضراء ، فقد مس آباءنا منه شيء مثل ما مسنا ، فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً : فجأة وَهُمْ لا

يَشْعُرُونَ بنزول العذاب.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى المتقدمة فى قوله : وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ وقيل : مكة وما حولها. وقيل : مطلقا ، آمَنُوا وَاتَّقَوْا مكان كفرهم وعصيانهم ، لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لوسّعنا عليهم الخير ، ويسرناه لهم من كل جانب. وقيل : المراد : المطر والنبات. وَلكِنْ كَذَّبُوا بالرسل ، وكفروا النعم ، فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ من الكفر والمعاصي.

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أي : أبعد ذلك أمن أهل القرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ؟ أي : ليلا ، فى حال نومهم. أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا أيضا ضُحًى ضحوة النهار وَهُمْ يَلْعَبُونَ من

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري فى (اللباس – باب إعفاء اللحى) من حديث ابن عمر رضى اللّه عنه.

فرط الغفلة ، أو يشتغلون بما لا ينفعهم ، أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ وهو أن يستدرجهم بالنعم حتى يأخذهم بغتة؟ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ الذين خسروا أنفسهم ، بترك النظر والاعتبار ، حتى هلكوا ، فلم ينفعهم حينئذ الندم.

الإشارة : إظهار المحن والمنن وتعاقبهما على الإنسان ، حكمتها : الرجوع إلى اللّه ، وتضرع العبد إلى مولاه ، فمن فعل ذلك كان معتمدا عليه فى الحالتين ، مغترفا من بحر المنة بكلتا اليدين ، ومن نزلت به المحن ثم أعقبته لطائف المنن ، فلم يرجع إلى مولاه ، ولا شكره على ما خوله من نعماه ، بل قال : هذه عادة الزمان يتعاقب بالسراء والضراء على الإنسان ، فهذا عبد منهمك فى غفلته ، قد اتسعت دائرة حسه ، وانطمست بصيرة قدسه ، يصدق عليه قوله تعالى : أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ «١».

وقال القشيري فى قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا ... الآية : أي : لو آمنوا بالله واتّقوا الشرك (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) بأسباب العطاء ، فإن سبق بخلافه القضاء فأبواب الرضا ، والرضا أتم من العطاء. ويقال : ليس العبرة بالنعمة العبرة بالبركة فى النعمة. هـ.

قوله تعالى : وَلكِنْ كَذَّبُوا أي : شكّوا فى هذا الوعد فلم يتقوا بالإيمان والتقوى حتى يتركوا الأسباب ، والشاك فى الصادق المصدوق مكذب. وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : للناس أسباب ، وسببنا الإيمان والتقوى ، ثم تلا هذه الآية : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا ... الآية ، وقد تقدم عند

قوله : الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ «٢». ما يتعلق بالأمن من مكر اللّه.

ولما ذكر هلاك الأمم الماضية ، خوّف من خلفهم بعدهم إلى يوم القيامة ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٠٠ الى ١٠٢]

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (١٠١) وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (١٠٢)

---

(١) من الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٤٣

قلت : (أن لو نشاء) : «أن» مخففة ، وهى وما بعدها : فاعل (يهد) أي : أو لم يتبين لهم قدرتنا على إهلاكهم لو نشاء ذلك؟ وإنما عدى «يهدى» باللام لأنه بمعنى يتبين ، و(نطبع) : استئناف ، أي : ونحن نطبع على قلوبهم.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَهْدِ أي : يتبين لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أي : يخلفون من قبلهم ويرثون ديارهم وأموالهم ، أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ أي : أهلكناهم بِذُنُوبِهِمْ بسبب ذنوبهم ، كما أهلكنا من قبلهم ، لكن أمهلناهم ولم نهملهم ، وَنحن نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ بالغفلة والانهماك فى العصيان ، فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ سماع تدبر واعتبار.

تِلْكَ الْقُرى ، التي قصصنا عليك آنفا ، نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها من أخبارها ، أي : بعض أخبارها ، ولها أبناء غيرها لا نقصها عليك وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ : بالمعجزات ، فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا عند مجيئهم ، بها بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ مجيئها ، يعنى : أن ظهور المعجزات لم ينفعهم ، بل الشيء الذي كذبوا به قبل مجيئها ، وهو التوحيد وتصديق الرسل استمروا عليه بعد مجيئها.

أو : فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولا ، حين جاءتهم الرسل ، فلم تؤثر فيم دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة. كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر.

وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ أي : لأكثر أهل القرى مِنْ عَهْدٍ ، بل جلّهم نقضوا ما عهدناهم عليه من الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج ، وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ أي : علمناهم لَفاسِقِينَ ، و«إن» مخففة ،

واللام : فارقة.

الإشارة : ينبغى لمن فتح اللّه بصيرته أن ينظر بعين الاعتبار فيمن سلف قبله ، كيف تركوا الدنيا ورحلوا عنها ، ولم يأخذوا منها إلا ما قدموا أمامهم؟ قدموا على ما قدّموا ، وندموا على ما خلفوا ، ولم ينفعهم الندم وقد زلت بهم القدم ، فالدهر خطيب يسمع القاصي والقريب ، وهو ينادى بلسان فصيح ، عادلا عن الكناية إلى التصريح ، قائلا : أما حصل لكم الإنذار؟ أما كفاكم ما تشاهدون فى الاعتبار؟ أين من سلف قبلكم؟. أو ما كانوا أشد منكم أو مثلكم؟ قد نما ذكرهم وعلا قدرهم ، وخسف بعد الكمال بدرهم ، فكأنهم ما كانوا ، وعن قريب مضوا وبانوا ، أفضوا إلى ما قدموا ، وانقادوا قهرا إلى القضاء وسلموا ، فيا أيها الغافلون ، أنتم بمن مضى لاحقون ، ويا أيها الباقون أنتم إليهم تساقون ، قضاء مبرم ، وحكم ملزم ، ليس عنه محيد لأحد من العبيد.

(٢٤٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٤٤

ثم شرع فى قصص موسى عليه السّلام ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٠٣]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ بَعَثْنا من بعد الرسل المتقدمين مُوسى بن عمران بِآياتِنا :

بمعجزاتنا الدالة على صدقه ، إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِها أي : طغوا بسببها ، وزادوا عتوا على عتوهم ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ كيف غرقوا عن آخرهم ، وأكلهم البحر.

الإشارة : إذا أراد اللّه – تعالى – أن يهلك قوما بعث إليهم من يذكرهم ، فإذا زادوا فى العتو والطغيان عاجلهم بالعقوبة. ذكر الشعراني : أن مدينة بالمشرق صنعوا وليمة يتنزهون فيها ، فخرجوا إلى بستان ، فلما صنعوا الطعام دخل عليهم فقير ، فقال : أعطونى ، فأعطوه ، ثم قال : أعطونى فزادوه ، ثم قال : أعطونى ، فجروه حتى أخرجوه ، فأرسل عليهم من أخرجهم من تلك المدينة وخربها ، فهى خربة إلى اليوم. سبحان المدبر الحكيم الواحد القهار!.

ثم ذكر دعوة موسى إلى فرعون ، وما كان من أمره معه ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٠٤ الى ١٠٥]

وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٠٥)

قلت : من قرأ : «علىّ» بشد الياء ، فحقيق : مبتدأ ، و«علىّ» : متعلق به ، و(ألّا أقول) : خبره ، أي

: حقيق عليّ قول الحق. ومن قرأ : (على) بالتخفيف ، فحقيق : صفة لرسول ، و«على» : حرف جر ، و(ألّا أقول) : مجرور ، أي : إني رسول حقيق على قول الحق ، وعدّاه بعلى لتضمنه معنى حريص ، أو تكون (على) بمعنى الباء أي : حقيق بقول الحق ، وقد يبقى على أصله لأمن الالتباس والمعنى : حقيق على قول الحق أن أكون أنا قائله ، لا يرضى إلا مثله ناطقا به. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ، حَقِيقٌ واجب عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ لأننى معصوم من النطق بغيره ، فإن كذّبتنى فقد جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أي : بمعجزة واضحة ، تدل على صدقى ، وهى العصا. فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ أي : فخل سبيلهم ، حتى يرجعوا معى إلى الأرض المقدسة : التي هى وطن آبائهم ، وكان قد استعبدهم واستخدمهم فى الأعمال الشاقة وذلك أنه لما توفّى يوسف عليه السّلام غلب عليهم فرعون واستعبدهم حتى أنقذهم اللّه على يد موسى ، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى رسولا إلى فرعون : أربعمائة عام.

(٢٤٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٤٥

ثم طلب منه إظهار المعجزة ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٠٦ الى ١١٢]

قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (١١٠)

قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)

قلت : يقال : أرجأ ، بالهمز ، يرجىء بمعنى أخر فمن قرأ بالهمزة فعلى الأصل ، ومن قرأه بغير الهمزة فيحتمل أن يكون بمعنى المهموز ، وسهلت الهمزة ، أو يكون بمعنى الرجاء ، أي : أطمعه ، وأما ضم الهاء وكسرها فلغتان ، وأما إسكانها فلغة أجرى فيها الوصل مجرى الوقف. وقد تتبع البيضاوي توجيه القراءات ، فانظره إن شئت.

يقول الحق جل جلاله : قالَ فرعون لموسى عليه السّلام : إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ من عند من أرسلك ، كما ذكرت ، فَأْتِ بِها وأحضرها ليثبت بها صدقك إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعواك ، فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ أي : ظاهر أمره ، لا يشك فى أنه ثعبان ، وهى الحية العظيمة.

روى أنه لما ألقاها صار ثعبانا أشعر ، فاغرا فاه ، بين لحييه ثمانون ذراعا ، وضع لحيه الأسفل على

الأرض والأعلى على سور القصر ، ثم توجه نحو فرعون ، فهرب منه وأحدث ، وانهزم الناس مزدحمين ، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا ، وصاح فرعون : يا موسى ، أنشدك الذي أرسلك خذه ، وأنا أومن بك ، وأرسل معك بنى إسرائيل ، فأخذه فعاد عصا. قاله البيضاوي.

ثم أظهر له معجزة أخرى : وَنَزَعَ يَدَهُ من جيبه ، أو من تحت إبطه ، فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ أي : بيضاء بياضا خارجا عن العادة ، يجتمع عليها النظارة ، أو بيضاء للنظار ، لا أنها كانت بيضاء فى خلقتها ، بل كانت شديدة الأدمة كلون صاحبها. روى أنه كان شديد الأدمة فأدخل يده فى جيبه أو تحت إبطه ، ثم نزعها ، فإذا هى بيضاء نورانية ، غلب شعاعها شعاع الشمس.

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ ، قيل : قاله هو وأشراف قومه ، على سبيل المشاورة فى أمره ، فحكى عنه فى سورة الشعراء ، وعنهم هنا ، أو قاله هو ووافقوه عليه ، كعادة جلساء الملوك مع أتباعهم.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بالحيل ، أو بالقتال ، أو بإخراج بنى إسرائيل ، وكانوا خداما لهم ، فتخرب البلد

من بعدهم ، لأنهم خدامها وعمارها. قال فرعون : فَما ذا تَأْمُرُونَ أي : تشيرون علىّ أن أفعل؟

قالُوا أَرْجِهْ أي : أخّره وَأَخاهُ أي : أخّرهما حتى تنظر فى أمرهما ، وقيل : أمروه بسجنهما ، وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ أي : مدائن عمالتك حاشِرِينَ يحشرون لك السحرة ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ.

ثم ذكر مجيئهم ، وما كان من أمرهم مع موسى عليه السّلام ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١١٣ الى ١١٩]

وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (١١٣) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (١١٧)

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ (١١٩)

قلت : من قرأ : (أئن) بهمزتين ، فهو اسم استفهام ، ومن قرأ بهمزة واحدة ، فيحتمل أن يكون خبرا ، كأنهم قالوا :

لا بد لنا من أجر ، أو استفهاما حذفت منه الهمزة ، والتنكير للتعظيم ، واستأنف الجملة ، كأنها جواب

عن سائل قال :

فماذا قالوا إذ جاءوا؟ قالوا : إن لنا لأجرا ... إلخ ، و(إنكم) : عطف على ما سدّ مسده نعم ، من تمام الجواب ، كأنه قال :

نعم نعطيكم الأجر ونقربكم.

يقول الحق جل جلاله : وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ بعد ما أرسل الشرطة فى طلبهم ، قالُوا لما وصلوا إليه : إِنَّ أئن لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ لموسى؟ قالَ نَعَمْ إن لكم أجرا وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ إلىّ. فأنعم لهم بالأجر ، وزادهم التقريب منه والجاه عنده تحريضا لهم. واختلف فى عدد السحرة اختلافا متباينا ، من سبعين رجلا إلى سبعين ألفا ، وكل ذلك لا أصل له فى صحة النقل.

ولمّا خرجوا إلى الصحراء لمقابلته قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ خيّروا موسى مراعاة للأدب ، وإظهارا للجلادة ، ولكن كانت رغبتهم فى أن يلقوا قبله ، ولذلك عبّروا عن إلقاء موسى بالفعل وعن إلقائهم بالجملة الاسمية ، وفيه إشارة إلى أنهم أهل الإلقاء المتمكنون فيه. ولذلك أسعفهم ، قالَ أَلْقُوا أسعفهم كرما ومسامحة وازدراء بهم ، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ، بأن خيلوا إليها خلاف ما فى حقيقة الأمر ، وَاسْتَرْهَبُوهُمْ أي : خوفوهم بما أظهروا لهم من أعمال السحر ، وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ فى فنّه.

روى أنهم ألقوا حبالا غلاظا ، وخشبا طوالا ، كأنها حيات ، ملأت الوادي ، وركب بعضها بعضا.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٤٧

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ ، فألقاها ، فصارت ثعبانا عظيما ، على قدر الجبل ، وقيل : إنه طال حتى جاوز النيل ، فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ أي : تبتلع ما يَأْفِكُونَ ما يزوّرونه من إفكهم وكذبهم. روى أنها لما ابتلعت حبالهم وعصيهم ، وكانت ملأت الوادي ، فابتلعتها بأسرها ، أقبلت على الحاضرين ، فهربوا وازدحموا حتى هلك منهم جمع عظيم ، ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت ، فقال السحرة : لو كان هذا سحرا لبقيت حبالنا وعصينا.

فَوَقَعَ الْحَقُّ أي : ثبت بظهور أمره ، وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ أي : صاروا أذلاء مبهوتين ، أو انقلبوا إلى المدينة مقهورين.

ولما رأى السحرة ذلك علموا أنه ليس من طوق البشر ، وليس هو من السحر ، فتحققوا أنه من عند اللّه ، فآمنوا ، كما أشار إليه بقوله :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٢٠ الى ١٢٦]

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (١٢٠) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (١٢٢) قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)
قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (١٢٦)

يقول الحق جل جلاله : وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ على وجوههم ساجِدِينَ لما عرفوا الحق وتحققوا به ، فآمنوا لأن الحق بهرهم ، واضطرهم إلى السجود بحيث لم يتمالكوا ، أو ألهمهم اللّه ذلك وحملهم عليه ، حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كسر موسى ، وينقلب الأمر عليه.

قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ. رَبِّ مُوسى وَهارُونَ أبدلوا الثاني من الأول لئلا يتوهم أنهم أرادوا به فرعون.

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ أي : بالله أو بموسى ، قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ أي : إن هذه لحيلة صنعتموها أنتم وموسى فِي الْمَدِينَةِ فى مصر ، ودبرتموها قبل أن تخرجوا للميعاد لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها أي : القبط ، وتخلص لكم ولبنى إسرائيل ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة ما صنعتم.

(٢٤٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٤٨

ثم فصّل ما هددهم به ، فقال : لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ من كل شق عضو ، كيد ورجل من كل واحد ، ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ تفضيحا لكم وتنكيلا لأمثالكم ، وليس فى القرآن أنه أنفذ ذلك ، ولكن روى عن ابن عباس وغيره أنه فعله. قيل : إنه أول من سنّ ذلك – أي : القطع من خلاف – فشرعه اللّه للقطاع تعظيما لجرمهم ، فلذلك سماه اللّه محاربة للّه ورسوله.

قالُوا أي : السحرة لما خوفهم : إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ بالموت ، فيكرم مثوانا ، فلا نبالى بوعيدك ، كأنهم اشتاقوا إلى اللقاء ، فهان عليهم وعيده ، أو إنا وأنت إلى ربنا منقلبون ، فيحكم بيننا وبينك ، وَما تَنْقِمُ مِنَّا أي : وما تعيب علينا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا ، وهو لا يعاب عند العقلاء ، لأنه خير الأعمال ، وأصل المناقب ومحاسن الخلال ، ثم فزعوا إلى اللّه فقالوا : رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً أي : اصبب علينا صبرا يغمرنا ، كما يفرغ الماء على الشيء فيغمره ، وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ ثابتين على الإسلام.

قال البيضاوي : قيل : إنه فعل بهم ذلك ، وقيل : إنه لم يقدر عليه ، لقوله : أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ «١». هـ. وقد تقدم قول ابن عباس وغيره. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : انظر من سبقت له العناية ، هؤلاء السحرة جاءوا يحادون اللّه فأمسوا أولياء اللّه ، فكم من خصوص تخرج من اللصوص ، وانظر أيضا صبرهم وثباتهم على دينهم ، وعدم مبالاتهم بعدوهم ،

هكذا ينبغى أن يكون من مراده مولاه ، لا يلتفت إلى شيء سواه ، وعند هذه التصرفات يفتضح المدّعون ويثبت الصادقون ، عند الامتحان يعز المرء أو يهان.

ثم قال تعالى فى تتمة قصة موسى عليه السّلام :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٢٧ الى ١٢٩]

وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (١٢٧) قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة القصص.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٤٩

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ أي : تتركهم يخالفون دينك لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ أي : يخربوا ملكك بتغيير دينك ودعوتهم إلى مخالفتك ، وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ أي : يترك موسى دينك ومعبوداتك التي تعبد ، قيل : كان يعبد الكواكب ، وقيل : صنع لقومه أصناما وأمرهم أن يعبدوها تقربا إليه. ولذلك قال : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى «١». قال فرعون فى جوابهم : سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ أي : ذكورهم وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ أي : بناتهم ، كما كنا نفعل من قبل ، ليعلم أنّا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ، ولا يتوهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه. وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ غالبون ، وهم مقهورون تحت أيدينا.

قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، قاله تسكينا لهم حين سمعوا قول فرعون وما هددهم به ، ثم قال لهم : إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وسيورثها لكم إن صبرتم وآمنتم. وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، فتكون العاقبة لكم إن اتقيتم ، وهو وعد لهم بالنصر والعز ، وتذكير بما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وملكهم.

قالُوا أي : بنو إسرائيل : أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا بقتل الأبناء ، وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا بإعادته ، فلم يرتفع عنا الذل بمجيئك ، قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ، تصريحا بما كنّى عنه أولا ، لما رأى أنهم لم يتسلوا بذلك ، ولعله أتى بحرف الطمع ، أي : الترجي لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم ، أو أولادهم ، وقد روى أن مصر إنما فتح لهم فى زمن داود عليه السّلام. قاله البيضاوي.

فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ أي : فإذا استخلفكم يرى ما تعملون من شكر أو كفران ، أو طاعة أو عصيان ، فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم من كفر أو إحسان.

الإشارة : ما وقع للأنبياء مع قومهم وقع مثله لأشياخ هذه الأمة وفقرائها مع أهل زمانهم ، ولما كثرت الأحوال من الفقر أو خرق العوائد ، وظهروا بتخريب ظواهرهم ، وقعت بهم الشكاية إلى السلطان ، وقالوا له : هؤلاء يخربون ملكك ، فآل على نفسه إن مكنه اللّه منهم لا يترك منهم أحدا ، فكفى اللّه بأسه ، فاستعانوا بالله وصبروا ، واشتغلوا بذكر اللّه ، وغابوا عمن سواه ، فكانت العاقبة للمتقين.

ثم ذكر ابتلاءه لقوم فرعون ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٣٠ الى ١٣١]

وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١)

---

(١) كما جاء فى الآية ٢٤ من سورة النازعات.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٥٠

قلت : عبّر فى جانب الحسنة بإذا ، المفيدة للتحقيق ، وعرّف الحسنة لكثرة وقوعها ، وعبّر فى جانب السيئة بإن المفيدة للشك ، ونكّر السيئة لندورها.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ أي : بالجدب والقحط لقلة الأمطار والمياه ، وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ بكثرة العاهات ، لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أي : لكى ينتبهوا أن ذلك من شؤم كفرهم ومعاصيهم ، ويتعظوا ، وترق قلوبهم بالشدائد ، فيفزعوا إلى اللّه ، ويرغبوا فيما عنده.

فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ من الخصب والسعة والرخاء ، قالُوا لَنا هذِهِ أي : قالوا : هذه لنا ولسعودنا ، ونحن مستحقون له. وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ : جدب وبلاء يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أي : يتشاءموا بهم ، ويقولون : ما أصابتنا إلا بشؤمهم ، وهذا إغراق فى وصفهم بالغباوة والقساوة فإن الشدائد ترقق القلوب ، وتذلل العرائك أي : الطبائع ، وتزيل التماسك ، سيما بعد مشاهدة الآيات ، وهى لم تؤثر فيهم ، بل زادوا عندها عتوا وانهماكا فى الغى.

قال تعالى : أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أي : سبب طائرهم وشرهم عنده ، وهو حكمه ومشيئه ، أو سبب شؤمهم عند اللّه ، وهو أعمالهم المكتوبة عنده ، فإنها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم. قال ابن جزي :

أي : حظهم ونصيبهم الذي قدر لهم من الخير والشر عند اللّه ، وهو مأخوذ من زجر الطير ، ثم سمى به ما يصيب الإنسان ، ومقصود الآية : الرد عليهم فيما نسبوا إلى موسى من الشؤم. هـ. وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن ما يصيبهم من اللّه تعالى بلا واسطة ، أو من شؤم أعمالهم.

الإشارة : هذه الخصلة جارية أيضا في هذه الأمة ، أعني التطاير ، ترى العوام إذا نزل بهم بلاء أو شدة قالوا :

بظهور هؤلاء وقع بنا ما وقع ، ولقد سمعت ممن حكى لي هذه المقالة عن العامة وقت ابتداء ظهور الفقراء ، وذلك أنهم آذوهم أذى شديدا ، فأرسل اللّه عليهم كثرة الأمطار كادت أن تكون طوفانا ، فقالوا : ما أصابنا هذا إلا من شؤم هذه المرقعات التي ظهرت ، ولم يدروا أن ذلك منهم لإذايتهم أهل اللّه. واللّه تعالي أعلم.

ثم ذكر عتو آل فرعون ، وعقوبته لهم ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٣٢ الى ١٣٧]

وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (١٣٦)

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٥١

قلت : (مهما) : اسم شرط جازم ، و(تأتنا) : شرطها ، وجملة (فما نحن) : جوابها ، قيل : مركبة ، وأصلها : «ما» الشرطية ، ضمت إليها «ما» الزائدة ، نحو : أينما ، ثم قلبت الألف هاء ، والمشهور : أنها بسيطة ، ومحلها : رفع بالابتداء ، أو نصب بفعل يفسره : «تأتنا» ، والضمير فى : «به» عائد على «مهما».

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : فرعون وقومه : مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ ، وإنما سموها آية على زعم موسى ، لا لاعتقادهم ، ولذلك قالوا : لِتَسْحَرَنا بِها أي : لتسحر بها أعيننا وتشبه علينا ، فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. وهذا من عظيم عتوهم وانهماكهم فى الكفر.

قال تعالى : فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وهو مطر شديد نزل بهم مع فيض النيل ، حتى هدم بيوتهم وكادوا يهلكون ، وامتنعوا من الزراعة ، وقيل : الطاعون ، وقيل : الجدري ، وقيل الموتان ، وَالْجَرادَ وهو المعروف ، أكل زروعهم وثمارهم ، حتى أكل ثيابهم وأبوابهم وسقف بيوتهم ، وَالْقُمَّلَ قيل : أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها ، وقيل : البراغيث ، وقيل السوس ، والتحقيق : أنه صغار القراد ، دخل ثيابهم وشعورهم ولحاهم ، وقرىء : «القمل» بفتح القاف وهو القمل المعروف ، دخل ثيابهم وامتلأت منها ، وَالضَّفادِعَ ، وهى المعروفة ، كثرت عندهم حتى امتلأت بها فروشهم وأوانيهم ، وإذا تكلم أحدهم وثب الضفدع إلى فيه. وَالدَّمَ صارت مياههم دما ، فكان يستسقى من البئر القبطي والإسرائيلي في إناء واحد ، فيخرج ما يلي القبطي دما ، وما يلي الإسرائيلي ماء.

قال البيضاوي : روي أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة ، لا يقدر أحد أن يخرج من بيته ، ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلي تراقيهم ، وكانت بيوت بني إسرائيل متصلة ببيوتهم ، فلم يدخل فيها قطرة ، وركب على أرضهم فمنعتهم من الحرث والتصرف فيها ، ودام ذلك عليهم أسبوعا ، فقالوا لموسى عليه السّلام : أدع لنا ربك بما عهد

عندك يكشف عنا ونحن نؤمن بك ، فدعا اللّه فكشف عنهم ، ونبت لهم من الكلأ والزرع والثمار ما لم يعهد مثله ، ولم يؤمنوا ، فبعث اللّه عليهم الجراد فأكلت زرعهم وثمارهم ، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب ، ففزعوا إليه ثانيا ، فدعا ، وخرج إلي الصحراء ، وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب ، فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها ، فلم يؤمنوا ، فسلط عليهم القمل وأكل ما أبقاه الجراد ، فكان يقع في أطعمتهم ويدخل في ثيابهم وجلودهم فيمصها ، ففزعوا إليه فرفع عنهم ، فقالوا : قدتحققنا الآن أنك ساحر ، ثم أرسل اللّه عليهم الضفادع بحيث لا ينكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه ، وكانت تملأ مضاجعهم ، وتثب إلى قدورهم وهى تغلي وأفواههم عند التكلم ، ففزعوا وتضرعوا ، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف اللّه عنهم ، ثم نقضوا العهد ، فأرسل اللّه عليهم الدم ، فصارت مياههم دما ، حتى يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على الماء ، فيكون ما يلي القبطي دما ، وما يلي الإسرائيلي ماء ، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دما فى فيه ، وقيل : سلط عليهم الرعاف. هـ.

آياتٍ أي : حال كون ما تقدم آيات مُفَصَّلاتٍ ، مبينات ، لا تشكل على عاقل أنها آيات اللّه ونقمته. قيل : كان بين كل واحدة منها شهر ، وامتداد كل واحدة أسبوعا ، وقيل : إن موسى ثبت فيهم ، بعد ما

غلب السحرة ، عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل ، فَاسْتَكْبَرُوا عن الإيمان وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ أي :

عادتهم الإجرام.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ يعنى : العذاب المفصل ، أو الطاعون الذي أرسله عليهم بعد ذلك ، قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ أي : بعهده عندك ، وهو النبوة ، أو بالذي عهده إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك فى آياتك. والمعنى : ادع اللّه متوسلا إليه بما عهد عندك من النبوة والجاه ، أو بدعائك إليه ووسائلك ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ : العذاب لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ أي : أقسمنا بعهد اللّه لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ كما طلبت ، قال تعالى : فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إلى حد من الزمان هم بالغوه ثم يهلكون ، وهو وقت الغرق أو الموت ، وقيل : إلى أجل عينوه لإيمانهم ، إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ جواب «لمّا» ، أي : فلما كشفنا عنهم جاءوا بالنكث من غير تأمل ولا توقف ، فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ أي : فأردنا الانتقام منهم ، فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ أي : البحر الذي لا يدرك قعره أو لجته ، بِأَنَّهُمْ أي : بسبب أنهم كَذَّبُوا بِآياتِنا التي أرسلناها عليهم. وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ أي : أغرقناهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها.

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ بالاستبعاد وذبح الأبناء مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا يعنى : أرض الشام ، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة ، وتمكنوا من نواحيها الَّتِي بارَكْنا فِيها بالخصب وسعة العيش ، وهى أرض الشام. وزاد ابن جزي : ومصر.

(٢/٢٥٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٥٣

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أي : نفذت ومضت واستقرت ، والكلمة هنا : ما قضى فى الأزل من إنقاذهم من عدوهم ، وقيل : قوله : وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ «١» وكانت حسنى لما فيها من النصر والعز ، بِما صَبَرُوا أي : بسبب صبرهم على الشدائد وَدَمَّرْنا أي : خربنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ من القصور والعمارات ، وَما كانُوا يَعْرِشُونَ من البنيان المرتفع كصرح هامان ، أو ما كانوا يرفعون من الكروم في البساتين على العرشان ، فالأول من العرش ، والثاني من العريش.

الإشارة : قد جرت عادة اللّه فى خلقه أن يظهر الخواص من عباده ، فينكروا أو يستضعفوا ، حتى إذا طهّروا من البقايا وتمكنوا من شهود الحق ، منّ اللّه عليهم بالعز والنصر والتمكين ، فمنهم من يمكن من التصرف في الحس والمعنى ، ويقره الوجود بأسره ، ومنهم من يمكّن من التصرف فى الكون بهمته

، ولكنه تحت أستار الخمول ، لا يعرفه إلا من اصطفاه لحضرته ، وهذا من شهداء الملكوت ، ضنّ به الحق تعالى فلم يظهره لخلقه. واللّه تعالى أعلم وأحكم.

ثم ذكر نجاة موسى عليه السّلام وقومه من فرعون ، وخروجهم إلى الشام ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٣٨ الى ١٤١]

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)

يقول الحق جل جلاله : وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ أي : قطعنا بهم الْبَحْرَ ، روى أنهم عبروه يوم عاشوراء ، بعد مهلك فرعون ، فصاموه شكرا ، فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ أي : مروا على قوم من العمالقة ، وقيل : من لخم ، يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ أي : يقيمون على عبادتها ، قيل : كانت تماثيل البقر ، وذلك أول شأن عبادة العجل ،

---

(١) من الآية ٥ من سورة القصص.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٥٤

وهؤلاء القوم ، قيل : هم الجبارون الذين أمر موسى بقتالهم بعد وصوله إلى الشام ، ولما رآهم بنو إسرائيل قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً أي : مثالا نعبده كَما لَهُمْ آلِهَةٌ يعبدونها ، قالَ لهم موسى عليه السّلام :

إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ، وصفهم بالجهل المطلق ، وأكده بإن لبعد ما صدر منهم ، بعد ما رأوا من الآيات الكبرى.

قال البيضاوي : ذكر ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن منّ اللّه تعالى عليهم بالنعم الجسام ، وآراهم من الآيات العظام ، تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عما كان يرى منهم ويلقى من التشغيب ، وإيقاظا للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. هـ. وذكر في «القوت» أن يهوديا قال لعلى رضى اللّه عنه : كيف اختلفتم وضربتم وجوه بعضكم بالسيف ، ونبيكم قريب عهد بكم؟ فقال : أنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم :

اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ. هـ.

ثم قال لهم موسى عليه السّلام : إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ : مدمر هالك ما هُمْ فِيهِ يعنى : أن اللّه تعالى يهدم دينهم الذي هم فيه ، ويحطم أصنامهم ويجعلها رضاضا. وَباطِلٌ : مضمحل ما كانُوا يَعْمَلُونَ من عبادتها ، وإن قصدوا بها التقرب إلى اللّه تعالى ، وإنما بالغ فى هذا الكلام تنفيرا وتحذيرا عما طلبوا. قالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ أطلب لكم إِلهاً أي : معبودا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ أي : والحال أنه قد خصكم بنعم لم يعطها غيركم ، وفيه تنبيه على سوء مقابلتهم حيث قابلوا تخصيص اللّه لهم بما استحقوه تفضلا ، بأن قصدوا أن يشركوا به أخس شيء من مخلوقاته وأبلده ، وهو البقر.

وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أي : ، واذكروا صنعه معكم فى هذا الوقت حيث نجاكم من فرعون ورهطه يَسُومُونَكُمْ أي : يذيقونكم سُوءَ الْعَذابِ ، ثم بيّنه بقوله : يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ ذكوركم وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ أي : بناتكم ، وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ أي : وفى ذلك القتل امتحان عظيم ، أو فى ذلك الإنجاء نعمة عظيمة وامتنان عظيم.

الإشارة : من جاوز بحر التوحيد وحاد عنه ، ولم يغرق فيه ، لا يخلو من طلب شرك جلى أو خفى لأن النفس ما دامت لم تغرق فى بحر الوحدة ، ولم تسبها جمال المعاني ، قطعا تميل إلى شيء من جمال الحس ، لأن الروح فى أصلها عشاقة ، إن لم تعشق جمال الحضرة تعشق جمال الحس ، ومن ركن إلى شيء مما سوى اللّه فهو شرك عند الموحدين من المحققين ، ويؤخذ من الآية أن شكر النعم هو تلخيص التوحيد ، وانفراد الوجهة إلى اللّه تعالى لأن بنى إسرائيل لمّا أنعم اللّه عليهم بالإنجاء وفلق البحر قابلوا ذلك بطلب الشرك ، فسقطو من عين اللّه واستمر ذلهم إلى يوم القيامة. واللّه تعالى أعلم.

(٢٥٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٥٥

ولما استقر بنو إسرائيل بالشام طلبوا من نبيهم نزول الكتاب وتقرير الشرائع ، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٤٢]

وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)

يقول الحق جل جلاله : وَواعَدْنا مُوسى لإنزال الكتاب ثَلاثِينَ لَيْلَةً من ذي القعدة ، وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ من ذي الحجة ، فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ بالغا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، روى أنه عليه السّلام وعد بني إسرائيل ، بمصر ، أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من اللّه تعالى ، فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره بصوم ثلاثين ، فلما أتم أنكر خلوف فيه فتسوك ، فقالت الملائكة : كنا نشم منك رائحة

المسك فأفسدته بالسواك ، فأمره اللّه تعالى أن يزيد عليها عشرا ، ثم أنزل عليه التوراة.
وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ ، عند ذهابه إلى الطور للمناجاة : اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي أي : كن خليفتي فيهم وَأَصْلِحْ ما يجب أن يصلح من أمورهم ، أو كن مصلحا ، وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ أي : لا تتبع سبيل من يسلك الإفساد ، ولا تطع من دعاك إليه.
الإشارة : كل من انقطع إلى اللّه تعالى بكليته واعتزل عن الخلق ، وأخلى قلبه عما سوى الحق ، حصلت له المناجاة والمكالمة ، كما وقعت للكليم عليه السّلام ، وكل ما منحه اللّه للانبياء يكون منه نصيب للأولياء من هذه الأمة ، واللّه تعالى أعلم. وفى الحديث : «من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» «١».
قال بعض الحكماء : والسر في ذلك أن اللّه تعالى أمر بطينة آدم فخمرت فى الماء أربعين يوما ، فتربى فيها أربعون حجابا ، فلو لا تلك الحجب ما استطاع المقام في الأرض ، فمن أيده اللّه على زوالها تشبه بالملأ الأعلى ، وخرقت له العوائد ، وأشرق النور من قلبه. ولهذا المعنى بقي داود عليه السّلام ساجدا أربعين يوما ، فقبلت توبته ، ومكث إبراهيم عليه السّلام في نار النمرود أربعين يوما ، فاتخذه اللّه خليلا ، وكان بعد ذلك يقول : ما رأيت أحلى من تلك الأيام ، فمن أخلص في عبادته وأزال تلك الحجب عن قلبه كان ربانيا. قال تعالى : وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ «٢». انظر الشطيبى.
ويوخذ من الآية أن الشيخ إذا أراد أن يسافر من زاويته ينبغي له أن يخلف خليفة عنه ليقوم له بنظام الزاوية ، إذ لا خير فى قوم ليس فيهم من يعظهم فى اللّه. وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، بسند ضعيف عن أبى أيوب. ورواه أحمد بنحوه عن مكحول مرسلا. راجع كشف الخفاء (٢/ ٢٢٤).
(٢) من الآية ٧٩ من سورة آل عمران.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٥٦
ولما سمع سيدنا موسى عليه السّلام كلام الحق بلا واسطة ، طمع فى الرؤية بلا واسطة ، كما قال تعالى :
[سورة الأعراف (٧) : آية ١٤٣]
وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ

تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا الذي وقتنا له وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ من غير واسطة كما يكلم الملائكة. وفيما روى : أنه كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة ، وفيه تنبيه على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدثين. قاله البيضاوي. وقال الورتجبي : أي : أسمع عجائب كلامه كليمه ليعرفه بكلامه لأن كلامه مفاتيح كنوز الصفات والذات. هـ. وقال ابن جزي : لما سمع موسى كلام اللّه طمع في رؤيته ، فسألها ، كما قال الشاعر :

وأبرح ما يكون الشّوق يوما إذا دنت الديار من الدّيار.

قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ أي : أرني نفسك أنظر إليك ، بأن تكشف الحجب عني ، حتى أنظر إلى ذاتك المقدسة من غير واسطة ، كما أسمعتني كلامك من غير واسطة. قال البيضاوي : وهو دليل علي أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال ، وخصوصا ما يقتضي الجهل بالله ، ولذلك رده بقوله تعالى : لَنْ تَرانِي دون لن أرى ولن أريك ، ولن تنظر إليّ ، تنبيها على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على حال في الرائي ، لم توجد فيه بعد ، وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا : أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً «١» خطأ ، إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبههم ، كما فعل بهم حين قالوا : اجْعَلْ لَنا إِلهاً «٢» ، والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته إياه على أنه لا يراه أبدا ، وألا يراه غيره أصلا ، فضلا عن أن يدل على استحالتها. ودعوى الضرورة فيه مكابرة وجهالة بحقيقة الرؤية. هـ.

وهو تعريض بالزمخشري وردّ عليه ، فإنه هنا أطلق لسانه في أهل السنة – عفا اللّه عنه – . والتحقيق : أن رؤيته تعالى برداء الكبرياء – وهي أنوار الصفات – جائزة واقعة – ، وأما رؤية أسرار الذات – وهي المعاني الأزلية ، التي هى كنه الربوبية – فغير جائزة إذ لو ظهرت تلك الأسرار لتلاشت الأكوان واضمحلت ، ولعل هذا المعنى هو الذي طلب سيدنا موسى عليه السّلام ، فلذلك قال له : لَنْ تَرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ عند تجلى هذه

---

(١) من الآية ١٥٣ من سورة النساء.

(٢) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

الأسرار له ، فَسَوْفَ تَرانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ أي : أظهر له شيئا من أنوار الربوبية التي هى أسرار

المعاني الأزلية ، جَعَلَهُ دَكًّا أي : مدكوكا مفتتا ، والدك والدق واحد. وقرأ حمزة : «دكاء» بالمد ، أي : أرضا مستوية ، ومنه : ناقة دكاء لاسنم لها. وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً مغشيا عليه من هول ما رأى ، فَلَمَّا أَفاقَ قالَ تعظيما لما رأى : سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ من الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذن ، وقال بعضهم : تبت إليك من عدم الاكتفاء بقوله : لَنْ تَرانِي حتى نظر إلى الجبل ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ أنك لا ترى بلا واسطة نور الصفات ، أو أول أهل زماني إيمانا.

الإشارة : رؤية الحق جائزة واقعة عند الصوفية فى الدارين ، ولكن لا ينالها فى هذه الدار إلا خواص الخواص ، ويعبّرون عنها بالشهود والعيان ، ولا يكون ذلك إلا بعد الفناء ، وفناء الفناء بعد موت النفس وقتلها ، ثم الغيبة عن حسها ورسمها ، تكون بعد التهذيب والتدريب والتربية على يد شيخ كامل ، لا يزال يسير به ويقطع به فى المقامات ، ويغيبه عن نفسه ورؤية وجوده ، حتى يقول له : ها أنت وربك ، وذلك أن الحق جل جلاله تجلى لعباده بأسرار المعاني خلف رداء الأوانى ، وهو حس الأكوان ، فأسرار المعاني لا يمكن ظهورها إلا بواسطة الأوانى ، أو تقول :

أسرار الذات لا تظهر إلا فى أنوار الصفات ، فلو ظهرت أسرار الذات بلا واسطة لاضمحلت الأشياء واحترقت ، كما فى الحديث : «حجابه النّور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» «١».

فالمراد بالنور نور الصفات ، وهو الأوانى الحاملة للمعانى ، لو كشف ذلك النور حتى تظهر أسرار الذات لأحرقت كل شيء أدركه بصره. والواسطة عند المحققين هى عين الموسوط ، فلا يزال المريد يفنى عن عين الواسطة فى شهود الموسوط حتى يغيب عن الواسطة بالكلية ، أو تقول : لا يزال يغيب عن الأوانى بشهود المعاني حتى تشرق شمس العرفان ، فتغيب الأوانى فى ظهور المعاني ، فيقع العيان على فقد الأعيان ، «كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان» ، «ما حجبك عن الحق وجود موجود معه ، إذ لا شيء معه ، وإنما حجبك توهم موجود معه».

والحاصل : أن الحق تعالى تكون رؤيته أولا بالبصيرة دون البصر ، لأن البصيرة تدرك المعاني ، والبصر يدرك الحسيات ، فإذا انفتحت البصيرة استولى نورها على نور البصر ، فلا يرى البصر حينئذ إلا ما تراه البصيرة. قال بعض العارفين : هذه المزية العظمى – وهى رؤية الحق تعالى – فى الدنيا على هذا الوجه : خاص بخواص الأمة

---

(١) أخرجه مسلم فى (الإيمان – باب فى قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : إن اللّه لاينام) من حديث أبى موسى.

المحمدية – دون سائر الأمم – وراثة عن نبيهم صلّى اللّه عليه وسلّم ، فإنه خص بالرؤية دون غيره من الأنبياء. وإلى ذلك أشار ابن الفارض فى تائيته ، مترجما بلسان الحقيقة المحمدية ، حيث قال :

ودونك بحرا خضته ، وقف الألى بساحله ، صونا لموضع حرمتى

ولا تقربوا مال اليتيم إشارة لكف يد صدّت له ، إذ تصدّت

وما نال شيئا منه غيري سوى فتى على قدمي فى القبض والبسط ما فتى

قال شارحه القاشاني : أراد بهذا البحر : الرؤية التي منع منها موسى عليه السّلام ، وخص بها محمد – عليه الصلاة السلام – وأفراد من أتباعه. ثم قال : ورد فى الخبر : أنه لما أفاق موسى عليه السّلام من صعقته قيل له : ليس ذلك لك ، ذلك ليتيم يأتى من بعدك ، ثم قال : سبحانك تبت إليك عما تعديت لما ليس لى ، وأنا أول المؤمنين بتخصيص محمد صلّى اللّه عليه وسلّم بهذا المقام. هـ.

وقيل فى قوله : فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ أي : جبل العقل ، بحيث طمس نوره بنور شمس العرفان ، وخر موسى صعقا ، أي : ذهب وجوده فى وجود محبوبه ، وحصل له الزوال فى مكان الفناء والسكر ، فلما أفاق ورجع إلى البقاء تمسك بمقام العبودية والأدب مع الربوبية فقال : سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ من رؤية جبل الحس قبل شهود نور المعنى ، وأنا أول المؤمنين بأن نور المعاني خلف رداء الأوانى ، لا يدرك إلا بعد الصعقة ، واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر نزول التوراة ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٤٤ الى ١٤٧]

قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)

قلت : الرّشد والرّشد : لغتان ، قرىء بهما.

يقول الحق جل جلاله : قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ اخترتك عَلَى النَّاسِ الموجودين في زمانك ،

وهارون ، وإن كان نبيا ، كان مأمورا باتباعه ، ولم يكن كليما ولا صاحب شرع. فقد اصطفيتك على أهل زمانك بِرِسالاتِي لك إليهم ، ومن قرأ بالجمع فالمراد : أوقات التبليغ بأنواع الأحكام أو أسفار التوراة ، وَخصصتك بِكَلامِي ، وقد شاركه نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم مع زيادة الرؤية ، فَخُذْ ما آتَيْتُكَ أي : أعطيتك من الرسالة والتكليم ، واقنع بهما ولا تطلب غير ذلك ، وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ على هذه النعمة ، وفيه نوع تأديب له.

روى أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة ، وأعطاه التوراة يوم النحر.

قال تعالى : وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يحتاجون إليه مَوْعِظَةً أي : تذكيرا وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ يتوقفون عليه في الأحكام والوعظ. واختلف في الألواح : هل كانت سبعة أو عشرة أو اثنين ، وهل كانت من زمرد أو زبرجد أو ياقوت أحمر ، أو خشب ، أو صخرة صماء ، شقها اللّه تعالى لموسى عليه السّلام فقطعها بيده ، وكان فيها التوراة.

قال تعالى لموسى عليه السّلام : فَخُذْها أي : الألواح أو الرسالة بِقُوَّةٍ أي : بجد واجتهاد ، وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها بأحسن ما فيها ، فإن فيها ما هو حسن وأحسن منه كالقصاص مع العفو ، أو بواجباتها ، فإن الواجب أفضل من المندوب ، وهذا كقوله في كتابنا : وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ «١» ، ويجوز أن يراد بالأحسن : البالغ في الحسن مطلقا ، لا بالإضافة إلى غيره ، كقولهم : الصيف أحر من الشتاء ، فيكون الأمر بأخذ كل ما فيها لأنه بالغ الحسن ، ثم بشرهم بخراب ملك عدوهم ، فقال : سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ أي : دار فرعون وقومه خاوية على عروشها ، أي : أريكم كيف أقفرت منهم لمّا هلكوا ، وقيل : منازل عاد وثمود ومن هلك من الأمم ، لتعتبروا بها ، وقيل : جهنم.

وقرأ ابن عباس : «سأورثكم» بالثاء المثلثة ، كقوله : وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ «٢».

سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ المنصوبة فى الآفاق والأنفس الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا من عجائب المصنوعات فلا يتفكرون فيها ، أو القرآن وغيره من الكتب ، أصرف عنها الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون ، ولا يؤمنون بها ، عقوبة لهم على تكبرهم ، وقيل : الصرف : منعهم من إبطالها

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة الشعراء.

وإطفاء نورها ، وإن اجتهدوا ، كما فعل فرعون وغيره ، فعاد عليهم بإعلائها وإظهار نورها ، وذلك التكبر صدر منهم بِغَيْرِ الْحَقِّ أي : تكبروا بما ليس بحق ، وهو دينهم الباطل.

وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ منزلة أو معجزة لا يُؤْمِنُوا بِها لعنادهم ، واختلال نظرهم ، بسبب انهماكهم في الهوى وحب الجاه ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ أي : طريق الصواب والحق يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا لاستيلاء الشيطان عليهم ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ أي : الضلال يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا أي : يسلكونه ويتبعونه ، لأن سجيتهم الضلال ، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ أي : ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم الآيات.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ أي : وبلقائهم الدار الآخرة ، أو : ما وعد اللّه فى الآخرة ، حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ لا ينتفعون بها ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ أي : لا يجزون إلا مقدار أعمالهم.

وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً «١».

الإشارة : كل من أقامه اللّه فى مقام من المقامات ، أو حال من الأحوال ، كيفما كان ، يقال له : خذ ما آتيتك ، واقنع بما أوليتك ، وكن من الشاكرين عليه ، وإلا سلبناك ما أعطيناك ، فالرضا بالقسمة واجب ، وطلب باب الفضل والكرم لازب ، والأمر مبهم ، والعواقب مغيبة ، ومنتهى المقام على التعيين لا يعلم إلا بعد الموت. وقوله تعالى :

فَخُذْها بِقُوَّةٍ أي : بجد واجتهاد. قال فى الإحياء : الأخذ بالجد أن يكون القارئ متجردا لله عند قراءته ، منصرف الهمة إليه عن غيره ، وهو يشير للحضور.

وقوله تعالى : يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها قال الورتجبي : يأخذون بأبينها لهم ، وهى المحكمات التي توجب العبودية ، ويأخذون بمتشابهها التي هى وصف الصفات بحسن الاعتقاد والتسليم فيها ، لأن علومها وحقائقها لا تكشف إلا للربانيين. قال تعالى : وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ... «٢» الآية. هـ. وقوله تعالى :

سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ. قال القشيري : سأحرم المتكبرين بركة الاتباع ، حتى لا يتلقوا الآيات التي يكاشفون بها بالقبول ، ولا يسمعوا ما يخاطبون به بسمع الإيمان. هـ.

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف. [.....]

(٢) الآية ٧ من سورة آل عمران.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦١

ثم شرع فى ذكر مساوئ بنى إسرائيل فبدأ بعبادتهم العجل ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٤٨ الى ١٤٩]

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (١٤٩)

قلت : «عجلا» : مفعول أول لاتخذ ، و«جسدا» : بدل منه ، وحذف الثاني – أي : «إلها» – لدلالة أوله ، و(له خوار) :

نعت له.

يقول الحق جل جلاله : وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ أي : من بعد ذهابه للميقات ، مِنْ حُلِيِّهِمْ التي كانوا استعاروها من القبط ، حين هموا بالخروج من مصر ، وإضافتها إليهم لأنها كانت تحت أيديهم ، فصنع لهم منها السامري عِجْلًا جَسَداً بلا روح ، فألقى فى جوفه من تراب أثر فرس جبريل ، فصار لَهُ خُوارٌ ، فقال لهم : هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى ، فعكفوا على عبادته ، واتخذوه إلها.

قال تعالى : أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أي : ألم يروا ، حين اتخذوه إلها ، أنه لا يقدر على كلام ، ولا على إرشاد سبيل ، كآحاد البشر ، حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر ، وهذا تقريع على فرط ضلالتهم وإخلالهم بالنظر. قال تعالى : اتَّخَذُوهُ إلها وَكانُوا ظالِمِينَ فى اتخاذه ، وضعوا الأشياء فى غير محلها ، أي : كانت عادتهم الظلم ، فلم يكن اتخاذ العجل بدعا منهم.

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ كناية عن اشتداد ندمهم ، فإن النادم المتحسر يعض يده غما ، فتصير يده مسقوطا فيها. أو يسقط رأسه ، أي : يطأطئها لبعض يده. وقال الدميامينى : العرب تضرب الأمثال بالأعضاء ، ولا تريد أعيانها ، تقول للنادم : يسقط فى يده ، وفى الذليل : رغم أنفه. هـ. أي : ولمّا ندموا على ما فعلوا ، وَرَأَوْا أي :

علموا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا باتخاذ العجل ، قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا بالتجاوز عن خطيئتنا ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ دنيا وأخرى.

الإشارة : كل من ركن إلى شيء وعكف على محبته من دون اللّه فهو فى حقه عجل يعبده من دون اللّه ، «ما أحببت شيئا إلا وكنت عبدا له ، وهو لا يحب أن تكون عبدا لغيره». عافانا اللّه من ذلك.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦٢

ثم ذكر رجوع موسى عليه السّلام من الطور ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٥٠ الى ١٥٣]

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)

قلت : (بئسما) : «ما» نكرة موصوفة : تمييز ، تفسير للضمير المستكن في (بئس) ، والمخصوص : محذوف ، أي :

بئس شيئا خلفتموني خلافتكم هذه ، و«ابن أم» : منادى مضاف ، منصوب بفتحة مقدرة قبل ياء المتكلم ، وأصله : ابن أمي ، فحذفت الياء ، وفتحت الميم تخفيفا.

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى من ميقاته إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ على قومه ، أَسِفاً أي : حزينا عليهم حيث ضلوا ، قالَ لهم ، أو لأخيه ومن معه من المؤمنين : بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أي : من بعد انطلاقى إلى المناجاة ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ أي : أسابقتم قضاء ربكم ووعده ، واستعجلتم إتيانى قبل الوقت الذي قدّر فيه ، أو أعجلتم عقوبة ربكم وإهلاكه لكم حيث عبدتم غيره.

وَأَلْقَى الْأَلْواحَ طرحها من شدة الغضب حمية للدين ، روى أن التوراة كانت سبعة أسفار فى سبعة ألواح ، فلما ألقاها انكسرت ، فرفع ستة أسباعها ، وكان فيها تفصيل كل شيء ، وبقي سبع كان فيه المواعظ والأحكام ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ : بشعر رأسه يَجُرُّهُ إِلَيْهِ توهما فى أنه قصّر فى زجرهم ، وهارون كان أكبر منه بثلاث سنين ، وكان حمولا ليّنا ، ولذلك كان أحبّ إلى بنى إسرائيل ، ولما رأى هارون ما يفعل به أخوه قالَ ابْنَ أُمَّ ، ذكر الأم ليرققه ، وكان شقيقا له ، إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي حين أنكرت عليهم ، فقد بذلت جهدى فى كفهم ، وقهرونى حتى قاربوا قتلى ، فلم أقصّر ، فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ فلا تفعل بي ما يشمتون بي ، أي :

يستشفون بي لأجله ، وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ معدودا فى عدادهم بالمؤاخذة ، أو نسبة التقصير.

قالَ موسى : رَبِّ اغْفِرْ لِي ما صنعت بأخى ، وَلِأَخِي إن فرّط فى كفّهم ، وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ بمزيد الإنعام علينا ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فأنت أرحم منا على أنفسنا.

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وهو ما أمرهم من قتل أنفسهم ، أو الطاعون الذي سلط عليهم ، وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وهى ضرب الجزية والهوان إلى يوم القيامة ، وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ على الله ، ولا فرية أعظم من فريتهم ، حيث فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى ، ولعله لم يفتر أحد مثلها قبلهم ولا بعدهم ، حيث جعلوا البقر إلههم وإله الرسول ، نسأل اللّه الحفظ.

ثم ذكر توبتهم ، فقال : وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ من الكفر والمعاصي ، ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها من بعد السيئات وَآمَنُوا واشتغلوا بما يقتضيه الإيمان من الأعمال الصالحات ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها من بعد التوبة لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وإن عظم الذنب كجريمة عبدة العجل – وكثر كجرائم بنى إسرائيل.

الإشارة : الغضب للّه وبالله ، والأسف على دين اللّه ، من أمارة الغيرة على دين اللّه ، لكنّ صاحب هذا المقام مالك نفسه ، يظهر الغلظة ويبطن الرحمة ، قياما بشهود الحكمة والقدرة ، وأما ما صدر من سيدنا موسى – عليه السّلام – فتشريع لأهل التشريع ، لئلا يقع التساهل في تغيير المناكر. وساق الإمام الهروي هذه الآية في منازل السائرين في باب المراد ، وهو المخصوص من ربه بما لم يرده هو ولا خطر بباله ، والإشارة بذلك إلى الضنائن الذين ورد فيهم الخبر : «إنّ للّه ضنائن من خلقه ، ألبسهم النور السّاطع ، وغذاهم في رحمته ، وفعل بهم وفعل ...» أورده الإمام أبو نعيم في الحلية «١».

وحاصله : أن المرادين هم قوم مخصوصون ، ملطوف بهم ، محمول عنهم ، ومنه : وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ «٢» فقد خص – عليه الصلاة والسلام – بما لم يخطر على باله قبل النبوة.

قال الهروي : والمراد : ثلاث درجات : الدرجة الأولى : أن يعصم العبد وهو مستشرف للجفا اضطرارا بتنغيص الشهوات وتعويق الملاذ ، وسد مسالك المعاطب عليه ، إكراما ، والدرجة الثانية : أن توضع عن العبد عوراض النقص ، ويعافيه من سمة اللائمة ، ويملكه عواقب الهفوات ، كما فعل لسليمان عليه السّلام فى قتل الخيل حمله على الريح الرخاء ، فأغناه عن الخيل ، وكما فعل لموسى عليه السّلام حين ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه لم يعتب عليه كما عتب على آدم ونوح وداود ويونس – عليهم السلام. هـ.

قال شارحه الإمام عبد المعطي السكندري : وهذه الدرجة أتم في الحمل علي الأعمال وركوب الأهوال ، والتلطف في تعليم الإقبال مما قبلها ، فإن ما قبلها منع من الشهوات ، وصيانة عن الآفات جبرا وقهرا وحفظا ، وهذا حفظ عنها بإظهار صفح برفق وإكرام ولطف ، فتقوى المحبة في القلب ، فيحمل ذلك على سرعة الموافقة ، ومتى

---

(١) الجزء الأول ص ٦ بنحوه عن ابن عمر – مرفوعا.

(٢) من الآية ٨٦ من سورة القصص.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦٤

عرف العبد تقصيره في حق مولاه ، ورأى مع ذلك تجاوزه عنه ، وإحسانه إليه ، فضلا عن ترك مؤاخذته بما جناه ، انغرس في قلبه محبته ، وقوى بذلك نشاطه ، وخفت عليه الأعمال ، وقويت منه الأحوال ، فكلاهما محفوظ معان ، إلا أن الأول قهر مع تعلقه ، وهذا إكرام ولطف بعد جريان هفوته ، ثم ذكر الدرجة الثالثة ، فانظره. هـ. بنقل المحشى.

ثم كمّل القصة ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٥٤]

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَفِي نُسْخَتِها هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا سَكَتَ أي : سكن عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ لمّا كان الغضب هو الحامل له على ما فعل صار كأنه كان يأمره به ويغريه عليه ، حتى عبّر عن سكونه بالسكوت ، أي : لما سكن غضبه أَخَذَ الْأَلْواحَ التي ألقاها ، وَفِي نُسْخَتِها أي : وفيما نسخ فيها ، أي : كتب هُدىً وَرَحْمَةٌ أي : بيان للحق وإرشاد إلى الصلاح والخير ، لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ أي : للذين يخافون ربهم ويهابونه لأنهم هم المنتفعون بها ، ودخلت اللام فى المفعول لضعف العامل بتأخره.

الإشارة : الغضب لأجل النفس يفسد الإيمان ، كالحنظل مع العسل ، ولذلك قال – عليه الصلاة والسلام – للذي قال له : أوصنى ، قال : «لا تغضب» ، ثم كرر عليه : أوصني ، قال : «لا تغضب» ، ثلاثا ، لأن الغضب المفرط يغطى نور العقل ، فيصدر من صاحبه أمور منكرة ، قد يخرج بها عن الإيمان بالكلية ، وقد يؤدى إلى قتل نفسه والعياذ بالله ، والغضب معيار الصوفية قال بعضهم : إذا أردت أن تعرف الرجل فغضبه وانظر ما يخرج منه ، إلى غير ذلك مما ورد فيه ، فإن كان غضبه لله أو بالله فلا كلام عليه ، وهو حال الأنبياء وأكابر الأولياء – رضى اللّه عنهم – .

ولما انقضت قضية العجل أراد سيدنا موسى عليه السّلام أن يذهب بقوم ، يعتذرون عن عبادة العجل ، كما قال تعالى :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٥٥]

وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (١٥٥)

يقول الحق جل جلاله : وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ من قومه سَبْعِينَ رَجُلًا يعتذرون عن قومهم فى عبادة العجل ، لِمِيقاتِنا الذي وقتنا لهم يأتون إليه ، وقيل : إن اللّه تعالى أمره به بأن يأتيه فى سبعين من بني إسرائيل ، فاختار من كل سبط ستة ، فزاد على السبعين اثنان ، فقال : يتخلف منكم رجلان ، فتشاجروا ، فقال : إن لمن قعد أجر من خرج ، فقعد كالب ويوشع ، وذهب معه الباقون ، فلما دنوا من الجبل غشيه غمام ، فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجدا ، فسمعوه يكلم موسى ، يأمره وينهاه ، ثم انكشف الغمام ، فأقبلوا إليه ، وقالوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً «١» ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أي : الصعقة ، أو رجفة الجبل ، عقابا لهم على قولهم ، فصعقوا منها ، يحتمل أن تكون رجفة موت أو إغماء. والأول أظهر لقوله : ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ «٢».

فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ موسى : رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، تمنى هلاكهم وهلاكه قبل ذلك الوقت ، لأنه خاف من تشغيب بني إسرائيل عليه ، إن رجع إليهم دون هؤلاء السبعين ، ربما قالوا : عرّضهم للهلاك ، أو يكون قال ذلك على وجه الاستسلام والانقياد للقضاء ، أي : لو شئت أن تهلكنا من قبل ذلك لفعلت ، فإنا عبيدك وتحت قهرك تفعل بنا ما تشاء ، أو يكون قاله على وجه التضرع والرغبة ، أي : لو شئت أن تهلكنا قبل اليوم لفعلت ، لكنك عافيتنا وأنقذتنا وأغرقت عدونا ، فافعل بنا الآن كما عودتنا ، وأحى هؤلاء الذين أمتهم ، إذ ليس ببعيد من عميم إحسانك ، أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا من العناد والتجاسر على طلب الرؤية ، أو بما فعل السفهاء من عبادة العجل.

إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ أي : ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك ، حتى طمعوا في الرؤية ، أو فتنتك لهم بأن أجريت الصوت من العجل حتى افتتنوا به ، وهذا اعتراف بالقدر ، ورجوع إلى قوله : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ... «٣» الآية ، ولذلك قيل : إنه قال له تعالى : نعم هى فتنتى يا حكيم الحكماء. هـ. أي : ما هذه الأمور كلها التي صدرت من بني إسرائيل إلا فتنتك تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ ضلالته ، باتباع المخايل ، وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ هدايته ، فيقوى بها إيمانه ، وهو اعتذار عن فعل السفهاء فإنه كان بقضاء اللّه ومشيئته.

أَنْتَ وَلِيُّنا القائم بأمرنا ، أو ناصرنا من الوقوع في أسباب المهالك ، فَاغْفِرْ لَنا ما قارفنا من الذنوب ، وَارْحَمْنا أي : اعصمنا من الوقوع فى مثله ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة ،

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٥٦ الى ١٥٧]

وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ

فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً أي : حالة حسنة من حسن معيشة وتوفيق طاعة ، وَفِي الْآخِرَةِ حسنة نعيم الجنة ، إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ أي : تبنا إليك ، من هاد يهود : إذا رجع ، أي : رجعنا إليك بالتوبة مما سلف منا.

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥٦ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٨٥ من سورة طه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦٦

الإشارة : السلامة من العطب هو في مقام الهيبة والأدب ، ولذلك قيل : قف بالبساط ، وإياك والانبساط. وأما مقام الإدلال فلا يصح إلا من أكابر الأنبياء ، والأولياء المحققين بمقام المحبوبية ، المتحفين بغاية الخصوصية ، ومنه قول سيدنا موسى عليه السّلام : أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا ، كما قال في الإحياء. والإدلال : هو انبساط يثور من مقام الأنس والتحقق بالمحبة الخاصة ، ولا يتفق إلا من محبوب مأخوذ عنه ، ليس عليه بغية من نفسه ، ولا شعور بوجوده وأنانيته ، وإلا ردّ في وجهه وكان سبب عطبه. ومن الإدلال : ما وقع لأبي الحسن الشاذلي رضى اللّه عنه فى حزبه الكبير ، من قوله : وليس من الكرم ألا تحسن إلا لمن أحسن إليك ... إلخ. وقد وقع لغيره من المحبوبين.

واللّه تعالى أعلم.

ثم أجاب الحق – سبحانه وتعالى – سؤال موسى عليه السّلام فى قوله : (و اكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة) فقال :

قالَ عَذابِي أُصِيبُ ...

يقول الحق جل جلاله : فى جواب سيدنا موسى عليه السّلام : قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ ممن أخذته الرجفة وغيرهم ، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فى الدنيا للمؤمنين والكافرين ، وفى الآخرة مخصوصة بالمؤمنين ، فَسَأَكْتُبُها كتابة خاصة لا تليق بكم يا بنى إسرائيل ، إنما تليق بالأمة المحمدية الموسومة بالآداب المرضية ، الذين يَتَّقُونَ الكفر والمعاصي ، وإن وقعت هفوة بادروا إلى التوبة ، وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ ، خصصها بالذكر لأنها كانت أشق عليهم. وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ فلا يكفرون بشىء منها ، بل يؤمنون

بجميع الكتب والأنبياء ، وليس ذلك لغيرهم. ولذلك خصهم اللّه بهذه الرحمة فنصرهم على جميع الأمم ، وأعلى دينهم على جميع الأديان ، ومكّن لهم مالم يمكن لغيرهم.

(٢/٢٦٦)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦٧

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ صلّى اللّه عليه وسلّم النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ وهو نبينا ومولانا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكونه أميا شرف له ، إذ الكتابة وسيلة للعلوم ، وقد أعطى منها ما لم يعط أحد من العالمين ، من غير تعب تعلمها ، ولارتفاع الارتياب فى نبوته صلّى اللّه عليه وسلّم ، فهى من جملة معجزاته قال تعالى : وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ... الآية «١». قال بعضهم : لما قال اللّه تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ طمع فيها كل أحد ، حتى إبليس ، فلما قال : فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ يئس إبليس ، وبقيت اليهود والنصارى ، فلما قال : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ يئس اليهود والنصارى. هـ.

الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ اسما وصفة ، ونص ما فى التوراة على ما فى صحيح البخاري ، عن عبد اللّه بن سلام : «يا أيّها النبىّ إنّا أرسلناك شاهدا ومبشّرا ونذيرا ، وحرزا للأمّيين ، أنت عبدى ورسولى ، سمّيتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب فى الأسواق ، ولا يجازى بالسّيّئة السّيّئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه اللّه حتّى يقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلّا اللّه ، فيفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صمّا ، وقلوبا غلفا» «٢».

ومما فى التوراة أيضا ، وهو مما أجمع عليه أهل الكتاب ، وهو باق فى أيديهم إلى الآن أن الملك قد نزل على إبراهيم ، فقال له : فى هذا العام يولد لك غلام اسمه إسحاق ، فقال إبراهيم : يا رب ليت إسماعيل يعيش يخدمك ، فقال اللّه لإبراهيم : ذلك لك ، قد استجيب لك فى إسماعيل ، وأنا أباركه ، وأنميه ، وأكثره ، وأعظمه بماذماذ ، وتفسيره :

محمد صلّى اللّه عليه وسلّم.

ومن ذلك مما فى التوراة أيضا : أن الرب – تعالى – جاء من طور سيناء ، وطلع على «ساغين» ، وظهر من جبل فاران ، ويعنى بطور سيناء : موضع مناجاة موسى ، وساغين موضع عيسى ، وفاران هى مكة ، موضع مولد نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وفى التوراة أيضا : أن هاجر أم إسماعيل لما غضبت عليها سارة ، تراءى لها ملك ، فقال لها : يا هاجر ، أين تريدين ، ومن أين أقبلت؟ فقالت : أهرب من سيدتى سارة ، فقال لها : يا هاجر ، ارجعي إلى سارة ، وستحملين وتلدين ولدا اسمه إسماعيل ، وهو يكون عين الناس ، وتكون يده فوق الجميع ، وتكون يد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع. هـ.

وهذا الذي وعدها الملك إنما ظهر بمبعث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وظهور دينه وعلو مكانه ، ولم يكن ذلك لإسماعيل ولا لغيره من أولاده ، لكن الأصل يشرف بشرف فرعه ، وفى التوراة أيضا : أن اللّه أوحى إلى إبراهيم عليه السّلام : قد أجبت دعاءك فى إسماعيل ، وباركت عليه ، وسيلد اثنى عشر عظيما ، وأجعله لأمة عظيمة. وفى بعض كتبهم : لقد

---

(١) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت.

(٢) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الفتح ، باب : «إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا») من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦٨

تقطعت السماء من بهاء محمد المحمود ، وامتلأت الأرض من حمده ، لأنه ظهر بخلاص أمته. هـ.

ونص ما فى الإنجيل : أن المسيح قال للحواريين : إنى ذاهب عنكم ، وسيأتيكم الفارقليط ، الذي لا يتكلم من قبل نفسه ، إنما يقول كما يقال له. هـ. والفارقليط بالعبرانية : اسم محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقيل معناه : الشافع المشفع.

وعن شهر بن حوشب – فى قصة إسلام كعب الأحبار ، وهو من اليمن من حمير – : أن كعبا أخبره بأمره ، وكيف كان ذلك ، وكان أبوه من مؤمنى أهل التوراة برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، قبل ظهوره ، قال كعب : وكان أبى من أعلم الناس بالتوراة وكتب الأنبياء ، ولم يكن يدخر عنى شيئا مما كان يعلم ، فلما حضرته الوفاة دعانى فقال : يا بنى ، قد علمت أنى لم أكن أدخر عنك شيئا مما كنت أعلم ، إلا أنى حبست عنك ورقتين فيهما ذكر نبى يبعث ، وقد أطل زمانه ، فكرهت أن أخبرك بذلك ، فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكذابين فتتبعه ، وقد قطعتهما من كتابى ، وجعلتهما فى هذه الكوة التي ترى ، وطينت عليهما ، فلا تتعرض لهما حتى يخرج هذا النبي ، فإذا خرج فاتبعه وانظر فيهما ، فإن اللّه تعالى يزيدك بهذا خيرا ، فلما مات والدي لم يكن شيء أحب إلى من أن ينقضى المأتم حتى أنظر ما فى الورقتين ، فإذا فيهما : «محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، خاتم النبيين لا نبى بعده ، مولده بمكة ، ومهاجره طيبة ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يجزى بالسيئة الحسنة ، ويعفو ويغفر ويصفح ، أمته الحمّادون ، الذين يحمدون اللّه على كل شرف وعلى كل حال ، وتذلل ألسنتهم بالتكبير ، وينصر اللّه نبيهم على كل من ناوأه ، يغسلون فروجهم بالماء ، ويتأزرون على أوساطهم ، وأناجيلهم فى صدورهم ، ويأكلون قربانهم فى

بطونهم ، ويؤجرون عليها ، وتراحمهم بينهم تراحم بنى الأم والأب ، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم ، وهم السابقون المقربون ، والشافعون المشفع فيهم». «١». ثم أسلم على يد عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه.

قال الحق جل جلاله فى بقية أوصاف نبينا – عليه الصلاة السلام – : يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ مما حرم على اليهود كالشحوم وغيرها ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ كالدم ولحم الخنزير وسائر الخبائث ، أو كالربا والرشوة وغيرهما من المحرمات. قال ابن جزى : مذهب مالك أن الطيبات هى الحلال ، وأن الخبائث هى الحرام. ومذهب الشافعي : أن الطيبات هى المستلذات ، إلا ما حرمه الشرع منها ، كالخمر والخنزير ، وأن الخبائث هى المستقذرات كالخنافس والعقارب. هـ.

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ أي : الثقل الذي عليهم ، وهو مثال لما كلفوا به – أي : بنو إسرائيل – فى شرعهم من المشقات كقتل الأنفس فى التوبة ، وقطع موضع النجاسة من الثوب ، وتعيين القصاص فى العمد والخطأ. «٢»

---

(١) أخرجه بنحوه مختصرا الدارمي فى (المقدمة – باب صفة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم) والبغوي فى تفسيره ، (٣/ ٢٨٩) وابن سعد فى الطبقات ١/ ٣٦٠.

(٢) من هنا يبدأ سقط كبير فى المخطوطة الأصلية سيستمر حوالي عشرين صفحة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦٩

وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ عبارة عما منعت منه شريعتهم ، كتحريم الشحوم ، وتحريم العمل يوم السبت ، وشبه ذلك. فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ أي : منعوه وحفظوه من عدوه ، حتى لا يقوى عليه ، أو عظموه بالتقوية حتى انتصر ، وأصله : المنع ، ومنه التعزير ، وَنَصَرُوهُ حتى أظهروا دينه فى حياته وبعد مماته ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ وهو القرآن ، وإنما سماه نورا لأنه بإعجازه ظاهر أمره ومظهر غيره ، أو لأنه كاشف للحقائق مظهر لها. أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بالرحمة الأبدية ، وهذا آخر جواب سيدنا موسى عليه السّلام.

الإشارة : قوله تعالى وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، قال القشيري : لم يعلّقها بالمشيئة – يعنى : كما قال فى العذاب – لأنها نفس المشيئة ، ولأنها قديمة ، والإرادة لا تتعلق بالقديم ، فلمّا كان العذاب من صفات الفعل علّقه بالمشيئة ، بعكس الرحمة لأنها من صفات الذات. ويقال فى قوله تعالى : وَسِعَتْ

كُلَّ شَيْءٍ : مجال لآمال العصاة لأنهم ، وإن لم يكونوا من جملة المطيعين العابدين والعارفين ، فهم «شى ء». هـ.

قلت : وبهذا العموم تشبث إبليس فى قضية له مع سهل ، وذلك أنه لما تراءى له ، ضحك ، فقال له : كيف تضحك وقد أبلست من رحمة اللّه؟ فقال له : قال تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وأنا شىء ، فسكت سهل ، ثم تذكر تمام الآية ، فقال : قال تعالى : فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، فهى مقيدة لا مطلقة ، فقال له : التقوى فعل العبد ، والرحمة صفة الرب ، ولا يتغير وصف الحق بفعل العبد ، فعجز سهل.

قلت : والجواب : أن إبليس جاء من جهة الفرق ، ولو نظر للجمع لوجد الرحمة وصفه ، والتقوى فعله ، وفعله يغير وصفه ، والكل منه وإليه. واللّه تعالى أعلم.

وقال الورتجبي : جميع الخلائق مستغرقون فى بحر الرحمة ، لأن إيجاد الحق إياهم ، على أي وصف كانوا ، عين رحمته ، حيث دخلوا تحت نظره وسلطانه وربوبيته ، ومباشرة قدرته فيهم ، ثم إن الخلق بالتفاوت فى الرحمة فالجمادات مستغرقة فى نور فعله ، وهى الرحمة الفعلية ، والحيوانات مستغرقة فى نور صفاته ، وهى الرحمة الصفاتية ، والعقلاء من الجن والإنس والملائكة مستغرقون فى نور ذاته ، وهى الرحمة القديمة الذاتية من جهة تعريفهم ربوبيته ووحدانيته ، وهم من جهة الأجسام وما يجرى عليها ، فى الرحمة العامة ، ومن جهة الأرواح وما يجرى عليها ، فى الرحمة الخاصة ، وهم فيها بالتفاوت ، فبعضهم فى رؤية العظمة ذابوا ، وبعضهم فى رؤية القدم والبقاء تاهوا ، وبعضهم فى رؤية الجلال والجمال عشقوا وطاشوا ، ومن خرج من مقام الرحمة إلى أصل الصفة ، ومن الصفة إلى أصل الذات استغرق فى الراحم ، وفنى عن الرحمة ، فصار رحمة للعالمين ، وهذا وصف نبينا – عليه الصلاة والسلام – ، لأنه وصل بالكل إلى الكل ، فوصفه برحمة الكل بقوله : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ «١» ، ثم خص رحمته الخاصة الصفاتية ، بعد أن عم الكل برحمته العامة للمنفردين باللّه عن غير اللّه ، القانتين بعظمته فى عظمة الذين بذلوا وجوههم لحق ربوبيته عليهم بقوله : فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ .... هـ.

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧٠

قال فى الحاشية : واعتبر قوله : فَسَأَكْتُبُها ، فإنه يقتضى كون الرحمة السابقة مطلقة ، والتغيير طارئ ، والطارئ لا ينافى الذات. هـ. قلت : فتكون على هذا الرحمة التي وسعت كل شىء رحمة عامة ، إذ لا

يخلو مخلوق من رحمته فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فالخلق كلهم مرحومون إيجادا وإمدادا ، وأما فى الآخرة فما من عذاب إلا واللّه أشد منه فى قدرته ، والرحمة التي كتبت للمتقين رحمة خاصة ، ويدل على هذا ما فى القوت «١» على قوله : فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، قال : معناه خصوص الرحمة وصفوها لا كلها ، إذا لا نهاية للرحمة ، لأنها صفة الراحم الذي لا حد له ، ولأنه لم يخرج من رحمته شيء ، كما لم يخرج من حكمته وقدرته شيء. هـ.

وقال السيوطي : فسأكتبها فى الآخرة ، ووجه تخصيصها فى الآخرة بالمؤمنين : تمحضها هنالك من غير شوب بضد ، ولا كذلك فى الدنيا ، وإن كانت غالبة ، والكافر عمته فى الدنيا عموما ظاهرا ، وسلب منها فى الآخرة بحسب الظاهر ، وإن لم يخل عنها فى الجملة ، لأن غضبه تعالى لا حدّ له لو لا رحمته.

وحاصله : أنه لم تفى جهنم بغضبه ، لأنه لا يفى المتناهي بغير المتناهي ورحمته عمت الكافر فى الدنيا لإمهاله وبسط نعمه عليه ، وفى الإمهال فسحة فى الحال وأمل الإقلاع فى المآل ، وقد يتفق كثيرا ، أي : الإقلاع ، فلا يتعين أن يكون الإمهال استدراجا ، على أنه إنما يتجلى تجليا أوليا ذاتيا برحمة مطلقة من غير تفصيل ، إذ لا تعدد فى الذات ، وإنما يظهر التفصيل بالصفات ، وإن كان يسرى إليها من الذات ، ولكن الرحمة تظهر أولا من الذات ، مع قطع النظر عن الصفات لظهورها ، ولا تظهر النقمة إلا من الصفات ، وهى خفية فى تجلى الذات المطلق ، ولذلك قال : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وعلق العذاب على المشيئة ، فخص به دونها. هـ. من الحاشية مع زيادة بيان.

ثم أمره بالدعاء إلى الإيمان ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٥٨]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الأحمر والأسود ، والعرب والعجم ، والإنس والجن ، خص بهذه الدعوة العامة ، وإنما بعثت الرسل إلى قومها خاصة. فادع الناس أيها الرسول إلى اللّه تعالى ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يتصرف فيهما كيفما شاء ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لأن من ملك العالم كان هو الإله لا غير ، يُحيِي وَيُمِيتُ لعموم قدرته ونفوذ أمره ،

---

(١) أي قوت القلوب لأبى طالب المكي.

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ أي : ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل قبله من كتبه ووحيه. وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة ، أي : لم يقل : فآمنوا بالله وآمنوا لإجراء هذه الصفات عليه ، الداعية إلى الإيمان به واتباعه ، ولذلك قال : وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إلى طريق الحق والرشد ، جعل رجاء الاهتداء آثر الأمرين تنبيها على أن من صدّقه ، ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد فى خطط الضلالة. قاله البيضاوي.

الإشارة : لا غنى للمريد عن متابعة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولو بلغ ما بلغ ، لقوله تعالى : وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وغاية الاهتداء غير متناهية ، لأن أدب العبودية مقرون مع عظمة الربوبية ، فكما أن الترقي فى مشاهدة الربوبية لا نهاية له ، كذلك أدب العبودية لا نهاية له ، ولا تعرف كيفية الأدب إلا بواسطة تعليمه عليه الصلاة والسلام ، فواسطة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لا تفارق العبد ، ولو عرف ما عرف ، وبلغ ما بلغ. واللّه تعالى أعلم.

ثم رجع الحق تعالى إلى الكلام مع بنى إسرائيل ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٥٩]

وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ قَوْمِ مُوسى ، يعنى بنى إسرائيل ، أُمَّةٌ طائعة يَهْدُونَ الناس بكلمة الحق ، أو متلبسين بِالْحَقِّ وهم الذين ثبتوا حين افتتن الناس بعبادة العجل ، والأحبار الذين تمسكوا بالتوراة من غير تحريف ، أو الذين آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَبِهِ أي : بالحق يَعْدِلُونَ فى أحكامهم وقضاياهم.

قال البيضاوي : أتبع ذكرهم ذكر أضدادهم على ما هو عادة القرآن تنبيها على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. هـ.

الإشارة : فى كل أمة ، وفى كل عصر ، أمة صالحة ، يبصرون الناس بالحق ، ويدعون إلى اللّه ، فمنهم من يهدى إلى تزيين الظواهر بالشرائع ، وهم العلماء الأتقياء ، ومنهم من يهدى إلى تنوير السرائر بالحقائق ، وهم الصوفية الأولياء ، المحققون بمعرفة اللّه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أحوال بنى إسرائيل ، فقالوا :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٦٠]

وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧٢

قلت : أسباطا : بدل لا تمييز لأن تمييز العدد يكون مفردا ، والتمييز محذوف ، أي : فرقة أسباطا. وقال الزمخشري : يصح تمييزا لأن كل قبيلة أسباط لاسبط. هـ. فكأنه قال : وقطعناهم اثنتي عشرة سبطا سبطا. والسبط فى بنى إسرائيل كالقبيلة عند العرب ، و(أمما) : بدل بعد بدل على الأول ، وعلى الثاني بدل من أسباط.

يقول الحق جل جلاله : وَقَطَّعْناهُمُ أي : بنى إسرائيل ، أي : فرقناهم اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً اثنى عشر سبطا ، أُمَماً متميزة ، كل سبط أمة مستقلة ، وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ فى التيه ، أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ انفجرت ، إلا أن الانبجاس أخف من الانفجار ، أي : فضرب فانبجست ، وحذفه للإيماء إلى أن موسى لم يتوقف فى الامتثال ، وأن ضربه لم يكن مؤثرا يتوقف عليه الفعل من ذاته ، بل سبب عادى وحكمة جارية ، والفعل إنما هو بالقدرة الإلهية ، أي : نبعت مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ كل سبط مَشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ لتقيهم من حر الشمس ، وَأَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى ، وقلنا لهم : كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ سبق فى سورة البقرة ، وكذلك الإشارة «١».

ثم قال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٦١ الى ١٦٢]

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكروا إِذْ قِيلَ لبنى إسرائيل : اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ بيت المقدس ، وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ ، وَقُولُوا : أمرنا حِطَّةٌ ، وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً سجود انحناء ، نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ التي سلفت ، سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ وعد بالغفران والزيادة عليه ، وإنما أخرج الثاني مخرج الاستئناف ، يعنى : سنزيد ، ولم يقل : وسنزيد للدلالة على أنه تفضل محض ، ليس فى مقابلة ما أمروا به ، فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ قالوا : حبة فى شعرة ، مكان حطة ، لأنهم حملوا الحطة على الحنطة. فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ قد مر تفسيره ، وإشارته ، فى سورة البقرة «٢».

---

(١) راجع تفسير الآية ٦٠ من سورة البقرة.

(٢) راجع تفسير الآية ٥٨ من سورة البقرة. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧٣

تنبيه : وقع اختلاف كثير فى اللفظ بين هذا الموضع من هذه السورة وبين سورة البقرة ، فى فَانْفَجَرَتْ وفَانْبَجَسَتْ ، وقوله : وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا ووَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا ، وقوله هنا : وَكُلُوا ، وهناك فَكُلُوا. فقال الزمخشري : لا بأس باختلاف العبارتين ، إذا لم يكن هناك تناقض. ووجّه بعضهم الفرق بأن ما فى هذه السورة سيق فى محل الغضب والعقاب على عبادة العجل ، وما فى سورة البقرة سيق فى محل الامتنان ، فلذلك عبّر هنا بانبحست لأنه أقل من انفجرت ، وعبّر هنا بقيل مبنيا للمجهول تحقيرا لهم أن يذكر نفسه لهم ، وعبّر هنا بالسكنى لأنه أشق من الدخول ويستلزمه ، وعبّر هنا بالواو لأن السكنى تجامع الأكل ، بخلاف الدخول ، فإن الأكل مسبب عنه ، فعبّر بالفاء ، وزاد فى البقرة الواو فى : سَنَزِيدُ ، كأنه نعمة أخرى ، بخلاف هذا ، وزاد هنا مِنْهُمْ لتقدم ذكرهم فى قوله : وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ، وعبّر هنا بالظلم لأنه أعم من الفسق وغيره. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتداءهم فى السبت وما ترتب عليه ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٦٣ الى ١٦٦]

وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (١٦٦)

قلت : (إذ يعدون) : بدل من (القرية) ، بدل اشتمال ، أو منصوب بكانت ، أو بحاضرة ، و(إذ تأتيهم) : منصوب بيعدون ، و(سبتهم) : مصدر مضاف للفاعل ، يقال : سبت اليهود سبتا : إذا عظم يوم السبت وقطع شغله فيه ، و(شرعا) : حال ، ومعناه : ظاهرة قريبة منهم ، يقال : شرع منه فلان إذا دنا منه.

يقول الحق جل جلاله : وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ أي : اليهود ، سؤال تقرير وتوبيخ على تقديم عصيانهم وعما هو من معلومهم ، الذي لا يعلم إلا بتعليم أو وحي ، وقد تحققوا أنك أمي ، فيكون ذلك معجزة وحجة عليهم ، عَنِ الْقَرْيَةِ أي : عن خبرها وما وقع لها ، الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ قريبة منه ، وهى «إيلة» ، قرية بين مدين والطور ، على شاطىء البحر ، وقيل : مدين ، وقيل : طبرية ، إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ : يتجاوزون حدود اللّه

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧٤

بالاصطياد فى يوم السبت ، وكان حراما عليهم لاشتغالهم عنه بالعبادة ، إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً : ظاهرة على وجه الماء ، دانية منهم ، وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ بل تغوص كلها فى البحر ، كَذلِكَ أي : مثل هذا البلاء الشديد نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ أي : بسبب فسقهم. وقيل : «كذلك» : متصل بما قبله ، أي : لا تأتيهم مثل ذلك الإتيان الذي تأتيه يوم السبت.

ثم افترقت بنو إسرائيل ثلاث فرق : فرقة عصت بالصيد يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلت القوم ، وفرقة سكتت واعتزلت فلم تنه ولم تعص. وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ ، وهى التي لم تنه ولم تعص ، لمّا رأت مهاجرة الناهية وطغيان العاصية : لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ بالموت بصاعقة ، أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فى الآخرة؟ قالُوا : نهينا لهم مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ أي : عذرا إلى اللّه تعالى ، حتى لا تنسب إلى تفريط فى النهى عن المنكر ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فينزجرون عن العصيان ، إذ اليأس منهم لا يحصل إلا بالهلاك.

فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أي : تركوا ما وعظوا به ترك الناسي ، أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بالاعتياد ومخالفة أمر اللّه ، بِعَذابٍ بَئِيسٍ : شديد ، من بؤس يبؤس بؤسا ، وقرىء (بيئس) على وزن ضيغم ، و«بئس» بالكسر والسكون ، كحذر ، وبيس بتخفيف الهمزة ، ومعناها واحد ، أي : بما عاقبناهم بالمسخ ، بِما كانُوا يَفْسُقُونَ أي : بسبب فسقهم.

قال ابن عباس : لا أدرى ما فعل بالفرقة الساكتة؟ وقال عكرمة : لم تهلك لأنها كرهت ما فعلوه. ورجع إليه ابن عباس وأعجبه ، لأن كراهيتها تغيير المنكر فى الجملة ، مع قيام الفرقة الناهية به لأنه فرض كفاية. قال تعالى :

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ تكبرا عن ترك ما نهوا عنه ، قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ أذلاء صاغرين.

قال البيضاوي : قُلْنا لَهُمْ كُونُوا ، هو كقوله : إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «١» ، والظاهر يقتضى أن اللّه تعالى عذّبهم أولا بعذاب شديد ، فعتوا بعد ذلك ، فمسخهم قردة وخنازير ، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريرا وتفصيلا للأولى.

روى أن الناهين لما أيسوا عن اتعاظ المعتدين ، كرهوا مساكنتهم ، فقسموا القرية بجدار فيه باب مطروق ، فأصبحوا يوما ولم يخرج إليهم أحد من المعتدين ، فقالوا : إن لهم شأنا ، فدخلوا عليهم فإذا هم قردة ، فلم يعرفوا أنسباءهم ، ولكن القردة تعرفهم ، فجعلت تأتى أنسباءهم وتشم ثيابهم ، وتدور باكية حولهم ، ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام. هـ.

الإشارة : المسخ على ثلاثة أقسام : مسخ الأشباح ، ومسخ القلوب ، ومسخ الأرواح ، فمسخ الأشباح

هو الذي وقع لبنى إسرائيل ، قيل : إنه مرفوع عن هذه الأمة ، والصحيح : أنه يقع فى آخر الزمان ، ومسخ القلوب يكون بالانهماك

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النحل.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧٥

فى الذنوب ، والإصرار على المعاصي ، وعلامته : الفرح بتيسير العصيان ، وعدم التأسف على ما فاته من الطاعة والإحسان ، ومسخ الأرواح : الانهماك فى الشهوات ، والوقوف مع ظواهر الحسيات ، أو تكثيف الحجاب ، والوقوف مع العوائد والأسباب ، دون مشاهدة رب الأرباب. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر عقوبة بنى إسرائيل فى الدنيا ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٦٧]

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)

قلت : تأذن : أعلم ، وهى تفعل ، وهى من الإيذان بمعنى الإعلام ، كتوعّد وأوعد ، أو : عزم ، لأن العازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله ، وأجرى مجرى القسم كعلم اللّه وشهد اللّه ، ولذلك أجيب باللام القسمية.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكروا إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ أي : أعلم وأظهر ذلك فى عالم الشهادة ، لَيَبْعَثَنَّ على بنى إسرائيل ، أي : ليسلطن عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ كالإذلال وضرب الجزية ، وقد بعث اللّه عليهم بعد سليمان عليه السّلام بختنصر ، فخرب ديارهم ، وقتل مقاتلتهم ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وضرب الجزية على من بقي منهم ، وكانوا يؤدونها إلى المجوس ، حتى بعث اللّه نبينا محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم ففعل بهم ما فعل ، فى بنى قريظة والنضير وخيبر ، ثم ضرب اللّه عليهم الجزية إلى آخر الدهر ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ فعاقبهم فى الدنيا ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لمن تاب وآمن ، وإنما أكد هنا الخبر باللام دون ما فى آخر الأنعام «١» ، لأن ما هنا فى اليهود ، وما فى آخر الأنعام فى المؤمنين ، فأكد ما هنا باللام ، فقال : لَسَرِيعُ الْعِقابِ زيادة فى توبيخهم ونكالهم.

الإشارة : مواطن الذل والهوان هو الانهماك فى المخالفة والعدوان ، وقد ينسحب ذلك فى الذرية إلى آخر الزمان ، فإن اللّه تعالى يقول : أنا الملك الودود ، أعاقب الأحفاد بمعاصي الجدود ، ومواطن العز والحرمة والأمان : هو الطاعة والتعظيم والإحسان ، ينسحب ذلك على الأحفاد ، إلى منتهى الزمان ،

فإن اللّه تعالى يحفظ الأولاد ببركة الأجداد. وقد تذاكر بعض التابعين ما يكون فى آخر الزمان من الفتن والفساد ، فقال بعضهم : يا ليتنى كنت عقيما أو لم أتزوج ، فقال له من هو أكبر منه : ألا أدلك على ما يحفظ اللّه به عقبك؟ قال : نعم ، دلنى ، قال : قوله تعالى :

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً ... الآية «٢». وباللّه التوفيق.

---

(١) فى قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ الآية الأخيرة من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٩ من سورة النساء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧٦

ثم قال تعالى فى شأن اليهود :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٦٨ الى ١٧٠]

وَقَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)

قلت : (أمما) : مفعول ثان لقطّعنا ، أو حال ، وجملة (منهم الصالحون) : صفة ، وجملة (يأخذون) : حال من فاعل (ورثوا) ، و(يقولون) عطف على (يأخذون) ، أو حال ، والفعل من (سيغفر) : مسند إلى الجار والمجرور ، أو إلى مصدر (يأخذون) ، و(أن لا يقولوا) : عطف بيلن من (ميثاق الكتاب) ، أو تفسير له ، أو متعلق به ، أي : لأن لا يقولوا ، و(درسوا) : عطف على (ألم يؤخذ) من حيث المعنى ، أي : ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ولم يدرسوا ما فيه ، أو حال ، أي : وقد درسوا ، و(الذين يمسكون) : مبتدأ ، وجملة : (إنا لا نضيع أجر المصلحين) : خبر ، والرابط :

ما فى المصلحين من العموم ، فوضع موضع الضمير تنبيها على أن الإصلاح كالمانع من التضييع ، أو حذف العائد ، أي : منهم ، ويحتمل أن يكوت عطفا على (الذين يتقون) أي : خير للمتقين والذين يتمسكون بالكتاب.

يقول الحق جل جلاله : وَقَطَّعْناهُمْ أي : فرقناهم فِي الْأَرْضِ أُمَماً : فرقا ، ففى كل بلد من البلدان فرقة منهم ، فليس لهم إقليم يملكونه ، تتمة لإذلالهم ، حتى لا تكون لهم شوكة قط ، مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وهو

من تمسك بدين التوراة ، ولم يحرف ، ولم يفرق ، أو من آمن منهم بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم فى زمانه وبعده ، وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ أي : ومنهم ناس دون ذلك ، أي : منحطون عن الصلاح ، وهم كفرتهم وفسقتهم ، وَبَلَوْناهُمْ أي :

اختبرناهم بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ أي : بالنعم والنقم ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ينتبهون فينزجرون عمّا هم عليه. فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أي : فخلف ، من بعد الأولين ، خلف ، أي : بدل سوء ، وهو مصدر نعت به ، فالخلف ، بالسكون ، شائع فى الشر ، يقال : جعل اللّه منك خلفا صالحا. والمراد بالخلف فى الآية : اليهود الذين أدركوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَرِثُوا الْكِتابَ التوراة ، من أسلافهم ، يقرؤونها ويقفون على ما فيها ، يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى حطام هذا الشيء الحقير ، من الدنو ، أو من الدناءة ، وهو ما كانوا يأخذون من الرشا فى الأحكام ، وعلى تحريف الكلام. وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا لا يؤاخذنا اللّه بذلك ويتجاوز عنه ، اغترارا وحمقا.

(٢٧٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧٧

وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أي : يرجون المغفرة ، والحال أنهم مصرون على الذنب ، عائدون إلى مثله ، غير تائبين منه ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أي : فى الكتاب ، وهو التوراة ، أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، وهو تكذيب لهم فى قولهم : سَيُغْفَرُ لَنا ، والمراد : توبيخهم على القطع بالمغفرة مع عدم التوبة ، والدلالة على أنه افتراء على اللّه ، وخروج عن ميثاق الكتاب ، وَدَرَسُوا ما فِيهِ أي : وقد درسوا ما فيه ، وعلموا ما أخذ عليهم فيه من المواثيق ، ثم تجرأوا على اللّه ، وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ مما يأخذ هؤلاء من العرض الفاني. أَفَلا يَعْقِلُونَ «١» فيعلموا ذلك ، ولا يستبدلوا الأدنى الحقير المؤدى إلى العقاب بالنعيم الكبير المخلد فى دار الثواب ، ومن قرأ بالخطاب فهو لهم ، من باب التلوين فى الكلام.

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ أي : يتمسكون بالتوراة ، وَأَقامُوا الصَّلاةَ المفروضة عليهم ، إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ منهم. وهذا فيمن مات قبل ظهور الإسلام ، أو : والذين يمسكون بالقرآن ، وَأَقامُوا الصَّلاةَ مع المسلمين ، إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ.

الإشارة : تفريق النسب فى البلدان ، إن كان فى الذل والهوان ، فهو من شؤم المخالفة والعصيان ، وإن كان مع العز وحفظ الحرمة ، فقد يكون لقصد الخير والبركة ، أراد اللّه أن ينمى تلك البلاد ، بنقل ذلك إليها ، كأولاد الصالحين والعلماء وأهل البيت. ويؤخذ من قوله : وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ، أن العبد مأمور بالرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء ، فى السراء بالحمد والشكر ،

وفى الضراء بالتسليم والصبر.

ويؤخذ من مفهوم قوله : وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أن من عقد التوبة وحل عقدة الإصرار غفر له ما مضى من الأوزار. وفى قوله : أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ ... الآية ، تحذير لعلماء السوء. وقوله : وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ ... الآية ، أي : والذين يمسكون بظاهر الكتاب وأقاموا صلاة الجوارح ، إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ مع عامة أهل اليمين ، والذين يمسكون بباطن الكتاب وأقاموا صلاة القلوب – التي هى العكوف فى الحضرة – حضرة الغيوب – إنا لا نضيع أجر المصلحين لقلوبهم ، وهو شهود رب العالمين مع المقربين ، فى حضرة الأنبياء والمرسلين ، جعلنا اللّه منهم وفى حزبهم ، آمين.

ولمّا ذكر من تمسك بالكتاب طوعا ، ذكر من تمسك به كرها من أسلاف اليهود ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٧١]

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب «تعقلون» بالخطاب ، وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٢/ ٦٨).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧٨

قلت : جملة (خذوا) : محكية ، أي : وقولنا لهم : خذوا.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ نَتَقْنَا أي : قلعنا ورفعنا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ أي : فوق بنى إسرائيل ، كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ أي : سقيفة ، والظلة : كل ما أظلك ، وَظَنُّوا أي : تيقنوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ أي : ساقط عليهم بسبب عصيانهم لأن الجبل لا يثبت فى الجو لأنهم كانوا يوعدون به ، وإنما عبّر بالظن لأنه لم يقع بالفعل حين الظن ، وسبب نتق الجبل أنهم امتنعوا من أحكام التوراة ، فلم يقبلوها لثقلها ، فرفع اللّه الطور فوقهم ، وقيل لهم :

إن قبلتم ما فيها وإلّا ليقعن عليكم ، فقلنا لهم حين الرفع : خُذُوا ما آتَيْناكُمْ من الأحكام بِقُوَّةٍ ، وَاذْكُرُوا ما فِيهِ بالعمل به ، ولا تتركوه كالمنسى ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

الإشارة : من لم ينقد إلى اللّه بملاطفة الإحسان ، قيد إليه بسلاسل الامتحان ، عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل.

ولما ذكر الميثاق الخاص ، ذكر الميثاق العام ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

قلت : (من ظهورهم) : بدل من (بنى آدم) ، أي : من ظهور بنى آدم ، و(ذريتهم) : مفعول به ، و(بلى) : حرف جواب ، يجاب بها عن الهمزة إذا دخلت على منفى ، فخرجت عن الاستفهام إلى التقرير ، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما بعد النفي ، نحو : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ «١» ، فيجاب ببلى ، أي : شرحت ، وكذا نظائرها ، ومنه :

(أ لست بربكم ..) الآية.

وقد يجاب بها الاستفهام المجرد عن النفي ، كما فى الحديث : «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قالوا :

بلى» «٢». ولكنه قليل ، فلا يقاس عليه ، بل يوقف على ما سمع ، والكثير : أنها جواب للنفى ، ومعناها : إثبات ما نفى ، ورفع النفي ، لا إثباته وتقريره ، بخلاف «نعم» فإنها تقرر ما قبلها من إثبات أو نفى ، ولذا قال ابن عباس : (و لو قالوا : نعم ، لكفروا) ، وقد تقدم الفرق بينهما فى سورة البقرة ، «٣» ثم الكثير : مراعاة صورة النفي ، فيجاب ببلى ، وقد

---

(١) الآية الأولى من سورة الشرح.

(٢) أخرجه مسلم فى (الإيمان – باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة) من حديث عبد اللّه بن مسعود – رضى اللّه عنه.

(٣) راجع تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة.

ينظر للمعنى وما يفيده الاستفهام الإنكارى من نفيه للنفى ، فيصير الكلام إيجابا ، فيصح الجواب بنعم فى الجملة ، لكن لمّا كان محتملا امتنع فى الآية. انظر المغني. وقوله : (أن تقولوا) : مفعول من أجله. يقول الحق جل جلاله : وَاذكروا إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ من ظهور بنى آدم ذُرِّيَّتَهُمْ وذلك أن اللّه تعالى لمّا خلق آدم ، وأهبطه إلى الأرض ، أخرج من صلبه نسيم بنيه ، بعضهم من صلب بعض

، على نحو ما يتوالدون ، قرنا بعد قرن كالذر ، وكان آدم بنعمان ، وهو جبل يواجه عرفة ، وقال لهم حين أخرجهم : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ فأقروا كلهم ، وقالُوا بَلى أنت ربنا ، شَهِدْنا بذلك على أنفسنا ، لأن الأرواح حينئذ كانت كلها على الفطرة ، علّامة درّاكة ، فلما ركبت فى هذا القالب نسيت الشهادة ، فبعث اللّه الأنبياء والرسل يذكّرون الناس ذلك العهد ، فمن أقرّ به نجا ، ومن أنكره هلك ، ويحتمل أن يكون ذلك من باب التمثيل ، وأن أخذ الذرية من الظهر عبارة عن إيجادهم فى الدنيا ، وأما إشهادهم فمعناه : أن اللّه نصب لبنى آدم الأدلة على ربوبيته ، وشهدت بها عقولهم ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم ، وقال : (أ لست بريكم)؟ وكأنهم قالوا بلسان الحال : أنت ربنا.

والأول هو الصحيح لتواتر الأخبار به ، فقوله : (شهدنا) : هو من تمام الجواب ، فهو تحقيق لربوبيته وأداء لشهادتهم بذلك ، فينبغى أن يوقف عليه ، وقيل : إنّ (شهدنا) : من قول اللّه أو الملائكة ، فيوقف على (بلى) ، لكنه ضعيف.

ثم ذكر حكمة هذا الأخذ ، فقال : أَوْ تَقُولُوا أي : فعلنا ذلك كراهة أن تقولوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ ، أو كراهية أن تقولوا : إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ فاقتدينا بهم ، أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ، يعنى : آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك ، ولا بد من حذف كلام هنا لتتم الحجة ، والتقدير : أخذنا ذلك العهد فى عالم الأرواح ، وبعثنا الرسل يجددونه في عالم الأشباح ، كراهة أن تقولوا : إنا كنا عن هذا غافلين ، ويدل على هذا قوله تعالى : وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ... الآية «١». وقوله : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ «٢» ، ولا يكفى مجرد الإشهاد الروحاني فى قيام الحجة لأن ذلك العهد نسيته الأرواح حين دخلت فى عالم الأشباح ، فلا تهتدى إليه إلا بدليل يذكرها ذلك.

قال البيضاوي : والمقصود من إيراد هذا الكلام هاهنا : إلزام اليهود مقتضى الميثاق العام ، بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم ، والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية ، ومنعهم من التقليد ، وحملهم على النظر والاستدلال ، كما قال تعالى : وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ الدالة على وحدانيتنا سمعا وعقلا ، وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عن التقليد واتباع الباطل.

---

(١) الآية ١٥ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨٠

الإشارة : أخذ الحق جل جلاله العهد على الأرواح أن تعرفه وتوحده مرتين ، أحدهما : قبل ظهور الكائنات ، والثاني : بعد ظهورها. والأول أخذه عليها في معرفة الربوبية ، والثاني تجديدا له مع القيام بآداب العبودية. قال بعضهم : أخذ الأول على الأرواح يوم المقادير ، وذلك قبل السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، ثم أخذ الثاني على النفوس بعد ظهورها فى عالم الأشباح ، كما نبهت عليه الآية والأحاديث.

وقال ابن الفارض فى تائيته :

وسابق عهد لم يحل مذ عهدته ولا حق عقد جلّ عن حلّ فترة

قال القاشاني : أراد بالعهد السابق : ما أخذه اللّه على الأرواح الإنسانية المستخرجة من صلب الروح الأعظم ، الذي هو آدم الكبير ، فى صور المثل ، قبل تعلقها بالأشباح ، وهو عقد المحبة بين الرب والمربوب ، فى قوله سبحانه :

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ... الآية. وبالعهد اللاحق : ما أخذه عليهم بواسطة الأنبياء ، من عقد الإسلام بعد التعلق بالأبدان ، وهو توكيد للعهد الأول ، وتوثيقه بالتزام أحكام الربوبية والتزامها. هـ. وقال فى الحاشية : كلام ابن الفارض ينظر إلى العهد الأول ، الروحاني ، وكلام غيره ينظر إلى الثاني النفساني ، وهو ظاهر الآية. هـ. قلت : وفيه نظر ، فإن كلام ابن الفارض مشتمل على العهدين معا ، الروحاني فى الشطر الأولى ، والنفساني فى الشطر الثاني.

والحاصل مما تقدم : أن العهد أخذ على الأرواح ثلاث مرات ، أحدها : حين استخرجت من صلب الروح الأعظم الذي هو آدم الكبير ، وهو معنى القبضة النورانية ، التي أخذت من عالم الجبروت.

والثاني : حين استخرجت من صلب آدم الأصغر ، كالذر ، والثالث : حيث دخلت فى عالم الأشباح ، على ألسنة الرسل ، ومن ناب عنهم ، فالمذكور فى الآية هو الثاني ، وهو أحسن من حمل القاشاني الآية على الأول.

فالحاصل : أن الأخذ الأول كان على الأرواح مجردة عن مادة التطوير والتمثيل ، بإقرارها إقرار النفوس ، لا إقرار الألسنة ، والأخذ الثاني كان على الأرواح بعد خروجها من الوجود العلمي إلى الوجود العيني ، فتطورت الأرواح بصفاتها الذاتية ، من سمع وبصر ولسان وغيرها ، فى عالم المثال ، بصور مثالية لتبصر بها ظهور الرب ، وتسمع خطابه ، وتجيب سؤاله ، بإقرارها حينئذ إقرار الألسنة ، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية. وأما العهد الذي أخذه بواسطة الأنبياء في ظهور عالم الأشباح فإنما هو تذكير للعهدين ، وتجديد لهما ، وهو الذي تقوم به الحجة عليها ، فلا بد من انضمامه إلى الأوّلين فى قيام الحجة ، كما تقدم.

فالموجودات ثلاث : علمى ، ثم خيالى مثالى ، ثم نوعى حسى. فأخذ على كل واحد عهد من الأولين بلا واسطة ، والثالث بواسطة الرسل. واللّه تعالى أعلم.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨١

ثم ذكر وبال من نقض هذا العهد ، مع تمكنه من العلم به ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٧٥ الى ١٧٨]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٧٨)

قلت : أتبعه الشيطان : أدركه ، يقال : أتبع القوم : لحقهم ، ومنه : فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ «١» أي : لحق بني إسرائيل. قاله فى الأساس.

يقول الحق جل جلاله : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ على اليهود نَبَأَ أي : خبر الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا علمّا بكتابنا ، فَانْسَلَخَ مِنْها بأن كفر بها ، وأعرض ، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فأدركه فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ. قال عبد اللّه بن مسعود : هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السّلام إلى ملك مدين ، داعيا إلى اللّه ، فرشاه الملك ، وأعطاه الملك على أن يترك دين موسى ، ويتابع الملك على دينه ، ففعل وأضل الناس على ذلك.

وقال ابن عباس : هو رجل من الكنعانيين ، اسمه : «بلعم» ، كان عنده الاسم الأعظم ، فلما أراد موسى قتل الكنعانيين ، وهم الجبارون ، سألوه أن يدعو على موسى باسم اللّه الأعظم ، فأبى ، فألحوا عليه حتى دعا ألا يدخل المدينة ، ودعا موسى عليه. فالآيات التي أعطيها ، على هذا : اسم اللّه الأعظم ، وعلى قول ابن مسعود : هو ما علمه موسى من الشريعة. قيل : كان عنده من صحف إبراهيم.

وقال عبد اللّه بن عمرو بن العاص : هو أمية بن أبى الصلت الثقفي «٢» ، وكان قد أوتى علما وحكمة ، وأراد أن يسلم قبل غزوة بدر ، ثم رجع عن ذلك ومات كافرا ، وكان قد قرأ الكتب ، وخالط الرهبان ، وسمع منهم أن اللّه تعالى مرسل رسولا في ذلك الزمان ، فرجا أن يكون هو ، فلما بعث اللّه محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم حسده ، وقال : ما كنت لأؤمن لرسول ليس من ثقيف.

---

(١) من الآية ٩٠ من سورة يونس.

(٢) أخرجه النسائي فى السنن الكبرى (التفسير – ٦/ ٣٤٨) والطبري فى تفسيره (٩/ ١٢٠) ، قال أبو حيان فى البحر : والأولى فى مثل هذا – إذا ورد عن المفسرين – أن تحمل أقاويلهم على التمثيل ، لا على الحصر فى معين ، فإنه يؤدى إلى الاضطراب والتناقض

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨٢

قال تعالى : وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ إلى منازل الأبرار بِها أي : بسبب تلك الآيات وملازمتها ، وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ أي : مال إلى الدنيا وحطامها ، أي : أخلد إلى أرض الشهوات ، وَاتَّبَعَ هَواهُ فى إيثار الدنيا واسترضاء قومه ، أو صيانة رئاسته وجاهه. قال البيضاوي : وكان من حقه أن يقول : ولكنه أعرض عنها ، فأوقع موقعه : أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ مبالغة وتنبيها على ما حمله عليه ، وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. هـ.

فَمَثَلُهُ أي : فصفته التي هى مثل فى الخسة ، كَمَثَلِ الْكَلْبِ أي : كصفته فى أخس أحواله ، وهو إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ أي : يلهث دائما ، سواء حمل عليه بالزجر والطرد ، أو ترك ولم يتعرض له ، بخلاف سائر الحيوانات لضعف فؤاده ، واللهث : إدلا ع اللسان من التنفس الشديد ، والمراد : لازم اللهث ، وهو نفى الرفع ووضع المنزلة.

قال ابن جزي : اللهث : هو تنفس بسرعة ، وتحريك أعضاء الفم ، وخروج اللسان ، وأكثر ما يعتري ذلك الحيوانات عند الحر والتعب ، وهى حالة دائمة للكلب ، ومعنى «إن تحمل عليه» : أن تفعل معه ما يشق عليه ، من طرد أو غيره ، أو تتركه دون أن تحمل عليه ، فهو يلهث على كل حال. ووجه تشبيه ذلك الرجل به أنه إن وعظته فهو ضال ، وإن لم تعظه فهو ضال ، فضلالته على كل حال. هـ. وقال الواحدي : وذلك أنه زجر فى المنام عن الدعاء على موسى ، فلم ينزجر ، وترك عن الزجر ، فلم يهتد. هـ. وقيل : إن ذلك الرجل خرج لسانه على صدره ، فصار مثل الكلب ، وصورته ولهثه حقيقة. هـ. وفعل به ذلك حين دعا على موسى عليه السّلام. وفى ابن عطية : ذكر «المعتمد» أن موسى قتله.

قال تعالى : ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صفتهم كصفة الكلب في لهثه وخسته ، أو كصفة الرجل المشبه به ، لأنهم إن أنذروا لم يهتدوا ، وإن تركوا لم يهتدوا. أو شبههم بالرجل فى أنهم رأوا الآيات فلم تنفعهم ، كما أن الرجل لم ينفعه ما عنده من الآيات. وقال الواحدي : يعني : أهل مكة كانوا متمنين هاديا يهديهم ، فلما جاءهم من لا يشكّون فى صدقه كذبوه ، فلم يهتدوا لمّا تركوا ، ولم يهتدوا أيضا لما دعوا بالرسول ، فكانوا ضالين عن الرسول فى الحالتين. هـ.

فَاقْصُصِ الْقَصَصَ المذكور على اليهود ، فإنها نحو قصصهم ، لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ تفكرا يؤدى إلى الاتعاظ ، فيؤمنوا به ، فإنّ هذه القصص لا توجد عند من لم يقرأ إلا بوحي ، فيتيقنوا نبوتك. ساءَ أي : قبح مَثَلًا مثل الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا حيث شبهوا بالكلاب اللاهثة ، وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ بتعريضها للهلاك.

قال البيضاوي : إما أن يكون داخلا فى الصلة ، معطوفا على الَّذِينَ كَذَّبُوا ، بمعنى : الذين

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨٣

جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم ، أو منقطعا عنها ، بمعنى : وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم ، فإن وباله لا يتخطاها ولذلك قدّم المفعول. هـ.

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ ، هو تصريح بأن الهدى والضلال بيد اللّه تعالى ، وأنّ هداية اللّه يخص بها بعضا دون بعض ، وأنها مستلزمة للاهتداء ، والإفراد فى الأول والجمع فى الثاني لاعتبار اللفظ والمعنى ، تنبيها على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم ، بخلاف الضالين. والاقتصار فى الإخبار عمّن هداه اللّه بالمهتدي : تعظيم لشأن الاهتداء ، وتنبيه على أنه ، في نفسه ، كمال جسيم ، ونفع عظيم ، لو لم يحصل له غيره لكفاه ، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها. قاله البيضاوي.

الإشارة : فى الحديث : «أشدّ النّاس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه» «١». والعلم النافع هو الذي تصحبه الخشية والمراقبة والتعظيم والإجلال ، ويوجب لصاحبه الزهد والسخاء والتواضع والانكسار ، وهو علم التوحيد الخاص ، الذي هو مشاهدة الحق. وقال الورتجبي فى قوله : آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها : ذكر أنه تعالى أعطاه آياته ، ولو أعطاه قرب مشاهدته ما انسلخ منه ، لأن من رآه أحبه ، ومن أحبه استأنس به واستوحش مما سواه ، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجا بوجدان آياته ، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه ، واشتغاله بهواه وعداوة كليمه بقوله : فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ ، ولو ذاق طعم حبه لم يلتفت إلى غيره ، مكر به فى الأزل ، فكان مكره مستداما إلى الأبد ، فالكرامات الظاهرة عارضة للامتحان بين الأزل والأبد ، وعند الأصل القديم لا يعتبر العرض الطارئ. هـ.

وقال فى الإحياء : إن بلعم أوتى كتاب اللّه تعالى فأخلد إلى الشهوات ، فشبه بالكلب ، أي : سواء أوتى الحكمة أو لم يؤتها فهو يلهث إلى الشهوات. هـ. وفى ذكر قصته تحذير لعلماء هذه الأمة وصلحائها. وقال الشيخ أبو الحسن رضى اللّه عنه : من أخلدت نفسه إلى أرض الشهوات ، وغلبته عن النهوض إلى الطاعات ، فدواؤه فى حرفين ، أحدهما : أن يذكر منّة اللّه عليه بنعمة الإيمان والإسلام ، ويقيد هذه النعمة بالشكر ، لئلا تفلت من يده ، والثاني : أن يتوجه إلى اللّه بالتضرع والاضطرار ، آناء الليل والنهار ، وفى رمضان راجيا الإجابة ، قائلا : اللهم سلّم سلّم. فإن أهمل هاتين الخصلتين فالشقاوة لازمة له. هـ. بالمعنى لطول العهد به. وباللّه التوفيق.

(١) أخرجه البيهقي فى الشعب (باب فى نشر العلم – ح ١٧٧٨) وزاد السيوطي فى الجامع الصغير (ح ١٠٥) عزوه لابن عدى فى الكامل والطبراني فى الصغير عن أبى هريرة ، وضعّفه.

(٢٨٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨٤

ثم ذكر علامة أهل الضلالة والخسران ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٧٩]

وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (١٧٩)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ ذَرَأْنا خلقنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ كتبنا عليهم الشقاء فى سابق الأزل ، فهم من قبضة أهل النار ، كما قال : «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى» «١».

ثم ذكر علامتهم فقال : لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها المواعظ والتذكير للأكنة التي جعلت عليها ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها دلائل وحدانيتنا وكمال قدرتنا ، فلا ينظرون بها نظر اعتبار ، وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها الآيات والمواعظ ، سماع تأمل وتدبر ، أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ فى عدم التفقه والاستبصار ، أو فى أن هممهم ومشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش ، مقصورة عليها ، فهممهم فى بطونهم وفروجهم ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ من الأنعام ، لأنها تطلب منافعها وتهرب من مضارها ، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة ، وأيضا : الأنعام رفع عنها التكليف فلا تعذب ، بخلاف الكافر ، وأيضا : البهائم تقبل الرياضة والتأديب لما يراد بها ، والكافر عاص على الدوام ، أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ الكاملون فى الغفلة المنهمكون فيها.

الإشارة : النار على قسمين : حسية ومعنوية ، كما أن الجنة كذلك ، فالنار الحسية لتعذيب الأشباح ، والنار المعنوية لتعذيب الأرواح ، والجنة الحسية لنعيم الأشباح ، والمعنوية لنعيم الأرواح. النار الحسية معلومة. والنار المعنوية هى نار القطيعة وغم الحجاب ، وأهلها هم أهل الغفلة ، وهم كثير من الجن والإنس ، ليس لهم قلوب تجول فى معاني التوحيد ، وليس لهم أعين تنظر بعين الاعتبار ، وليس لهم آذان تسمع المواعظ والتذكار ، إن هم إلا كالأنعام ، غير أن اللّه تعالى تفضل عليهم برسم الإسلام. والجنة الحسية هى جنة الزخارف ، والجنة المعنوية هى جنة المعارف ، وأعدها اللّه لقلوب تجول فى الأنوار والأسرار ، ولأعين تنظر بعين الاعتبار والاستبصار ، حتى تشاهد أنوار الواحد القهار ، ولآذان تسمع المواعظ والتذكار ، وتعي ما تسمع من الحكم والأسرار ، وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرج أحمد في المسند (٥/ ٢٣٩) عن معاذ بن جبل : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم تلا هذه الآية : أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، فقبض بيديه قبضتين فقال : «هذه فى الجنة ولا أبالى وهذه فى النار ولا أبالى».

(٢٨٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨٥

ثم عرّف بذاته بتعريف أسمائه ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٨٠]

وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)

يقول الحق جل جلاله : وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى تسعة وتسعين ، فَادْعُوهُ بِها أي : سموه بها. قال ابن جزى : أي : سموه بأسمائه ، وهذا إباحة لإطلاق الأسماء على اللّه سبحانه ، فأما ما ورد منها فى القرآن والحديث فيجوز إطلاقه على اللّه إجماعا ، وأما ما لم يرد ، وفيه مدح ولا تتعلق به شبهة ، فأجاز أبو بكر بن الطيب إطلاقه على اللّه ، ومنع ذلك أبو الحسن الأشعري وغيره ، ورأوا أن أسماء اللّه تعالى موقوفة على ما ورد فى القرآن والحديث. وقد ورد فى حديث الترمذي عدتها «١» ، أعني : تعيين التسعة والتسعين.

واختلف أهل الحديث : هل هى مرفوعة أو موقوفة على أبى هريرة؟ والذي فى الصحيح : «إنّ للّه تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنّة» «٢». وهل الإحصاء بالحفظ أو بالعلم أو بالتخلق أو بالتعلق أو بالتحقق؟ أقوال. قلت : كونها موقوفة بعيد جدا إذ ليس هذا مما يقال بالرأى.

وسبب نزول الآية : أن أبا جهل سمع بعض الصحابة يقرأ ، فيذكر اللّه مرة ، والرحمن أخرى ، فقال : يزعم محمد أن الإله واحد ، وها هو يعبد آلهة كثيرة ، فنزلت الآية مبيّنة أن تلك الأسماء الكثيرة هى لمسمى واحد ، و(الحسنى) :

مصدر وصف به ، أو تأنيث أحسن ، وحسن أسماء اللّه هي أنها صفة مدح وتعظيم وتحميد ، وقيل : الدعاء بها :

التوسل بكل واحد منها.

قال تعالى : وَذَرُوا أي : اتركوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ أي : يميلون فِي أَسْمائِهِ عن الكمال إما بتعطيلها ، أو إنكار شيء منها ، وإما بزيادة فيها ، مما يوهم نقصا أو فسادا.

قال القشيري : الإلحاد : هو الميل عن القصد ، وذلك على وجهين : بالزيادة والنقصان فأهل التمثيل زادوا فألحدوا ، وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا. هـ. قال البيضاوي : أي : اتركوا تسمية الزائغين فيها ،

الذين يسمونه بما لا توقيف فيه ، إذ ربما يوهم معنى فاسدا ، كقولهم : يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه ، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمى به نفسه ، كقولهم : ما نعرف إلا رحمان اليمامة ، أو : وذروهم وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام ، واشتقاقها منه كاللات من اللّه ، والعزى من العزيز ، فلا توافقوهم عليه ، أو أعرضوا عنهم ولا تحاوروهم. هـ.

---

(١) أخرج حديث الأسماء الحسنى الترمذي فى (الدعوات باب ٨٣) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه. [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (الدعوات – باب للّه مائة اسم غير واحد) ومسلم فى (الذكر والدعاء – باب فى أسماء اللّه تعالى وفضل من أحصاها). من حديث أبى هريرة – رضى اللّه عنه – مرفوعا.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨٦

قال ابن جزي : قيل : معنى (ذروا) : اتركوهم فلا تجادلوهم ولا تتعرضوا لهم ، فالآية ، على هذا ، منسوخة بالقتال ، وقيل : معنى (ذروا) للوعيد والتهديد ، كقوله : ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ «١» ، وهو الأظهر. هـ. قلت : وهو أليق بقوله بعده : سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ من الإلحاد وغيره.

الإشارة : قال القشيري بعد كلام : ويقال إن اللّه سبحانه وقف الخلق بأسمائه ، فهم يذكرونها قالة ، وتعزّز بذاته ، والعقول – وإن صفت – لا تهجم على حقائق الإشراف إذ الإدراك لا يجوز على الحق ، فالعقول عند بواده الحقائق متقنعة بنقاب الحيرة عن التعرض للإدراك ، وطلبه فى أحوال الرؤية. والحق سبحانه عزيز باستحقاق نعوت التعالي متفرّد. هـ.

قلت : وأسماء اللّه الحسنى كلها تتجلى فى مظاهر الإنسان ، وتتوارد عليه انفرادا واجتماعا ، وقد تجتمع فى واحد ، إذا كان عارفا ، كلها ، بحيث يتخلق بها ، غير أن تجلياتها تختلف عليه ، تارة ملكا قدوسا ، وتارة رحمانيا رحيما ، وهكذا. وقد تقدم بيان كيفية التعلق والتخلق والتحقق بها ، فى شرحنا : الفاتحة الكبير ، واللّه تعالى أعلم.

ولمّا ذكر فيما تقدم خواص قوم سيدنا موسى ، ذكر هنا خواص هذه الأمة المحمدية ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٨١]

وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)

يقول الحق جل جلاله : وَمِمَّنْ خَلَقْنا أي : ومن جملة ما خلقنا : أُمَّةٌ : طائفة يَهْدُونَ الناس بِالْحَقِّ ويحملونهم عليه ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ فى حكوماتهم وقضاياهم. روي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال :

«هذه الآية لكم ، وقد تقدم مثلها لقوم موسى» «٢».

قال البيضاوي : ذكر ذلك بعد ما بيّن أنه خلق للنار طائفة ضالين ، ملحدين عن الحق ، للدلالة على أنه خلق أيضا للجنة أمة هادين بالحق ، عادلين فى الأمر ، واستدل به على صحة الإجماع ، لأن المراد منه أن فى كل قرن طائفة بهذه الصفة لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا تزال من أمّتى طائفة على الحقّ ، إلى أن يأتى أمر اللّه» «٣» إذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن لذكره فائدة ، فإنه معلوم. هـ.

الإشارة : هذه الأمة التي خلقها اللّه لهداية خلقه ، وهى الطائفة التي لا تزال على الحق ، وهى مؤلفة من العلماء الأنقياء على اختلاف أصنافهم وعلومهم ، ومن الأولياء العارفين ، فالعلماء يهدون إلى التمسك بالشرائع وإتقانها ، والأولياء العارفون يهدون إلى التحقق بالحقائق وأذواقها ، فالعلماء داعون إلى أحكام اللّه ، والعارفون داعون إلى

---

(١) الآية ١١ من سورة المزمل.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري فى التفسير (٩/ ١٣٥).

(٣) أخرجه البخاري فى (الاعتصام – باب قول النبي : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق) ومسلم فى (الإمارة – باب قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق) من حديث المغيرة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨٧

معرفة ذات اللّه ، العلماء لإصلاح الظواهر ، والأولياء لإصلاح البواطن ، ولا يقوم هذا إلا بهذا ، فالظاهر من غير باطن فسق ، والباطن من غير ظاهر إلحاد ، وسيأتى عند قوله : فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ... «١» الآية ، تمثيل منزلتهم عند اللّه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٨٢ الى ١٨٣]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)

قلت : أصل الاستدراج : الاستصعاد ، أو الاستنزال درجة بعد درجة ، ومعناه : نسوقهم إلى الهلاك شيئا فشيئا.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا ، وألحدوا فى أسمائنا ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ أي : ندرجهم إلى الهلاك شيئا فشيئا ، مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ما نريد بهم ، وذلك أن تتواتر النعم عليهم ، فيظنوا أنها لطف

من اللّه بهم ، فيزدادوا بطرا وانهماكا فى الغي ، حتى تحق عليهم كلمة العذاب. وَأُمْلِي لَهُمْ أي : وأمهلهم ، أي :

وأمدهم بالأموال والبنين والعدة والعدد ، حتى نأخذهم بغتة ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أي : أخذي شديد ، وإنما سماه كيدا لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

الإشارة : قال الشيخ زروق رضى اللّه عنه : الاستدراج : هو كمون المحنة في عين المنة ، وهو من درج الصبى إذا أخذ فى المشي شيئا بعد شيء ، ومنه : الدرج الذي يرتقى عليه إلى العلو ، كذلك المستدرج هو الذي تؤخذ منه النعمة شيئا بعد شيء وهو لا يشعر. قال تعالى : سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ. هـ. فالاستدراج ليس خاصا بالكفار ، بل يكون فى المؤمنين خواصهم وعوامهم.

قال في الحكم : «خف من وجود إحسانه إليك ، ودوام إساءتك معه ، أن يكون ذلك استدراجا لك سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ». وقال سهل بن عبد اللّه رضى اللّه عنه : نمدهم بالنعم ، وننسيهم الشكر عليها ، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم : أخذوا.

وقال ابن عطاء رضى اللّه عنه : كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة ، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة. وقال الشيخ ابن عباد رضى اللّه عنه : الخوف من الاستدراج بالنعم من صفة المؤمنين ، وعدم الخوف منه مع الدوام على الإساءة من صفة الكافرين. يقال : من أمارات الاستدراج : ركوب السيئة والاغترار بزمن المهلة ، وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة ، وهذا من المكر الخفي. قال تعالى : سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ أي : لا يشعرون بذلك ،

---

(١) من الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨٨

وهو أن يلقى فى أوهامهم أنهم على شيء ، وليسوا كذلك ، يستدرجهم فى ذلك شيئا فشيئا ، حتى يأخذهم بغتة ، كما قال تعالى : فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ إشارة إلى مخالفتهم وعصيانهم ، بعد ما رأوا من الشدة ، فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ أي : فتحنا عليهم أسباب العوافي وأبواب الرفاهية ، حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا من الحظوظ الدنيوية ، ولم يشكروا عليها برجوعهم منها إلينا ، أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً أي : فجأة ، فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ «١» آيسون قانطون من الرحمة. هـ.

ثم ندبهم إلى التفكر ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٨٤ الى ١٨٦]

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)

قلت : (و ما خلق) : عطف على (ملكوت) ، و(أن عسى) : مخففة ، و(أن يكون) : مصدرية ، أو عطف على (ملكوت) أيضا.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فى أمر محمد صلّى اللّه عليه وسلّم حتى يتحققوا أنه ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ يعنى : نبينا محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم. روى أنه صلّى اللّه عليه وسلّم لما أمر بالإنذار صعد الصّفا ، فدعاهم ، فخذا فخذا ، يحذّرهم بأس اللّه تعالى ، فقال قائلهم : إن صاحبكم لمجنون ، بات يصوت إلى الصباح ، فنزلت «٢».

إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ أي : بيّن الإنذار واضح أمره ، لا يخفى على ناظر. أَوَلَمْ يَنْظُرُوا «٣» نظر استدلال فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : فى عظمتهما وما اشتملتا عليه من العجائب ، وَما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ أي : وينظروا فيما خلق اللّه من شىء من الأجناس التي لا يمكن حصرها ، لتدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها ، وعظم شأن مالكها ومتولى أمرها ، ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه.

وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ أي : أو لم ينظروا أيضا فى اقتراب أجلهم وتوقع حلول الموت بهم ، فيسارعوا إلى طلب الحق ، والتوجه إلى ما ينجيهم من عذابه ، قبل مفاجأة الموت ونزول العذاب. فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ أي : بعد القرآن ، يُؤْمِنُونَ إن لم يؤمنوا به ، وهو النهاية فى البيان؟ كأنه إخبار عنهم بالطبع

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه الطبري فى التفسير ، (٩/ ١٣٦) بإسناد صحيح إلى قتادة.

(٣) إلى هنا ينتهى السقط الموجود فى المخطوطة الأصلية.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٨٩

على القلوب والتصميم على الكفر ، بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر ، وقيل : هو متعلق بقوله : وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ كأنه قيل : لعل أجلهم قد اقترب ، فما لهم لا يبادرون بالإيمان بالقرآن ، وما ذا ينتظرون بعد وضوحه؟ وإن لم يؤمنوا به فبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به؟! .. قاله البيضاوي.

ثم بيّن أن أمرهم بيده ، فقال : مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ أصلا ، ولا يقدر أحد عليه ، وَنَذَرُهُمْ «١» فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ : يتحيرون. ومن قرأ بالياء فمناسب لقوله : (من يضلل) ، ومن جزمه فعطف على محل : (فلا هادى له) لأنه جواب الشرط.

الإشارة : قد أرشد الحق – تعالى – عباده إلى التفكر والاعتبار ، وقد تقدم الكلام عليه في «آل عمران» ، وقد علّم هنا أهل الاستدلال كيفيته وهو أن ينظر الإنسان فى أمر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وما ظهر على يديه من المعجزات وخوارق العادات ، وأعظمها القرآن العظيم ، ثم ما أتى به من العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، وما نطق به من الحكم العجيبة ، وما أخبر به من قصص الأمم الدارسة والشرائع المتقدمة ، مع كونه أميا لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يجالس أحدا ممن له خبرة بذلك ، فتطلع عليه شمس المعرفة به حتى لا يخالطه وهم ، ولا يخطر بساحته خاطر سوء ، ثم يتفكر فى عجائب ملكوت السموات والأرض ، وما اشتملتا عليه من ضروب المصنوعات ، وعجائب المخلوقات ، فيتحقق بوجود الصانع القادر على كل شيء ، هذا إن لم يجد شيخا يخرجه من سجن الدليل ، وإن وجده استغنى عن هذا بإشراق شمس العرفان ، والخروج إلى فضاء الشهود والعيان.

ثم ذكر أمر الساعة ، التي خوّفهم بها بقوله : وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٨٧]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧)

قلت : إنما سميت القيامة ساعة : لسرعة حسابها ، أو وقوعها ، لقوله : وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وابو جعفر (نذرهم) بنون العظمة ورفع الراء على الاستئناف ، وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء على الغيبة ورفع الراء ، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وجزم الراء عطفا على محل قوله تعالى فَلا هادِيَ لَهُ راجع الإتحاف (٢/ ٧٠).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩٠

يقول الحق جل جلاله : يَسْئَلُونَكَ أي : قريش ، عَنِ السَّاعَةِ أي : قيام الناس من قبورهم للحساب ، أَيَّانَ مُرْساها أي : متى إرساؤها ، أي : ثبوتها ووقوعها؟ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي استأثر بعلمها ، لم يطلع

عليها ملكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا ، لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها أي : لا يظهرها عند وقت وقوعها ، إِلَّا هُوَ ، والمعنى أن إخفاءها يستمر إلى وقت وقوعها ، ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها ، وكأنه إشارة إلى الحكمة فى إخفائها. أو ثقلت على السموات والأرض أنفسهما لتبدلهما وتغير حالهما ، لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً : فجأة على غفلة ، كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ الساعة تهيج بالنّاس ، والرّجل يصلح حوضه ، والرّجل يسقى ما شيته ، والرّجل يقوّم سلعته فى سوقه ، والرّجل يخفض ميزانه ويرفعه». «١». والمراد :

النفخ فى الصور للصعق ، لأن الساعة مرتّبة عليه وقريبة منه.

يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها أي : عالم بها ، من حفى على الشيء : إذا سأل عنه ، فإنّ من بالغ في السؤال عن الشيء ، والبحث عنه ، استحكم علمه فيه ، أي : يسألونك عن وقت قيامها ، كأنك بليغ فى السؤال عنها فعلمتها ، وليس كما يزعمون ، وأما قوله : فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها «٢» : فقيل : معناه : التعجب عن كثرة اهتمامه بالسؤال ، أي : فى أي شغل أنت من ذكراها والسؤال عنها؟ ولا يعارض ما هنا لأنه استغنى عن ذلك بتلك الآية ، وبعدها نزلت هذه ، واللّه أعلم.

وقيل : «عنها» : يتعلق ب (يسألونك) ، أي : يسألونك عنها كأنك حفى بهم ، أي : شفيق بهم ، قيل : إن قريشا قالوا :

إنّ بيننا وبينك قرابة ، فقل لنا : متى الساعة؟ فقال له الحق تعالى : قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ لا يعلمها غيره ، وكرره لتكرر «يسألونك». وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أن علمها عند اللّه لم يؤته أحدا من خلقه.

الإشارة : إذا أشرق نور اليقين فى القلب صارت الأمور المستقبلة حاصلة ، والغائبة حاضرة ، والآجلة عاجلة ، فأهل اليقين الكبير قدّموا ما كان آتيا ، فحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، ووزنوا أعمالهم قبل أن توزن عليهم ، وجازوا الصراط بسلوكهم المنهاج المستقيم ، ودخلوا جنة المعارف قبل حصول جنة الزخارف ، فالموت فى حقهم إنما هو انتقال من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام ، ومن دار الغرور إلى دار الهناء والسرور. وفي الحكم : «لو أشرق لك نور اليقين فى قلبك ، لرأيت الاخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها».

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن جرير فى التفسير ، (٩/ ١٠٤) من حديث قتادة ، وفى البخاري ، عن أبى هريرة رفعه : «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه». أخرجه البخاري فى (الرقاق – باب ٤) وبنحوه مسلم فى (الفتن – باب قرب الساعة).

(٢) الآية ٤٣ من سورة النازعات.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩١

قال الشيخ ابن عباد رضى اللّه عنه : نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هى عليه ، فيحق به الحق ، ويبطل به الباطل ، والآخرة حق ، والدنيا باطل ، فإذا أشرق نور اليقين فى قلب العبد أبصر به الآخرة التي كانت غائبة عنه حاضرة لديه ، حتى كأنها لم تزل ، فكانت أقرب إليه من أن يرتحل إليها ، فحق بذلك حقها عنده ، وأبصر الدنيا الحاضرة لديه ، قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب ، فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة ، فظهر له بطلانها ، حتى كأنها لم تكن ، فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهادة فى الدنيا والتجافي عن زهرتها ، والإقبال على الآخرة ، والتهيؤ لنزول حضرتها ، ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور. كما قال النبي – صلى اللّه عليه وسلم – : «إنّ النور إذا دخل القلب انشرح له الصّدر وانفسح ، قيل يا رسول اللّه : هل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال : نعم. التّجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله» «١». أو كما قال – صلى اللّه عليه وسلم – .

وعند ذلك تموت شهواته وتذهب دواعى نفسه ، فلا تأمره بسوء ، ولا تطالبه بارتكاب منهي ، ولا تكون له همة إلا المسارعة إلى الخيرات ، والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات ، وذلك لاستشعاره حلول الأجل ، وفوات صالح العمل ، وإلى هذا الإشارة بحديثي حارثة ومعاذ – رضى اللّه عنهما – . روى أنس بن مالك رضى اللّه عنه قال : بينما رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يمشى إذ استقبله شاب من الأنصار ، فقال له النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «كيف أصبحت يا حارثة؟ قال : أصبحت مؤمنا باللّه حقا ، قال : انظر ما تقول ، فإن لكلّ قول حقيقة؟ فقال : يا رسول اللّه عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى بعرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنّة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها ، فقال : أبصرت فالزم ، عبد نور اللّه الإيمان فى قلبه ..» إلى آخر الحديث «٢».

وروى أنس رضى اللّه عنه أيضا : أن معاذ بن جبل دخل على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهو يبكى ، فقال له : كيف أصبحت يا معاذ؟

فقال : أصبحت باللّه مؤمنا ، قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ لكل قول مصداقا ، ولكل حق حقيقة ، فما مصداق ما تقول؟» فقال :

يا نبىّ اللّه ، ما أصبحت صباحا قط إلا ظننت أنى لا أمسى ، ولا أمسيت قط إلا ظننت أنى لا أصبح ، ولا خطوت خطوة قط إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى ، وكأنى أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها ، معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون اللّه ، وكأنى أنظر إلى عقوبة أهل النّار وثواب أهل الجنة.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «عرفت فالزم». انظر بقية كلامه رضى اللّه عنه.

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (٧/ ٣٦٢).
(٢) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية ١٢٦ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩٢
ثم أمر نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بالاعتراف بالتقصير عن علم الغيب ، الذي اختص اللّه به كعلم الساعة وغيرها ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : آية ١٨٨]
قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)
قلت : «وما مسنى السوء» : عطف على «استكثرت» ، أي : لو علمت الغيب لاستكثرت الخير واحترست من السوء ، أو استئناف ، فيوقف على ما قبله ، ويراد حينئذ بالسوء : الجنون ، والأول أحسن لاتصاله بما قبله ، و(لقوم) : يجوز أن يتعلق ببشير ونذير ، أي : أبشر المؤمنين وأنذرهم ، وخصهم بالبشارة والنذارة لانتفاعهم بهما ، ويجوز أن يتعلق بالبشارة وحدها ، فيوقف على (نذير) ، ويكون المتعلق بنذير محذوف ، أي : نذير للكافرين ، والأول أحسن. قاله ابن جزى.
يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : أنا لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا أي : لا أجلب لها نفعا ولا أدفع عنها ضررا ، إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ من ذلك ، فيعلمنى به ، ويوقفنى عليه ، وهو إظهار للعبودية والتبري من ادعاء العلم بالغيوب ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ أي : لو كنت أعلم ما يستقبلنى من الأمور المغيبة كشدائد الزمان وأهواله ، لاستعددت له قبل نزوله باستكثار الخير والاحتراس من الشر ، حتى لا يمسنى سوء ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ أي : ما أنا إلا عبد مرسل بالإنذار والبشارة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فإنهم المنتفعون بهما ، أو نذير لمن خالفنى بالعذاب الأليم ، وبشير لمن تبعني بالنعيم المقيم.
الإشارة : العبودية محل الجهل وسائر النقائص ، والربوبية محل العلم وسائر الكمالات ، فمن آداب العبد أن يعرف قدره ، ولا يتعدى طوره ، فإن ورد عليه شيء من الكمالات فهو وارد من اللّه عليه ، وإن ورد عليه شيء من النقائص فهو أصله ومحله ، فلا يستوحش منه ، وكان شيخنا يقول : إن علمنا فمن ربنا ، وإن جهلنا فمن أصلنا وفصلنا. أو كلام هذا معناه ، فالاستشراف إلى الاطلاع على علم الغيوب من أكبر الفضول ، وموجب للمقت من علام الغيوب. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر أصل النشأة ، ليدل على نقص العبد وجهله ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٨٩ الى ١٩٠]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)

(٢٩٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩٣

يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ آدم عليه السّلام ، وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها أي : خلق من ضلعها زوجها حواء ، سلها منه وهو نائم ، لِيَسْكُنَ إِلَيْها ليستأنس بها ، ويطمئن بها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه.

فَلَمَّا تَغَشَّاها أي : جامعها حين ركبت فيه الشهوة ، حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً أي : خف عليها ، ولم تلق منه ما تلقى بعض الحبالى من حملهن من الأذى والكرب ، أو حملا خفيفا ، يعنى النطفة قبل تصورها ، فَمَرَّتْ بِهِ أي : ذهبت وجاءت به ، مخففة ، واستمرت إلى حين ميلاده ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ أي : ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبره فى بطنها ، دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما آدم وحواء ، قائلين : لَئِنْ آتَيْتَنا ولدا صالِحاً أي : سويا سالما فى بدنه ، تام الخلقة ، لَنَكُونَنَّ لك مِنَ الشَّاكِرِينَ على هذه النعمة المجددة.

فَلَمَّا آتاهُما ولدا صالِحاً كما سألا ، جعل أولادهما لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما ، فسموا عبد العزى وعبد مناف وعبد الدار. فالآية إخبار بالغيب فى أحوال بنى آدم ممن كفر منهم وأشرك ، ولا يصح فى آدم وحواء هذا الشرك لعصمة الأنبياء ، وهذا هو الصحيح. وقد يعاتب الملك الأب على ما فعل أولاده ، كما إذا خرجوا عن طاعته فيقول له : أولادك فعلوا وفعلوا ، على عادة الملوك.

وقيل : لما حملت حواء أتاها إبليس فى صورة الرجل ، فقال لها : وما يدريك ما فى بطنك لعله بهيمة أو كلب ، وما يدريك من أين يخرج؟ فخافت من ذلك ، ثم قال لها : إن أطعتينى ، وسميته عبد الحارث ، فسأخلصه لك ، وكان اسم إبليس فى الملائكة : الحارث ، وإن عصيتنى قتلته ، فأخبرت بذلك آدم ، فقال لها : إنه عدونا الذي أخرجنا من الجنة ، فلما ولدت مات الولد ، ثم حملت مرة أخرى ، فقال لها إبليس مثل ذلك ، فعصته ، فلما ولدت مات الولد ، ثم حملت مرة ثالثة ، فسمياه عبد الحارث طمعا فى حياته «١» ، فقوله : جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما أي : فى التسمية لا غير ، لا فى عبادة غير اللّه.

والقول الأول أصح ، لثلاثة أوجه : أحدها : أنه يقتضى براءة آدم وحواء من الشرك ، قليله وكثيره ، وذلك هو حال الأنبياء – عليهم السلام – . والثاني : أنّ جمع الضمير فى قوله : فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ، يقتضى أن الشرك وقع من أولادهما ، لا منهما. الثالث : أن هذه القصة تفتقر إلى نقل صحيح ، وهو غير موجود. انظر : ابن جزى.

الإشارة : قال الورتجبي : فى قوله لِيَسْكُنَ إِلَيْها : لم يجد آدم عليه السّلام فى الجنة إلاسنا تجلى الحق ، فكاد أن يضمحل بنور التجلي ، لتراكمه عليه ، فعلم اللّه – سبحانه – أنه لا يتحمل أثقال التجلي ، وعرف أنه يذوب فى نور

---

(١) هذه القصة يظهر عليها أنها من آثار أهل الكتاب ، وقد أعلّها أهل الحديث ، رغم ورودها فى كتب الحديث وغيرها. راجع تفسير :

ابن كثير (٢/ ٢٧٥) ، والإسرائيليات والموضوعات للشيخ أبى شهبة (١٧٩). والآية تتحدث عن (نمط) فى السلوك البشرى ، وترسم نموذجا لأى زوجين بشريين يريدان الإنجاب من اللّه – بإلحاح ، وعند ما يعطيهما اللّه تعالى ما سألاه ، ينسبان ذلك لغير اللّه تعالى. [.....]

حسنه ، وكل ما فى الجنة مستغرق فى ذلك النور ، فيزيد عليه ضوء الجبروت والملكوت ، فخلق منه حواء ليسكن آدم إليها ، ويستوحش بها سويعات من سطوات التجلي ، ولذلك قال صلّى اللّه عليه وسلّم لعائشة – رضي اللّه عنها – : «كلمينى يا حميراء». ثم قال : وقال بعضهم : خلقها ليسكن آدم إليها ، فلما سكن إليها غفل عن مخاطبة الحقيقة ، بسكونه إليها ، فوقع فيما وقع من تناول الشجرة. هـ. فكل من سكن إلى غير اللّه تعالى كان سكونه بلاء فى حقه ، يخرجه من جنة معارفه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ردّ على من أشرك من بنى آدم ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٩١ الى ١٩٥]

أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (١٩٥)

يقول الحق جل جلاله : أَيُشْرِكُونَ مع اللّه أصناما جامدة ، لا يخلقون شيئا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، فهي مخلوقة

غير خالقة. واللّه تعالى خالق غير مخلوق ، وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً أي : لا يقدرون أن ينصروا من عبدهم ، وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ فيدفعون عنها ما يعتريها ، فهي في غاية العجز والذلة ، فكيف تكون آلهة؟

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ أي : وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا تجيبكم ، فلا تهتدى إلى ما دعيت إليه لأنها جمادات ، أو : وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى الحق لا تجيبكم ، سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ عن دعائهم ، فالدعاء في حقهم وعدمه سواء ، وإنما لم يقل : أم صمتم ليفيد الاستمرار على عدم إجابتهم لأن الجملة الاسمية تقتضي الاستمرار.

ثم قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون اللّه ، هم عِبادٌ أَمْثالُكُمْ من حيث إنها مسخرة مملوكة ، فكيف يعبد العبد مع ربه ، فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى أنها تستحق أن تعبد ، والأمر للتعجيز لأن الأصنام لا تقدر أن تجيب فلا تستحق أن تعبد ثم عاد عليهم بالنقض فقال : أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ، ومعناه : أن الأصنام جمادات عادمة للحس والجوارح والحياة ، ومن كان كذلك لا يكون

(٢/٢٩٤)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩٥ إلها ، فإنّ من وصف الإله الإدراك والحياة والقدرة. وإنما جاء هذا البرهان بلفظ الاستفهام لأن المشركين مقرون أن أصنامهم لا تمشي ، ولا تبطش ، ولا تبصر ، ولا تسمع ، فلزمتهم الحجة ، والهمزة في قوله : أَلَهُمْ : للاستفهام مع التوبيخ ، و(أم) ، فى المواضع الثلاثة : تضمنت معنى الهمزة ومعنى بل ، وليست عاطفة. قاله ابن جزى. قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ استعينوا بهم فى عداوتي ، ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ أي : لا تؤخرون ، فإنكم وأصنامكم لا تقدرون على مضرتى وكيدى ، ومفهوم الآية : الرد عليهم ببيان عجز أصنامهم وعدم قدرتها على المضرة.

الإشارة : كل ما سوى اللّه قد عمه العجز والتقصير ، فليس بيده نفع ولا ضر ، وفى الحديث : «لو اجتمع الإنس والجنّ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه اللّه لك ، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلّا بشيء قدّره اللّه عليك». أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم ، فالخلق كلهم فى قبضة القهر ، مصروفون بقدرة الواحد القهار ، ليس لهم أرجل يمشون بها ، ولا أيد يبطشون بها ، ولا أعين يبصرون بها ، ولا آذان يسمعون بها ، وإنما هم مجبورون فى قوالب المختارين ، فلا تركن إليهم أيها العبد فى شيء ، إذ ليس بيدهم شيء ، ولا تخف منهم فى شيء ، إذ لا يقدرون على شيء. قال ابن جزى : وفيها – أي : فى الآية – إشارة إلى التوكل على اللّه والاعتصام به وحده ، وأن

غيره لا يقدر على شيء.

ثم أفصح بذلك ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٩٦]

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦)

يقول الحق جل جلاله : قل لهم أيضا يا محمد : إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ أي : هو ناصري وحافظي منكم ، فلا تضروني ولو حرصتم أنتم وآلهتكم ، الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ أي : القرآن ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ أي : ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلا عن أنبيائه ، فلا أخافكم بعد أن تولى حفظي منكم.

الإشارة : قال القشيري : من قام بحقّ اللّه تولّي أموره على وجه الكفاية ، فلا يحوجه إلى أمثاله ، ولا يدع شيئا من أحواله إلا أجراه على ما يريد بحسن إفضاله ، فإن لم يفعل ما يريده جعل العبد راضيا بما يفعله ، فروح الرضا على الأسرار أتمّ من راحة العطاء على القلوب. هـ.

ثم قال تعالى :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٩٧ الى ١٩٨]

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (١٩٨)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩٦

يقول الحق جل جلاله ، فى إتمام الرد على المشركين : وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ أي : تعبدونها من دونه ، لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ، فلا تبال بهم أيها الرسول ، وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا ، يحتمل أن يريد الأصنام ، فيكون تحقيرا لها ، وردا على من عبدها فإنها جماد موات لا تسمع شيئا ، أو يريد الكفار ، ووصفهم بأنهم لا يسمعون ، يعنى : سمعا ينتفعون به ، لإفراط نفورهم ، أو لأن اللّه طبع على قلوبهم ، وَتَراهُمْ أي : الأصنام ، يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ لأنهم مصورون بصورة من ينظر ، فقوله :

وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ : مجاز ، وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ حقيقة ، لأن لهم صورة الأعين ، وهم لا يرون بها شيئا ، هذا إن جعلناه وصفا للأصنام ، وإن كان وصفا للكفار فقوله : وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ حقيقة ، وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ مجاز ، لأن الإبصار وقع منهم فى الحس ، لكن لمّا لم ينفعهم لعمى قلوبهم ، نفاه عنهم كأنه لم يكن.

قال المحشي : شاهدوا بأبصار رؤوسهم ، لكنهم حجبوا عن الرؤية ببصائر أسرارهم وقلوبهم ، فلم يعتد

برؤيتهم. هـ.

الإشارة : فى الآية تحويش للعبد إلى الاعتماد على اللّه واستنصاره به فى جميع أموره ، فلا يركن إلى شيء سواه ، ولا يخاف إلا من مولاه ، إذ لا شيء مع اللّه.

وقوله تعالى : وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ... الآية. قال المحشى : يقال : رؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم ، لكن لما يحصل للقلوب من مكاشفة الغيوب ، وذلك على مقدار الاحترام وحضور الإيمان. هـ.

يعني : أن النظر إلى الأكابر ، من العارفين بالله ، ليست مقصودة لرؤية أشخاصهم ، وإنما هى مقصودة لفيضان أمدادهم ، وذلك على قدر التعظيم والاحترام ، وصدق المحبة والاحتشام ، فكل واحد من الناظرين إليهم يغرف على قدر محبته وتعظيمه. روى أن بعض الملوك زار قبر أبى يزيد البسطامي ، فقال : هل هنا أحد ممن أدرك الشيخ أبا يزيد البسطامي؟ فأتى بشيخ كبير ، فقال : أنا أدركته ، فقال : ما سمعته يقول؟ فقال : سمعته يقول : (من رآنى لا تأكله النار). فقال الملك : هذا لم يكن للنبى – عليه الصلاة والسلام – فقد رآه كثير من الكفار فدخلوا النار ، فكيف يكون لغيره؟ فقال له الشيخ : يا هذا ، الكفار لم يروه صلّى اللّه عليه وسلّم على أنه رسول اللّه ، وإنما رأوه على أنه محمد بن عبد اللّه ، فسكت. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بمكارم الأخلاق ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٩٩ الى ٢٠٠]

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩٧

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم : خُذِ الْعَفْوَ أي : اليسر من أخلاق الناس ولا تبحث عنها ، أو : خذ من الناس ، فى أخلاقهم وأموالهم ومعاشرتهم ، ما سهل وتيسر مما لا يشق عليهم لئلا ينفروا. فهو كقول الشاعر :

خذ العفو منّى تستديمي مودّتى «١» ....

أو : خذ فى الصدقات ما سهل على الناس من أموالهم وهو الوسط ، ولا تأخذ كرائم أموالهم مما يشق عليهم ، أو تمسك بالعفو عمن ظلمك ولا تعاقبه ، وهذا أوفق لتفسير جبريل الآتي ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ أي : المعروف ، وهو أفعال الخير ، أو العرف الجاري بين الناس. واحتج المالكية بذلك على الحكم بالعرف

الذي يجرى بين الناس.

وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ أي : لا تكافئ السفهاء على قولهم أو فعلهم ، واحلم عليهم. ولمّا نزلت سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم جبريل عنها ، فقال : «لا أدرى حتّى أسأل ، فعرج ، ثم رجع فقال : يا محمد ، إنّ اللّه يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمّن ظلمك» «٢». وعن جعفر الصادق : (أمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم فيها بمكارم الأخلاق) ، وهى على هذا ثابتة الحكم ، وهو الصحيح. وقيل : كانت مداراة للكفار ، ثم نسخت بالقتال.

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ ينخسنك منه نخس ، أي : وسوسة تحملك على خلاف ما أمرت به كاعتراء غضب ، ومقابلة سفيه ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ والتجئ إليه إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يسمع استعاذتك ، ويعلم ما فيه صلاح أمرك ، فالاستعاذة عند تحريك النفس مشروعة ، وفى الحديث : أن رجلا اشتد غضبه ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما به أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم» «٣».

الإشارة : كل ما أمر به الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم تؤمر به أمته ، وخصوصا ورثته من الصوفية ، فهم مطالبون بالتخلق بأخلاقه صلّى اللّه عليه وسلّم أكثر من غيرهم ، لأن غيرهم لم يبلغ درجتهم. وقال الورتجبي : خُذِ الْعَفْوَ : أي : فاعف عنهم من قلة عرفانهم حقك ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ أي : تلطف عليهم فى أمرك ونهيك لهم ، فإنهم ضعفاء عن حمل وارد أحكام شرائعك وحقائقك ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ الذين ليس لهم استعداد النظر إليك ، ولا يعرفون حقوقك ، فإنّ منكر معجزات أنبيائى وكرامات أوليائى لا يبلغ إلى درجة القوم. قال بعض المشايخ – حين ذكر أهل الظاهر – : دع هؤلاء الثقلاء. هـ. فوصف علماء الظاهر بالثقلاء لثقل ظهورهم بعلم الرسوم ، فلم ينهضوا إلى حقائق العلوم ودقائق الفهوم ، وفى تائية ابن الفارض :

---

(١) هذا شطر بيت تمامه : (و لا تنطقى فى سورتى حين أغضب) وهو لحاتم ، راجع : تفسير أبى حيان (٤/ ٤٤٤).

(٢) أخرجه الطبري فى التفسير (٩/ ١٥٥) عن سفيان بن عيينه عن أبى المرادي ، وقال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : (هذا منقطع ، وأخرجه ابن مردويه موصولا من حديث جابر وحديث قيس بن سعد). انظر تفسير البغوي (٣/ ٣١٦) مع حاشية المحقق.

(٣) أخرجه بنحوه البخاري فى (بدء الخلق – باب صفه إبليس وجنوده) ومسلم فى (البر – باب فضل من يملك نفسه عند الغضب) من حديث سليمان بن صرد.

وجز مثقلا لو خف طفّ موكّلا بمنقول أحكام ومعقول حكمة

قال شارحه : أمره بالمجاوزة عن المثقلين بأثقال العلوم الظاهرة ، من الفقهاء ، والمتكلمين بأحكام المنقولات ، والفلاسفة الموكلين بالمعقولات والحكمة ، ووصف مثقلا بأنه : لو خف طفا ، أي : لأنه لو كان خفيفا بوضع الأثقال عنه كان طفيفا ، لا يرى لنفسه قدرا ، واللازم منتف فالملزوم مثله هـ.

ثم إن البشر لا بد أن تعتريه أحكام البشرية ، كالغضب وشبهه ، كما بيّنه الحق تعالى بقوله :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٢٠١ الى ٢٠٢]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)

قلت : الطيف – بسكون الياء – : مصدر طاف به الخيال يطيف طيفا ، أو مخفف من طيّف كهين ولين وميت.

ومن قرأ (طائف) : فاسم فاعل ، والمراد به : لمّة الشيطان ووسوسته. وحذف مفعول (تذكروا) للعموم على ما يأتى فى المعنى. وقوله : (فإذا هم مبصرون) : أتى بإذا الفجائية ليقتضى سرعة تيقظهم ، وبالجملة الاسمية ولم يقل :

تذكروا فأبصروا ليفيد أنهم كانوا على البصري ، وإنما السّنة طرقتهم ثم رجعوا عنها.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا الشرك والمعاصي ، إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ أي : لمّة منه ، كما فى الحديث : «إنّ للشّيطان لمّة وللملك لمّة ...» «١» إلخ ، فإذا أخذتهم تلك السنة وغفلوا تَذَكَّرُوا عقاب اللّه وغضبه ، أو ثواب اللّه وإنعامه ، أو مراقبته والحياء منه ، أو مننه وإحسانه ، أو طرده وإبعاده ، أو حجبه وإهماله ، أو عداوة الشيطان وإغواءه ، كلّ على قدر مقامه ، فلما تذكروا ذلك فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ بسبب ذلك التذكر ، أي : فإذا هم على بصيرة من ربهم التي كانوا عليها قبل المس ، أو : فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ ومكائد الشيطان فيحترزون منها ، ولا يعودون إليها بخلاف المنهمكين فى الغفلة ، كما قال تعالى : وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ أي : وإخوان الشياطين ، الذين لم يتقوا ، يمدونهم ، أي : ينصرونهم ، ويكونون مددا لهم فى الضلال والغي بالتزيين والحمل عليه ، ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ لا يمسكون عن إغوائهم حتى يوردوهم النار ، أو : لا يقصر الكفار عن غيهم وضلالهم حتى يهلكوا.

الإشارة : البصيرة حارسة للقلب ، الذي هو بيت الرب ، فإذا نامت طرقها الشيطان ، فإن كان نومها خفيفا أحست به وطردته ، وهذه بصيرة المتقين ، الذين ذكرهم اللّه تعالى بقوله : إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا ، وإذا كان نومها ثقيلا سرق الشيطان ما فيها ، ولم تفطن به ، وهذه بصيرة الغافلين ، الذين هم إخوان الشياطين.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (تفسير سورة البقرة ، آية : الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ....) من حديث عبد اللّه بن مسعود. والمراد باللمّة :
النزول والقرب ، والمراد بها : ما يقع فى القلب بواسطة الشيطان أو الملك. فأما كان من خطرات الخير فهو من الملك ، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان. راجع : النهاية (لمم ٤/ ٢٧٣).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٩٩
قال القشيري : إنما يمس المتقين طيف الشيطان فى ساعات غفلتهم عن ذكر الله ، ولو أنهم استداموا ذكر الله بقلوبهم لما مسّهم طائف الشيطان ، فإن الشيطان لا يقرب قلبا فى حال شهوده الله لأنه يخنس عند ذلك ، ولكل عازم فترة ، ولكلّ عالم هفوة ، ولكل عابد شدة ، ولكل قاصد فترة ، ولكل سائر وقفة ، ولكل عارف حجبة. قال – عليه الصلاة والسلام – : «الحدّة تعترى خيار أمتى» «١».
فأخبر بأن خيار الأمة ، وإن جلت رتبتهم ، لا يتخلصون عن حدة تعتريهم في بعض أحوالهم ، فتخرجهم عن دوام الحلم. هـ. وكأنه يشير إلى أن طائف الشيطان يمس الواصلين والسائرين ، وهو كذلك بدليل أول الآية فى قوله : وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ ... الآية ، ومسه للسائر أو الواصل زيادة به ، وترقية له ، وتحويش له إلى ربه ، واللّه تعالى أعلم.
ثم ردّ اللّه على من طلب الآيات ، فقال :
[سورة الأعراف (٧) : آية ٢٠٣]
وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)
يقول الحق جل جلاله : وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ أي : الكفار ، بِآيَةٍ بمعجزة مما اقترحوا ، أو من القرآن حين يتأخر الوحى ، قالُوا لَوْ لا هلا اجْتَبَيْتَها أي : تخيرتها وطلبتها من ربك ، أو هلا اخترعتها وتقولتها من نفسك كسائر ما تقرأ؟ قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي فلا أطلب منه آية ، فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ «٢» ، أو : لا أخترع القرآن من عند نفسى ، بل أتبع ما يوحى إلىّ من ربي.
هذا القرآن بَصائِرُ للقلوب مِنْ رَبِّكُمْ ، أي : من عند ربكم ، بها تبصر الحق وتدرك الصواب ، وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وإرشاد أو طمأنينة لقلوب المؤمنين.
الإشارة : قد تقدم مرارا ما فى طلب الآيات من ضعف اليقين ، وعدم الصدق بطريق المقربين ، وإنما على الأولياء أن يقولوا : هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بطريق المخصوصين. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالإنصات للقرآن ، الذي هو أعظم الآيات ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : آية ٢٠٤]

وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ ، مطلقا ، فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لكى تعتبروا وتتدبروا ، فإنما نزل لذلك ، وهل على الوجوب أو الاستحباب – وهو الراجح؟ قولان ، وقيل : الاستماع المأمور به

---

(١) أخرجه الطبراني فى الكبير (١١/ ٦٤) عن ابن عباس رضى اللّه عنه ، وضعفه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٣٨٠٨).

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٠٠

لقراءة الإمام فى الصلاة ، وقيل : فى الخطبة ، والأول الراجح ، لوجهين : أحدهما : عموم اللفظ ، ولا دليل على تخصيصه ، والثاني : أن الآية مكيّة ، والخطبة إنما شرعت بالمدينة. وقوله تعالى : لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أي : بسبب ما تكتسبه القلوب من الرقة والخشية عند استماع القرآن ، قال بعضهم : الرحمة أقرب شيء إلى مستمع القرآن لهذه الآية. قاله ابن جزى.

الإشارة : الاستماع لكلام الحبيب أشهى للقلوب من كل حبيب ، لا سيما لمن سمعه بلا واسطة ، فكل واحد ينال من لذة الكلام على قدر حضوره مع المتكلم ، وكل واحد ينال من لذه شهود المتكلم على قدر رفع الحجاب عن المستمع ، واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر بالذكر القلبي ، فقال :

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٢٠٥ الى ٢٠٦]

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

يقول الحق جل جلاله ، لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم ولمن تبعه : وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ أي : فى قلبك بحركة لسان القلب ، أو فى نفسك سرا بحركة لسان الحس ، تَضَرُّعاً وَخِيفَةً أي : متضرعا وخائفا ، وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ أي : متكلما كلاما فوق السر ودون الجهر ، فإنه أدخل فى الخشوع والإخلاص ، ولا حجة فيه لمن منع الذكر جهرا لأن الآية مكية حين كان الكفرغالبا ، فكانوا يسبون الذاكر والمذكور ، ولما هاجر المصطفى – عليه الصلاة والسلام – إلى المدينة ، جهر الصحابة بالتكبير

والذكر. فالآية منسوخة. انظر : الحاوي فى الفتاوي للإمام السيوطي. فقد أجاب عن الآية بأجوبة.
فقوله : بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ أي : فى الصباح والعشى ، حين تتيقظ من نومك الشبيه بالبعث ، وحين تريد النوم الشبيه بالموت ، وقيل : المراد صلاة العصر والصبح ، وقيل : صلاة المسلمين ، قبل فرض الخمس ، وقيل : للاستغراق ، وإنما خص الوقتين لأنهما محل الاشتغال ، فأولى غيرهما. وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ عن ذكر اللّه.
إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يعنى ملائكة الملأ الأعلى ، لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ ينزهونه عما لا يليق به ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ أي : يخصونه بالعبادة والتذلل ، لا يشركون به غيره ، وهو تعريض بالكفار ،

(٣٠٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٠١
وتحريض للمؤمنين على التشبه بالملأ الأعلى ، ولذلك شرع السجود عند قراءتها. وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «إذا قرأ ابن آدم السجدة ، فسجد ، أعتزل الشيطان يبكى ، يقول : يا ويله أمر هذا بالسّجود فسجد فله الجنّة ، وأمرت بالسّجود فعصيت فلى النار» «١».
الإشارة : اعلم أن الذكر على خمسة أقسام : ذكر اللسان فقط لعوام المسلمين ، وذكر اللسان مع القلب لخواص الصالحين وأول المتوجهين ، وذكر القلب فقط للأقوياء من السائرين ، وذكر الروح لخواص أهل الفناء من الموحدين ، وذكر السر لأهل الشهود والعيان من المتمكنين ، وفى قطع هذه المقامات يقع السير للسائرين ، فيترقى من مقام ، إلى مقام ، حتى يبلغ إلى ذكر السر ، فيكون ذكر اللسان فى حقه غفلة.
وفى هذا المقام قال الواسطي رضى اللّه عنه : الذاكرون فى حال ذكره أشد غفلة من التاركين لذكره لأن ذكره سواه.
وفيه أيضا قال الغزالي : ذكر اللسان يوجب كثرة الذنوب. وقال الشاعر :
ما إن ذكرتك إلّا همّ يلعننى سرّى ، وقلبى ، وروحى ، عند ذكراك
حتّى كأنّ رقيبا منك يهتف بي : إيّاك ، ويحك ، والتّذكار إياك
أما ترى الحقّ قد لاحت شواهده وواصل الكلّ من معناه معناك
وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ... الآية ، قال القشيري : أثبت لهم عندية الكرامة ، وحفظ عليهم أحكام العبودية كى لا ينفك حال جمعهم عن نعت فرقهم ، وهذه سنّة اللّه تعالى مع خواص عباده ، يلقاهم بخصائص عين الجمع ، ويحفظ عليهم حقائق عين الفرق ، لئلا يخلّوا بآداب العبودية فى أوان وجود الحقيقة. هـ.

(١) أخرجه مسلم فى (الإيمان – باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة) من حديث أبى هريرة – رضى اللّه عنه.

(٣٠١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٠٢

(٣٠٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٠٣

سورة الأنفال

مدنية. وآياتها : ست وسبعون آية ، نزلت كلها فى غزوة بدر الكبرى ، حين اختلف الصحابة – رضى اللّه عنهم – فى قسمة الغنائم ، وهى الأنفال. ووجه المناسبة لما قبلها : تحريض المؤمنين على الطاعة ، والانقياد في شأن الغنائم وغيرها حتى يتشبهوا بالملائكة فى سرعة الانقياد والخضوع لله تعالى ، فى قوله : إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ الآية «١».

قال الحق جل جلاله :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

يقول الحق جل جلاله : يَسْئَلُونَكَ عَنِ قسمة الْأَنْفالِ وهى الغنائم ، سميت الغنيمة نفلا لأنها عطية من اللّه تعالى ، وزيادة فضل ، كما يسمى ما يشترطه الإمام للشجاع المقتحم خطرا ، نفلا لأنه عطية له زيادة على سهمه ، وكما سمى يعقوب عليه السّلام نافلة لأنه عطية زائدة على ولد إبراهيم عليه السّلام ، حيث كان حفيده. ثم أجابهم الحق تعالى فقال : قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ أي : أمرها إلى اللّه ورسوله ، يقسمها رسول صلّى اللّه عليه وسلّم حيث يأمره اللّه تعالى ، وفى الوضع الذي يعينه له.

وسبب نزولها : اختلاف المسلمين في غنائم بدر كيف تقسم ، هل فى المهاجرين لفقرهم ، أو فى

الأنصار لنصرهم ، أو فيهما معا. قال ابن جزى : وذلك أنهم كانوا يوم بدر ثلاث فرق : فرقة مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فى العريش تحرسه وتؤنسه ، وفرقة اتبعوا المشركين فقتلوهم وأسروهم ، وفرقة أحاطوا بأسلاب العدو وعسكرهم لما انهزموا ، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس ، ورأت كل فرقة أنها أحق بالغنيمة من غيرها ، اختلفوا فيما بينهم. فنزلت الآية. هـ.

---

(١) الآية : ٢٠٦ من سورة الأعراف.

وقيل : شرط رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لمن كان له غناء أن ينفله ، فتسارع شبابهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ، ثم طلبوا نفلهم ، وكان المال قليلا ، فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات : كنا ردءا لكم ، وفئة تنحازون إلينا ، فلا تختصوا بشيء دوننا ، فنزلت ، فقسمها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بينهم على السواء. ولهذا قيل : لا يلزم الإمام الوفاء بما وعد ، وهذا قول الشافعي رضى اللّه عنه.

وعن سعد بن أبى وقاص رضى اللّه عنه قال : لمّا كان يوم بدر قتل أخى عمير ، وقتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه ، وأتيت به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، واستوهبته منه ، فقال : «ليس هذا لى ، ولكن ضعه فى القبض «١»» ، فطرحته ، وفى قلبى ما لا يعلمه إلا اللّه من قتل أخى وأخذ سلبى ، فما جاوزتها إلّا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال ، فقال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «سألتنى السّيف وليس لى ، وإنّه قد صار لى فاذهب فخذه» «٢».

فَاتَّقُوا اللَّهَ فى المشاجرة والاختلاف ، وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ أي : أصلحوا الحال التي بينكم بالمواساة والمواددة وسلامة الصدور ، والمساعدة فيما رزقكم اللّه ، وتسليم أمره إلى اللّه تعالى ورسوله ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فيما يأمركم به إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضى الاستماع والاتباع ، أو إن كنتم كاملى الإيمان فإن كمال الإيمان يقتضي التمسك بهذه الخصال الثلاث : امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

ثم ذكر شروط كمال الإيمان ، فقال : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الكاملون فى الإيمان : الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ خافت واقشعرت لذكره استعظاما له وهيبة من جلاله ، وقيل : هو الرجل يهم بالمعصية فيقال له : اتق اللّه ، فينزع عنها خوفا من عقابه ، وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ القرآنية زادَتْهُمْ إِيماناً أي : يقينا وطمأنينة بتظاهر الأدلة التي اشتملت عليها ، أو بالعمل بموجبها. وهو دليل على أن الإيمان يزيد

بالطاعة وينقص بالمعصية ، بناء على أن العمل داخل فيه ، والتحقيق : أن العمل خارج عنه ، لكن نوره يتقوى به وينقص بنقصانه أو بالمعصية ، وسيأتى فى الإشارة الكلام عليه.

ومن أوصاف أهل الإيمان : التوكل على اللّه والاعتماد عليه ، كما قال : وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وقد تقدم فى «آل عمران» الكلام على التوكل «٣» ، ثم وصفهم بإقامة الدين فقال : الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ

---

(١) القبض – بالتحريك : بمعنى المقبوض ، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم. انظر : النهاية (قبض).

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ١/ ١٨٠ وابن أبى شيبة (١٢/ ٣٧٠) وسعيد بن منصور (٢٦٨٩) والطبرى فى التفسير ، وبنحوه أخرجه أبو داود فى (الجهاد ، باب فى النفل) والترمذى فى (التفسير – سورة الأنفال).

(٣) راجع إشارة الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

فى الواجب والتطوع. أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لأنّهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلب ، من الخشية والإخلاص والتوكل ، ومحاسن أعمال الجوارح التي هى العيار عليها ، كالصلاة والصدقة ، لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ أي : كرامات وعلو منزلة ، أو درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم ، وَمَغْفِرَةٌ لما فرط من ذنوبهم ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ أعده لهم فى الجنة ، لا ينقطع مدده ، ولا ينتهى أمده ، بمحض الفضل والكرم.

الإشارة : الأنفال الحقيقة هى المواهب التي ترد على القلوب ، من حضرة الغيوب من العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، لا تزال تتوالى على القلوب ، حتى تغيب عما سوى المحبوب ، فيستغنى غناء لا فقر معه أبدا ، وهذه غنائم خصوص الخصوص ، وغنائم الخصوص : هى القرب من الحبيب ، ومراقبة الرقيب ، بكمال الطاعة والجد والاجتهاد ، وهذه غنائم العباد والزهاد ، وغنائم عوام أهل اليمين : مغفرة الذنوب ، والستر على العيوب ، والنجاة من النار ، ومرافقة الأبرار ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «من قال عند نومه : أستغفر اللّه العظيم الذي لا إله إلّا هو الحىّ القيّوم وأتوب إليه ، غفر اللّه ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر ، وعدد الرمال وعدد أيّام الدّنيا» «١».

قال الشيخ زروق : وهذه هى الغنيمة الباردة ، وهذه الأمور بيد اللّه وبواسطة رسول اللّه صلّى اللّه عليه

وسلّم وهو معنى قوله :

قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، ثم دل على موجباتها فقال : فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ ... الآية ، وقوله تعالى : زادَتْهُمْ إِيماناً : اعلم أن الإيمان على ثلاثة أقسام : إيمان لا يزيد ولا ينقص ، وهو إيمان الملائكة ، وإيمان يزيد وينقص ، وهو إيمان عامة المسلمين ، وإيمان يزيد ولا ينقص وهو إيمان الأنبياء والرسل ، ومن كان على قدمهم من العارفين الروحانيين الراسخين في علم اليقين ، ومن تعلق بهم من المريدين السائرين ، فهؤلاء إيمانهم دائما فى الزيادة ، وأرواحهم دائما فى الترقي فى المعرفة ، يزيدون بالطاعة والمعصية لتيقظهم وكمال توحيدهم ، وفى الحكم : «وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول». وقال أيضا : «معصية أورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا» واللّه تعالى أعلم.

ثم تكلم على الخروج إلى غزوة بدر ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٥ الى ٦]

كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (٥) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الدعوات – باب ١٧) من حديث أبى سعيد رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٠٦

قلت : (كما أخرجك) : خبر عن مبتدأ محذوف ، أي : هذه الحال ، وهى عزلهم عن تولية الأنفال فى كراهتهم لها ، كحال إخراجك فى الحرب فى كراهتهم لها ، أو حالهم فى كراهية ما رأيت من تنفيلك للغزاة ، مثل حالهم فى كراهية خروجك ، أو صفة لمصدر الفعل المقدر فى قوله : لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، أي : الأنفال تثبت لله وللرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، مع كراهتهم ، ثباتا مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك ، يعنى المدينة لأنها مسكنه أو بيته منها ، وجملة : (و إن فريقا) :

حال من أخرجك ، أي : أخرجك فى حال كراهية فريق من المؤمنين.

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم : قد كره أصحابك قسمتك للأنفال كما كرهوا إخراجك رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ لقتال العدو ، والحال أن فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ خروجك لذلك ، وتلك الكراهية من قبل النفس وطبع البشرية ، لا من قبل الإنكار فى قلوبهم لأمر اللّه ورسوله ، فإنهم راضون مستسلمون ، غير أن الطبع ينزع لحظه ، والعبد مأمور بمخالفته وجهاده.

وذلك الفريق الذي كره خروجك للقتال يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ أي : يخاصمونك فى إيثارك الجهاد لإظهار الحق ، حيث أرادوا الرجوع للمدينة ، وقالوا : إنا لم نخرج لقتال ، قالوا ذلك بَعْدَ ما تَبَيَّنَ لهم أنهم منصورون أينما توجهوا ، بإعلام الرسول لهم ، لكن الطبع البشري ينزع إلى مواطن السلامة ، كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ أي : يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت ، وهو يشاهد أسبابه ، وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم ، إذ روى أنهم كانوا رجّالة ، وما كان فيهم إلا فارسان ، وذلك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لم يخرج لقصد الجهاد ، وإنما لملاقاة عير قريش ، لمّا سمع أنها قدمت من الشّام ، وفيها تجارة عظيمة ، ومعها أربعون راكبا ، فيهم أبو سفيان ، وعمرو بن العاص ، ومخرفة بن نوفل ، وعمرو بن هشام ، فأراد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يتعرض لها ويأخذها غنيمة ، حيث أخبره جبريل بقدومها من الشام ، فأخبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم المسلمين ، فأعجبهم تلقيها ، لكثرة المال وقلة الرجال ، فلما خرجوا ، بلغ الخبر أبا سفيان ، فسلك بالعير طريق السّاحل ، واستأجر من يذهب إلى مكة يستنفرها ، فلما بلغهم خروج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لعيرهم ، نادى أبو جهل فوق الكعبة : يا أهل مكة ، النّجاء النجاء ، على كل صعب وذلول ، عيركم وأموالكم إن أصابها محمّد لن تفلحوا بعدها أبدا.

وقد رأت ، قبل ذلك بثلاث ليال ، عاتكة بنت المطلب ، رؤيا وهو أن رجلا تمثل على جبل قبيس فنادى :

يا آل لكع ، اخرجوا إلى مصارعكم ، ثم تمثل على الكعبة ، فنادى مثل ذلك ، ثم أخذ حجرا فضرب به ، فلم يبق بيت فى مكة إلا دخله شيء من ذلك الحجر ، فحدثت بها العباس ، وبلغ ذلك أبا جهل ، فقال : أما ترضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساؤهم؟ لنتربص ثلاثا ، فإن لم يظهر ما تقول لنكتبن عليكم يا بنى هاشم أنكم أكذب بيت فى العرب ، فلما مضت ثلاث ليال جاء رسول أبى سفيان ليستنفرهم.

(٣٠٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٠٧

فخرج أبو جهل بجموع أهل مكة ، ومضى بهم إلى بدر ، وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوما فى السنة ، وكان رسول صلّى اللّه عليه وسلّم بوادي ذفران ، فنزل عليه جبريل بالوعد بإحدى الطائفتين : إما العير وإما قريش ، فاستشار فيه أصحابه ، فقال بعضهم : ما خرجنا لقتال ولا تهيأنا له ، وردد عليهم وقال : إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل ، فقالوا : يا رسول اللّه ، عليك بالعير ودع العدو ، فغضب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقام أبو بكر وعمر فأحسنا

، ثم قام سعد بن عبادة فقال : انظر فى أمرك ، وامض ، فو اللّه لو سرت إلى عدن ما تخلّف رجل من الأنصار ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : امض يا رسول اللّه لما أمرك ربك ، فإنا معك حيثما أحببت ، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل : فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ «١» ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فتبسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : أشيروا على أيها الناس ، يريد الأنصار لأنهم كانوا عددهم ، وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم برءاء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم ، فتخوف ألّا يروا نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة ، فقام سعد بن معاذ وقال : لكأنّك تريدنا يا رسول اللّه؟ فقال : أجل ، فقال : قد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ ، فأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السّمع والطّاعة ، فامض يا رسول اللّه لما أردت ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلّف منّا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا ، وإنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللّقاء ، ولعلّ اللّه يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة اللّه ، فنشّطه قوله ، ثم قال : «سيروا على بركة اللّه ، وأبشروا فإنّ اللّه قد وعدني إحدى الطائفتين ، واللّه لكأنّى أنظر إلى مصارع القوم».

ثم مضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حتى نزل بأصحابه آخر مياه من مياه بدر ، فبنى له هناك عريش ، فجلس فيه هو وأبو بكر ، فلما انتشب القتال أخذ قبضة من تراب فرمى بها وجوه القوم ، وقال : شاهت الوجوه ، فلم تبق عين من الكفار إلا وقع فيها شيء منها ، ونزلت الملائكة فى العنان ، أي : السماء ، فقتل منهم سبعون ، وأسر سبعون ، وقيل : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لما فرغ من غزوة بدر ، قيل له : عليك بالعير ، فقال العباس – وهو فى وثاقه : لا يصلح ، فقيل له : لم؟ فقال له : لأن اللّه وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك ما وعدك ، فكره بعضهم قوله ، ثم رجع صلّى اللّه عليه وسلّم إلى المدينة منصورا فرحا مسرورا ، وقد أنجزه اللّه ما وعده.

الإشارة : من حكمته تعالى الجارية فى عباده أن كل ما يثقل على النفوس ويشق عليها فى بدايته تكون عاقبته الفتح والنصر ، والهناء والسرور ، فكل ما تكرهه النفوس فغايته حضرة القدوس ، وما تحقق سير السائرين إلا

---

(١) الآية ٢٤ من سورة المائدة.

بمحاربة نفوسهم ومخالفة عوائدهم. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم ، قال لابن عباس فى

حديث طويل : «وفى الصّبر على ما تكره خير كثير». واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية قصة بدر ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٧ الى ٨]

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)

قلت : (و إذ) : ظرف لا ذكر ، محذوفة ، و(أنها لكم) : بدل اشتمال من (إحدى الطائفتين) ، والشوكة : الحدة ، مستعارة من واحد الشوك ، وسميت الحرب شوكة لحدة سلاحها.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكروا إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ قريشا ، أو عيرهم ، وعدكم أَنَّها لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ وتتمنون أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ أي : ذات الحرب تَكُونُ لَكُمْ وهى العير ، فإنها لم يكن فيها إلا أربعون رجلا ، وتكرهون ملاقاة النفير لكثرة عددهم وعددهم ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ أي : يظهر الحق ، وهو الإسلام ، بقتل الكفار وهلاكهم فى تلك الغزوة ، بِكَلِماتِهِ أي : بإظهار كلماته العليا ، أو بكلماته التي أوحى بها فى هذه الحال ، أو بأوامره للملائكة بالإمداد ، أو بنفوذ كلماته الصادقة بهلاكهم ، وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ أي : يستأصلهم ويقطع شوكتهم.

ومعنى الآية : أنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروها ، واللّه يريد إعلاء الدين وإظهار الحق ، وما يحصل لكم من فوز الدارين. وإنما فعل ما فعل من سوقكم إلى القتال لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ أي : ليظهر الدين ويبطل الكفر.

قال البيضاوي : وليس بتكرار لأن الأول لبيان المراد ، وما بينه وبين مرادهم من التفاوت ، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم على اختيار ذات الشوكة وقصره عليها. هـ. وقال ابن جزى : ليس تكرارا للأول لأن الأول مفعول يريد ، وهذا تعليل لفعل اللّه تعالى ، ويحتمل أن يريد بالحق الأول الوعد بالنصرة ، وبالحق الثاني الإسلام ، فيكون المعنى : أنه نصرهم ليظهر الإسلام ، ويؤيد هذا قوله : وَيُبْطِلَ الْباطِلَ أي : يبطل الكفر ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ذلك ، فإن اللّه لا بد أن يظهر دينه على الدين كله ، ولو كره الكافرون.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٠٩

الإشارة : وعد الله المتوجهين إليه بالوصول إلى سر الخصوصية ، وهى الولاية ، لكن بعد المجاهدة والمحاربة للنفوس لأن الحضرة لا يدخلها إلا أهل التهذيب والتدريب ، وترى كثيرا من الناس يتمنون أن تكون لهم من غير حرب ولا قتال ، ويريد الله أن يحق الحق بكشف الحجب عن القلوب ، حتى لا

يشاهدوا إلا الحق ، ويبطل الباطل ، وهو السّوى ، ولا يكون فى العادة إلا بعد موت النفوس وتهذيبها وتطهيرها بالرياضة على شيخ عارف. قال الششترى مترجما عن لسان الحقيقة :

إن ترد وصلنا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضله

ثم ذكر إمدادهم بالملائكة ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٩ الى ١٠]

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)

قلت : (إذ) : بدل من (إذ يعدكم) ، أو متعلق بقوله : (ليحق الحق) ، أو باذكر.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا حين كنتم تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ وتدعون بالغوث والنصر ، وذلك أن الصحابة – رضى الله عنهم – لمّا علموا ألّا محيص لهم عن القتال أخذوا يقولون : ربنا انصرنا على عدوك ، يا غياث المستغيثين أغثنا.

وعن عمر : رضى اللّه عنه (أنه صلّى اللّه عليه وسلّم نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة ، فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعوه : «اللهم أنجز لى ما وعدتني ، اللهمّ إن تهلك هذه العصابة لم تعبد فى الأرض» ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه ، فقال أبو بكر : يا نبىّ اللّه ، كفاك مناشدتك ربّك ، فإنه سينجز لك ما وعدك) «١». وقد تقدم أن الأنبياء وكبراء الأولياء لا يقفون مع ظاهر الوعد والوعيد ، لسعة دائرة علمهم ، بل لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير الله قرارهم ، ولعل ذلك الوعد يكون متوقفا على شروط أخفاها الحق تعالى لتظهر قهريته وانفراده بالعلم المحيط.

ولما استغاثوا بالله وأظهروا الحاجة إليه أجابهم فقال : فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ مقويكم ومكثركم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ يتبع بعضهم بعضا ، ويتبع المؤمنين ، فكانوا خلفهم ردءا لهم ، فمن قرأ بفتح الدال

---

(١) أخرجه مسلم فى (الجهاد – باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر). [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣١٠

فهو اسم مفعول ، ومن قرأه بالكسر فاسم فاعل ، وصح معنى القراءتين ، لأن الملائكة المنزلين يتبع بعضهم بعضا ، فمنهم تابعون ومتبوعون ، ومن قرأ بالفتح فالمراد مردفين بالمؤمنين ، فكانوا مقدمة الجيش ، ومن قرأ بالكسر فالمراد مردفين للمؤمنين تابعين لهم ، فكانوا ساقة للجيش.

ثم ذكر حكمة الإمداد بقوله : وَما جَعَلَهُ اللَّهُ أي : الإمداد ، إِلَّا بُشْرى أي : بشارة بالنصر ، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ فيزول ما بها من الوجل لقلتكم ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لا يتوقف على سبب ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يغلب ، حَكِيمٌ فى تدبير الأسباب وترتيبها رداء للقدرة الأزلية ، فإمداد الملائكة ، وكثرة العدد ، والتأهب ، وسائط ، لا تأثير لها ، فلا تحسبوا النصر منها ، ولا تيأسوا منه بفقدها ، فحكم الأزل جلّ أن يضاف إلى العلل.

الإشارة : إظهار الفاقة والابتهال لا يقدح فى صحة التوكل على الكبير المتعال ، بل هو شرف للإنسان ، وتقريب من الكريم المنان ، بل من شأن العارف الكامل الرجوع إلى اللّه فى كل شيء ، والتعلق به فى كل حال ، ولو وعده بالنصر أو الإجابة ، لا يقطع عنه السؤال ، عبودية وتملقا بين يدى الحبيب.

وقد اختلف الصوفية : أي الحالين أشرف : هل الدعاء والتضرع؟ أو السكوت والرضى تحت مجارى الأقدار؟ وقال بعضهم : يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه ، صاحب رضى بقلبه ، ليجمع بين الأمرين. قال القشيري :

والأولى أن يقال : إن الأوقات مختلفة ، ففى بعض الأحوال الدعاء أفضل ، وفى بعض الأحوال السكوت أفضل ، وإنما يعرف ذلك فى الوقت لأن علم الوقت يحصل فى الوقت ، فإذا وجد فى قلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء منه أولى ، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت أتم. هـ. وقد تقدم فى آل عمران إشارة الإمداد «١». وباللّه التوفيق.

ثم ذكر تأمينهم ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ١١ الى ١٢]

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (١٢)

---

(١) راجع إشارة الآية ١٢٥ من سورة آل عمران.

قلت : (إذ) : بدل ثان من (إذ يعدكم) ، أو متعلق بالنصر ، لما فى (عند اللّه) من معنى الفعل ، أو بإضمار اذكروا. ومن قرأ بضم الياء ، فهو من أغشى ، أي : غطى ، ومن قرأ بالتشديد ، فهو من غشى المضعف ، وكلاهما يتعدى إلى مفعولين ، الكاف الأول والنعاس الثاني ، ومن قرأ بالفتح والتخفيف ،

فهو من غشى يغشى المتعدى إلى واحد ، و(أمنة) : مفعول من أجله.
يقول الحق جل جلاله : واذكروا إِذْ يُغَشِّيكُمُ ، أي : حين كان يغشيكم النُّعاسَ وأنتم فى القتال ، حين ينزل عليكم الأمن من العدو بعد شدة الخوف ، وذلك لأجل الأمن الذي نزل من اللّه عليكم بعد شدة خوفكم.
قال ابن مسعود رضى اللّه عنه : النعاس عند حضور القتال علامة أمن من العدو.
ثم ذكّرهم بمنة أخرى ، فقال : وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ من الحدث والجنابة ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ أي : وسوسته وتخويفه إياهم من العطش ، روى أنهم نزلوا فى كثيب رمل دهس ، تسوخ فيه الأقدام ، على ماء قليل ، وناموا فاحتلم أكثرهم ، فوسوس إليهم الشيطان ، وقال : كيف تنصرون وأنتم تصلون محدثين مجنبين ، وتزعمون أنكم أولياء اللّه وفيكم رسوله؟ ، فأشفقوا ، فأنزل اللّه المطر ، فمطروا ليلا حتى جرى الوادي ، فاتخذوا الحياض على عدوته ، وسقوا الركاب ، واغتسلوا وتوضؤوا ، وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو ، حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الدهوسة ، وهذا معنى قوله : وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ أي : وليربط على قلوبكم بالوثوق على لطف اللّه وزوال ما وسوس إليهم الشيطان ، وذهاب الكسل عنها. وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ حتى لا تسوخ فى الرمل ، أو بالربط على القلوب حتى تثبت فى مداخص الحرب.
واذكروا أيضا : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ أي : أثبت أقدامكم حين أوحي إلى الملائكة أنى معكم فى نصر المؤمنين وتثبيتهم ، فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا بتكثير عددهم ، أو بالبشارة لهم ، أو بمحاربة أعدائهم ، على قول من قال : إنهم باشروا القتال. سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ والجزع ، حتى لا يثبتوا لقتالكم ، يحتمل أن يكون من خطاب اللّه للملائكة ، أو استئناف إخبارا للمؤمنين عما يفعله بعدوهم عاجلا وآجلا.
ثم قال للملائكة أو للمؤمنين : فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ أي : أعاليها التي هى المذابح والرؤوس ، وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ أي : أصابعهم ، أي : جزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم.
الإشارة : كان شيخ شيخنا يشير على الفقراء ، إذا كثرت عليهم الخواطر والهواجس ، بالنوم ، ويقول : من تشوش خاطره فليرقد حتى يشبع من النعاس ، فإنه يجد قلبه لأن النعاس أمنة من اللّه يذهب به رجز الشيطان وثقله ، ويربط على القلوب فى الحضرة لأنه زوال ، وإذا زال العبد ظهر الحق وزهق الباطل.

(٣١١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣١٢
وقوله تعالى : وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً : هو ماء الغيب الذي يطهر القلوب من شهود السّوى ،

ويذهب به رجز الشيطان ، وهى ظلمة الأكوان ، التي تنعقد فى القلب من حب الهوى الذي هو من تزيين الشيطان ، ويثبت به الأقدام ، حتى تثبت عند مصادمة أنوار الحضرة ، التي هى تجلى الذات ، فلا يثبت لها إلا الشجعان والأبطال وأكابر الرجال. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر علة أمرهم بقتل الكفار ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ١٣ الى ١٤]

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (١٣) ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (١٤)

قلت : (ذلكم) : مبتدأ حذف خبره ، أي : ذلكم العقاب أو العذاب ، أو خبر ، أي : الأمر ذلكم ، أو منصوب بمضمر يفسره فذوقوه ، و(أن للكافرين) : عطف على (ذلكم) ، أو نصب على المفعول معه ، وقرىء بالكسر استئنافا.

يقول الحق جل جلاله : لِكَ

الضرب لأعناق الكفار ، أو الأمر به أَنَّهُمْ

بسبب أنهم اقُّوا

أي : خالفواَّهَ وَرَسُولَهُ

، وصاروا كأنهم فى شق وهو فى شق مبالغة فى المخالفة والمباعدة ، مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

ويبعد عنهماإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ

لكل من خالفه أو خالف رسوله ، وهو تقرير للتعليل ، أو وعيد بما أعد اللّه لهم فى الآخرة بعد ما حاق بهم فى الدنيا ، ذلِكُمْ العذاب فَذُوقُوهُ وباشروا مرارته ، وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ ، والمعنى : ذوقوا ما عجل لكم من النقمة فى الدنيا مع ما يحل عليكم فى الآخرة من عذاب النار ، ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أن الكفر سبب العذاب العاجل والآجل.

الإشارة : مخالفة اللّه ورسوله توجب الطرد والبعاد ، وموافقة اللّه ورسوله توجب القربة والوداد ، وهذه الموافقة التي توجب للعبد المحبة والوداد تحصل بخمسة أشياء : امتثال أمره ، واجتناب نهيه ، والإكثار من ذكره ، والاستسلام لقهره ، والاقتداء بنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم والتأدب بآدابه ، والتخلق بأخلاقه ، وبأضداد هذه الأشياء يحصل للعبد المخالفة التي توجب طرده وبعده ، وهي مخالفة أمره ، وارتكاب نهيه ، والغفلة عن ذكره ، والتسخط عند نزول قهره ، وعدم الاقتداء بنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بارتكاب البدع المحرمة والمكروهة ، حتى يفضى به الحال إلى المشاققة والمباعدة ، مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ

. وبالله التوفيق.

ثم نهى عن الفرار فى الحرب ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ١٥ الى ١٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)

قلت : (زحفا) : مصدر ، وزحف الصبى إذا دب على مقعده قليلا قليلا ، سمى به الجيش المقابل للقتال لأنه يندفع للقتال شيئا فشيئا ، ونصبه على الحال من فاعل «لقيتم» ، أو «من الذين كفروا» ، و(متحرفا) و(متحيزا) :

حالان ، و(إلا) ملغاة ، ووزن متحيز : متفيعل ، لا متفعل ، وإلا لكان متحوزا لأنه من حاز يحوز.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا

زاحفين لهم ، تدبون إليهم ويدبون إليكم ، تريدون قتالهم متوجهين إليهم ، فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ بالانهزام عنهم ، فإنه حرام ، وهو من الكبائر ، ويفيد بألا يكون الكفار أكثر من ثلثى المسلمين ، فإن زادوا على ثلثى المسلمين حلّ الفرار ، وأن يكون المسلمون مسلحين ، وإلا جاز الفرار ممن هو بالسلاح دونه ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ ، وهو أن يكرّ راجعا أمام العدو ليرى عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه ، وهو من مكائد الحرب ، أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ أي :

منحازا إلى جماعة من المسلمين ليستعين بهم ، فإن كانت الجماعة حاضرة فى الحرب ، أو قريبة ، فالتحيز إليها جائز باتفاق ، واختلف فى التحيز إلى المدينة والإمام والجماعة إذا لم يكن شىء من ذلك حاضرا.

ويروى عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أنه قال : أنا فئة لكل مسلم. وروى عن ابن عمر : أنه كان فى سرية بعثهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ففرّوا إلى المدينة ، فقلت : يا رسول اللّه ، نحن الفرّارون ، فقال : «أنتم الكرّارون ، وأنا فئتكم» «١».

فمن فرّ من الجهاد بالشرط المتقدم فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، ومن هذا يفهم أنه من الكبائر. قال البيضاوي : وهذا إذا لم يزد العدو على الضعف ، لقوله : الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ... «٢»

الآية ، وقيل : الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه فى الحرب. هـ.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه بالمجاهدة والمكابدة : إذا لقيتم أعداءكم من القواطع كالحظوظ ، والشهوات ، وسائر العلائق ، فاثبتوا حتى تظفروا ، ولا ترجعوا وتولوهم الأدبار فيظفروا بكم ، إلا متحرفا

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٧٠) وأبو داود فى (الجهاد – باب فى التولي يوم الزحف) والترمذي وحسنه فى (الجهاد – باب ما جاء فى الفرار يوم الزحف).
(٢) الآية ٦٦ من سورة الأنفال.

لقتال بإيثار بعض الرخص ، ليقوى على ما هو أشد منها مشقة عليها ، أو متحيزا إلى جماعة من أكابر العارفين ، فإنهم يغنونه بالمشاهدة عن المجاهدة ، إذا ملكهم زمام نفسه ، وفعل كل ما يشيرون به عليه ، فإن ذلك يفضى به إلى الراحة بعد التعب ، والمشاهدة بعد المجاهدة ، إذ لا تجتمع المجاهدة فى الظاهر مع مشاهدة الباطن عند أهل الذوق.
قال القشيري – بعد كلامه على الآية : فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على خدمهم من نعمهم ، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مريديهم من هممهم يجبرون كسرهم وينوبون عنهم ، ويساعدونهم بحسن إرشادهم ، ومن أهمل مريدا وهو يعرف صدقه ، أو خالف شيخا وهو يعرف فضله وحقّه ، فقد باء من اللّه بسخط ، واللّه تعالى حسيبه فى مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه. هـ.
ثم عزلهم عن الحول والقوة ، فقال :
[سورة الأنفال (٨) : الآيات ١٧ الى ١٨]
فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (١٨)
يقول الحق جل جلاله : فلم تقتلوا الكفار بحولكم وقوتكم وذلتكم ، وقلة عدتكم وعددكم ، وكثرة عدد عدوكم وعدتهم ، وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ بواسطة مباشرتكم ، حيث أيدكم وسلطكم عليهم ، وإمداد الملائكة لكم ، وإلقاء الرعب فى قلوب عدوكم.
قال البيضاوي : روى أنه لما أطلّت قريش من العقنقل – اسم جبل – قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها ، يكذّبون رسولك ، اللّهمّ إنّى أسألك ما وعدتني» ، فأتاه جبريل ، وقال له : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فلمّا التقى الجمعان تناول كفا من الحصباء فرمى بها فى وجوههم ، وقال : «شاهت الوجوه» ، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه ، فانهزموا. وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر ، فيقول الرجل :
قتلت وأسرت ، فنزلت الآية ، وإلغاء جواب شرط محذوف ، تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ، ولكن اللّه قتلهم ، وَما رَمَيْتَ يا محمد رميا توصلها إلى أعينهم ، ولم تقدر عليه إِذْ رَمَيْتَ أي : حين

ألقيت صورة الرمي ، وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى ، أتى بما هو غاية الرمي ، فأوصلها إلى أعينهم جميعا ، حتى انهزموا وتمكنتم من قطع دابرهم. هـ. فالرمى ، حقيقة ، إنما وقع من اللّه تعالى ، وإن ظهر حسا من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

(٣١٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣١٥

وإنما فعل ذلك ليقطع طرفا من الكفار ، ويحد شوكتهم ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً أي : ليختبر المؤمنين منه اختبارا حسنا ، ليظهر شكرهم على هذه النعمة ، أو لينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لاستغاثتهم ودعائهم ، عَلِيمٌ بنياتهم وأحوالهم. ذلِكُمْ أي : البلاء الحسن ، أو القتل ، أو الرمي ، واقع لا محالة ، أو الأمر ذلكم ، وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ أي : مضعف كيد الكافرين ، ومبطل حيلهم ، أي : المقصود بذلك القتل أو الرمي إبلاء المؤمنين ، وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله للمريدين المتوجهين لحضرة محبوبهم : فلم تقتلوا نفوسكم بمجاهدتكم إذ لا طاقة لكم عليها ، ولكن اللّه قتلها بالنصر والتأييد ، حتى حييت بمعرفته ، ويقول للشيخ : وما رميت القلوب بمحبتى ومعرفتى ، ولكن اللّه رمى تلك القلوب بشيء من ذلك ، وإنما أنت واسطة وسبب من الأسباب العادية ، لا تأثير لك فى شيء من ذلك.

حكى أن الحلاج ، لما كان محبوسا للقتل ، سأله الشبلي عن المحبة ، فقال : الغيبة عما سوى المحبوب ، ثم قال :

يا شبلى ، ألست تقرأ كتاب اللّه؟ فقال الشبلي : بلى ، فقال : قد قال اللّه لنبيه – عليه الصلاة والسلام – : وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى ، يا شبلى إذا رمى اللّه قلب عبده بحبّة من حبّه ، نادى عليه مدى الأزمان بلسان العتاب. هـ. والمقصود بذلك : تخصيص أوليائه المقربين بالمحبة والمعرفة والتمكين ، وتوهين كيد الغافلين المنكرين لخصوصية المقربين. واللّه تعالى أعلم.

ولما أرادت قريش الخروج إلى غزوة بدر ، تعلقوا بأستار الكعبة ، وطلبوا الفتح ، وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين ، وأهدى الفئتين ، وأكرم الحزبين ، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة الأنفال (٨) : آية ١٩]

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

يقول الحق جل جلاله لكفار مكة على جهة التهكم : إِنْ تَسْتَفْتِحُوا أي : تطلبوا الفتح ، أي : الحكم

على أهدى الفئتين وأعلى الجندين وأكرم الحزبين ، فَقَدْ جاءَكُمُ الحكم كما طلبتم ، فقد نصر اللّه أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين ، وهو محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وحزبه ، وَإِنْ تَنْتَهُوا عن الكفر ومعاداة الرسول ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين ، وَإِنْ تَعُودُوا لمحاربته نَعُدْ لنصره ، وَلَنْ تُغْنِيَ تدفع عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ جماعتكم شَيْئاً من المضار وَلَوْ كَثُرَتْ فئتكم ، إذ العبرة بالنصرة لا بالكثرة ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بالنصر والمعونة.

(٣١٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣١٦

ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار ، أي : ولأن اللّه مع المؤمنين ، وقيل : الخطاب للمؤمنين ، والمعنى : إن تستنصروا فقد جاءكم النصر ، وإن تنتهوا عن التكاسل فى القتال ، والرغبة عما يختاره الرسول ، فهو خير لكم ، وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار ، أو تهييج العدو ، ولن تغنى ، حينئذ ، عنكم كثرتكم إذ لم يكن اللّه معكم بالنصر ، فإنه مع الكاملين فى إيمانهم. قاله البيضاوي.

الإشارة : إن تستفتحوا أيها المتوجهون ، أي : تطلبوا الفتح من اللّه فى معرفته ، فقد جاءكم الفتح ، حيث صح توجهكم وتركتم حظوظكم وعلائقكم ، لأن البدايات مجلاة النهايات ، من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو علامة القبول آجلا ، وإن تنتهوا عن حظوظكم وعوائقكم فهو خير لكم ، وبه يقرب فتحكم ، وإن تعودوا إليها نعد إليكم بالتأديب والإبعاد ، ولن تغنى عنكم جماعتكم شيئا فى دفع التأديب ، أو البعد ، ولو كثرت ، وأن اللّه مع المؤمنين الكاملين فى الإيمان بالنصر والرعاية.

ثم أمر بالسمع والطاعة ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٢٠ الى ٢١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ فيما أمركم به ونهاكم عنه ، وَرَسُولَهُ فيما ندبكم إليه ، من الجهاد وغيره ، وَلا تَوَلَّوْا أي : تعرضوا عن الرسول وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ القرآن يأمركم بالتمسك به ، والاقتداء بهديه. والمراد بالآية : النهى عن الإعراض عن الرسول. وذكر طاعة اللّه إما هو للتوطئة والتنبيه على أن طاعة اللّه فى طاعة الرسول ، لقوله : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ «١» ، ثم أكد النهى بقوله : وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا بآذاننا ، كالكفرة والمنافقين ، ادّعوا السماع ، وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ سماعا ينتفعون به ، فكأنهم لا يسمعون رأسا.

الإشارة : لما غاب عليه الصلاة والسلام بقي خلفاؤه فى الظاهر والباطن وهم العلماء الأتقياء ،

والعارفون الأصفياء. فمن تمسك بهم ، واستمع لقولهم ، فقد تمسك بالرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عنه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فمن تمسك بما جاءت به العلماء ، فاز بالشريعة المحمدية ، وكان من الناجين الفائزين. ومن تمسك بالأولياء العارفين ، واستمع لهم ، وتبع إرشادهم ، فاز بالحقيقة الربانية ، وكان من المقربين. ومن سمع منهم الوعظ والتذكير ،

---

(١) من الآية ٨٠ من سورة النساء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣١٧

ثم صرفه عن نفسه إلى غيره ، يصدق عليه قوله تعالى : وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ وكان من شر الدواب التي أشار إليهم تعالى بقوله :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٢٢ الى ٢٣]

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ وهو كل من يدب على وجه الأرض ، الصُّمُّ عن سماع الحق ، الْبُكْمُ عن النطق به ، الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ الحق ولا يعرفونه ، عدهم من البهائم ثم جعلهم شرها لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله ، وهو استعمال العقل فيما ينفعهم من التفكر والاعتبار. قال ابن قتيبة : نزلت هذه الآية فى بنى عبد الدار ، فإنهم جدوا فى القتال مع المشركين ، يعنى يوم بدر ، وحكمها عام.

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً سعادة كتبت لهم ، أو انتفاعا بالآيات ، لَأَسْمَعَهُمْ سماع تفهم ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ، مع كونه قد علم الأخير فيهم ، لَتَوَلَّوْا عنه ، ولم ينتفعوا به ، وارتدوا بعد التصديق والقبول ، وَهُمْ مُعْرِضُونَ عنه ، لعنادهم ، وقيل : إنهم طلبوا من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يحيي لهم قصى بن كلاب ، ويشهد له بالرسالة ، حتى يسمعوا منه ذلك ، فأنزل اللّه : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ كلامه بعد إحيائه ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ، لسبق الشقاوة فى حقهم.

الإشارة : اعلم أن الأمر الذي شرف به الآدمي وفضل غيره هو معرفة خالقه ، واستعمال العقل فيما يقربه إليه ، وسماع الوعظ الذي يزجره عن غيه ، فإذا فقد هذا كان كالبهائم أو أضل ، ولله در ابن البنا ، حيث يقول فى مباحثه :

واعلم أنّ عصبة الجهّال بهائم فى صور الرّجال

واعلم أيضا أن بعض القلوب لا تقبل علم الحقائق ، فأشغلها بعلم الشرائع ، ولو علم فيها خيرا لأسمعها تلك الأسرار ، ولو أسمعها ، مع علمه بعدم قبولها ، لتولت عنها وأعرضت لضيق صدرها وعدم التفرغ لها.

ثم دل على ما فيه حياة القلوب ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٢٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)

(٣١٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣١٨

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ أي : أجيبوه فيما دعاكم إليه ، وَلِلرَّسُولِ فيما دلكم عليه من الطاعة والإحسان ، إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ من العلوم الدينية فإنها حياة القلب ، كما أن الجهل موته ، أو إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ الحياة الأبدية ، فى النعيم الدائم ، من العقائد والأعمال ، أو من الجهاد ، فإنه سبب بقائكم إذ لو تركتموه لغلبكم العدو وقتلكم ، أو الشهادة ، لقوله تعالى : أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ «١» ، ووحد الضمير فى قوله : إِذا دَعاكُمْ باعتبار ما ذكر ، أو لأن دعوة الله تسمع من الرسول.

وفى البخاري : أن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم دعا أبىّ بن كعب ، وهو فى الصّلاة ، فلم يجب ، فلما فرغ أجاب ، فقال له صلّى اللّه عليه وسلّم :

«ما منعك أن تجيبنى؟ فقال : كنت أصلى ، فقال : ألم تسمع قوله : اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ.» «٢» فاختلف فيه العلماء ، فقيل لأن إجابته صلّى اللّه عليه وسلّم لا تقطع الصلاة ، فيجيب ، ويبقى على صلاته ، وقيل : إن دعاءه كان لأمر لا يقبل التأخير ، وللمصلى أن يقطع الصلاة لمثله ، كإنقاذ أعمى وشبهه.

ثم قال تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ فينقله من الإيمان إلى الكفر ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن اليقين إلى الشك ، ومن الشك إلى اليقين ، ومن الصفاء إلى الكدر ، ومن الكدر إلى الصفاء. قال البيضاوي : هو تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله تعالى : وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ «٣» ، وتنبيه على أنه مطلع على مكنونات القلوب ، مما عسى أن يغفل عنها صاحبها ، أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها ، قبل أن يحول اللّه بينه وبين قلبه بالموت أو غيره ، أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ، ويغير مقاصده ، ويحول بينه وبين الكفر ، إن أراد

سعادته ، وبينه وبين الإيمان ، إن قضى شقاوته. هـ. وَاعلموا أيضا أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فيجازيكم بأعمالكم وعقائدكم.

الإشارة : قد جعل اللّه ، من فضله ورحمته ، فى كل زمان وعصر ، دعاة يدعون الناس إلى ما تحيا به قلوبهم ، حتى تصلح لدخول حضرة محبوبهم ، فهم خلفاء عن اللّه ورسوله ، فمن استجاب لهم وصحبهم حيى قلبه ، وتطهر سره ولبه ، ومن تنكب عنهم ماتت روحه فى أودية الخواطر والأوهام.

---

(١) من الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الأنفال – باب قول اللّه تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ..) وفيه أن المدعو هو «أبو سعيد المعلى» وليس «أبى» أما حديث أبى فأخرجه الترمذي فى : (فضائل القرآن – باب ما جاء فى فضل فاتحة الكتاب) وأحمد فى المسند ٥/ ١١٤ والدارمي فى (فضائل القرآن – باب فضل فاتحة الكتاب) والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٥٨) وصححه ووافقه الذهبي. وقال الحافظ ابن حجر : وجمع البيهقي بأن القصة وقعت لأبى بن كعب ولأبى سعيد بن المعلى. راجع الفتح ٨/ ١٥٨.

(٣) الآية ١٦ من سورة ق.